المحتويات





مُقَدِّمَة

الوحي الإلهي أهم عنصر يُميِّز شخصية النبي أو الرسول عن غيره من سائر البشر، وهو أكبر الدعائم التي ترتكز عليها حقيقة النبوة، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن الوحي هو أصل الأديان السماوية وجوهرها، ولِمَ لا، وهو كلمة الله ﷻ إلى خلقه ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولا شك أن المهمة الكبرى التي من أجلها بعث الله الأنبياء والرسل هي تبليغ هذا الوحي إلى العباد من غير زيادة ولا نقصان، ولا تبديل ولا تغيير: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ (المائدة: ٩٩)، ولا تقف مهمة الرسل عند حد بيان الحق وإبلاغه، بل عليهم دعوة الناس إلى الإيمان برسالتهم، والاستجابة لها، وتحقيقها قولًا وعملًا.

هذا، ولم يكن محمد ﷺ نبي الإسلام بدعًا من الأنبياء والرسل - عليهم السلام - في شيء من ذلك، بل كانت مهمته أثقل، ومسئوليته ﷺ أضخم من غيره من الأنبياء والرسل.

ولا عجب في ذلك، فقد اصطفاه الله ﷻ برسالته، واختصَّه بنزول الوحي عليه، وكلَّفه بتبليغ وحيه ورسالته الخاتمة إلى الخلق أجمعين، واختصَّه دون سائر الرسل بعالمية رسالته ودوامها إلى يوم الدين. فيا لها من مهمة! ويا لها من مسئولية!

ومنذ أن بدأ النبي ﷺ بالامتثال لتكليف ربه، والجهر بدعوة الإسلام وتلاوة ما أُوحي إليه من قرآن على الناس، أدرك أعداؤه خطورة هذا الوحي القرآني على تقاليدهم البالية، وأطماعهم الدنيويَّة، فاتخذوا منه هدفًا لسهامهم وخناجرهم المسمومة، واجتهدوا بكل الوسائل لهدمه، لعل صرح الإسلام ينهار على إثره، إذ الوحي هو أساس الإسلام، فإذا انهار انهار - بلا شك - الإسلام.

ومن ثم وجدناهم قد كثَّفوا حملاتهم وهجماتهم المغرضة على الوحي المحمدي، وبذلوا قُصارَى جهدهم في إثارة الشبهات حوله؛ لنفي إلهيته، وحاولوا بشتى الطرق إثبات أنه نتاج بشري، وليس من عند الله تعالى، فافترضوا كل الاحتمالات - التي لا تستند إلى دليل واقعي أو عقلي - التي يمكن أن تصل بهم إلى هذه النتيجة الجائرة، معرضين بذلك عن منهج البحث العلمي النزيه.

ويكفي أن نعلم أن معظم من أثاروا هذه الشبهات لنفي إلهية الوحي المحمدي - بدعوى أنه من الأمور التي لا يتصورها العقل وتخرج عن إطار العادة - هم من المبشِّرين والمستشرقين من أهل الكتاب الذين يؤمنون بحدوث الوحي لموسى وعيسى وسائر الأنبياء - عليهم السلام -، ولكنه التعصب الأعمى، والحقد الدفين على نبي الإسلام محمد ﷺ.

ومن ثم جاء هذا الجزء للتصدِّي لهذه الحملات الظالمة والهجمات المغرضة على الوحي والدعوة المحمدية، ولمناقشة هذه الشبهات المثارة من خصوم الإسلام، وتفنيدها، وكشف زيفها، وردِّ باطلها، وإماطة اللثام عن وجه الحق.

هذا، وقد تم تقسيم هذا الجزء إلى محورين هما:

الأول: الرد على الشبهات المثارة حول مصدر الوحي المحمدي وتبليغ النبي ﷺ له مثل: الزعم أن النبي ﷺ أخذ أصول دينه عن بعض رهبان النصارى، والزعم أن القرآن نابع من ذات النبي ﷺ، والطعن في أمانة النبي ﷺ في تبليغ الوحي... إلخ.

الآخر: الرد على الشبهات المثارة حول الدعوة المحمدية مثل: الزعم أنه ﷺ كان داعيًا اشتراكيًّا لا رجل دين، والزعم أن الدعوة المحمدية لم تغيِّر شيئًا في أخلاق العرب ومَدَنِيَّتهم، وإنكار ما أرسله النبي ﷺ للملوك والأمراء من رسائل... إلخ.

هذا، وقد أردنا من خلال تفنيدنا لهذه الشبهات المثارة حول الوحي والدعوة المحمدية التأكيد على عدة حقائق نوجز بعضها في النقاط الآتية:

- إن أمية النبي ﷺ بالإضافة إلى إعجاز القرآن الكريم في كافة الوجوه، وعجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، كل ذلك ينفي بشرية القرآن ويثبت كونه إلهي المصدر.
- إن القرآن الكريم جاء مخالفًا لكتب اليهود والنصارى في كثير من الأمور، بل أثبت خطأها وتحريفها، وهذا ينفي كونه مقتبسًا من هذه الكتب.
- لقد قام النبي ﷺ بتبليغ وحي ربه حق القيام، فأداه كما أُنزل عليه دون تغيير أو زيادة أو نقصان.
- إن الدعوة التي بدأها النبي ﷺ من مكة لم تكن تهدف إلى إقامة وطن صغير، بل كانت دعوة عالمية تعمُّ الزمان والمكان والبشر كافة.
- من الثابت أن النبي قد أرسل إلى ملوك عصره رسائل لدعوتهم إلى الإسلام، وبعض من هذه الرسائل لم يزل موجودًا حتى الآن في بعض المتاحف الإسلامية.

وفي النهاية، فإننا نقرر أن البشرية منذ آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لم تشهد ـ ولن تشهد ـ رجلًا أخلص في دعوته إلى الله عز وجل كما أخلص محمد ﷺ، كما أنها لم تشهد ـ ولن تشهد ـ رجلًا كان حريصًا على هداية الناس أجمعين مثل محمد ﷺ حتى كاد أن يهلك نفسه أسفًا على من لم يؤمن، حتى عاتبه ربه قائلًا: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾ (الكهف).

وقد شهد له بذلك بعض الغربيين المنصفين أمثال توماس كارليل إذ يقول: "كان محمد ﷺ مثلًا للإخلاص، والوقوف بجانب الحق والعدالة في كل ما يفعل، وكل ما يقول، وكل ما يفكر فيه. لم يكن محبًّا لنفسه، بل كان محبًّا لغيره أمينًا في أداء رسالته".





الشبهة الأولى

الزعم أن الشيطان هو مصدر الوحي المحمدي (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقوِّلين أن النبي ﷺ كان متصلًا بالجن، وأن من كان يأتيه ويَظُنُّ أنه جبريل المَلَك ما هو إلا شيطان كان يتمثَّل له على صورة جبريل ، ويبرهنون على ذلك بما كان من خلوته ﷺ بغار حراء قبل البعثة، فإن ما كان ينزل عليه من وحي في تلك الخلوة ما هو إلا من تأثير مس الجن له ﷺ. ويرمون من وراء ذلك إلى جَعْل الوحي شيطانيًّا محضًا، بدلًا من كونه وحيًا سماويًّا ربانيًّا إلهيًّا، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ؛ ليكون من المنذِرين.

وجوه إبطال الشبهة:

١) من الواضح الجلي أن القرآن والسنة قد أكدا على صدق الاتصال الحسي بين النبي ﷺ وجبريل ، وقد تمثَّل هذا في النفي المتكرر لأن يكون الوحي القرآني من كلام الشيطان، ناهيك عن أن الشيطان لا يتصور بصورة مَلَك.

٢) لقد اشتمل القرآن الكريم على غيبيات كثيرة، والغيب لا يعلمه إلا الله، ولا علم لأحد به من جنٍّ أو إنسٍ، فكيف يصدر عن هذا الشيطان المُدَّعَى مثل هذه الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله؟! ثم إن القرآن يدعو إلى الهُدَى والصلاح، أما الشيطان فإمام الفساد والضلال، فكيف يكون هذا القرآن من الشيطان؟!

٣) أجمعت الأمة على عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان، فكيف يستلهم القرآن منه؟!

٤) إن هؤلاء الذين يشككون في القرآن ومصدره، يؤمنون بنزول الوحي على موسى وعيسى - عليهما السلام - فكيف يفرقون في إيمانهم بين نبي وآخر؟ إن هذا أكبر دليل على تحاملهم على نبي الإسلام خاصة.

التفصيل:

أولا. نَفْي القرآن والسنة لأن يكون الوحي المحمدي كلام شيطان:

لقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة النفي المؤكد المتكرر لأن يكون الوحي القرآني كلام شيطان؛ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ ﴾ (التكوير)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ ﴾ (الشعراء).

يقول القرطبي: قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ ﴾ (الشعراء) يعني القرآن، بل ينزل به الروح الأمين: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢ ﴾ (الشعراء)، أي برمي الشهب[1].

وقوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي

(*) تلقي النبي ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١٣، ص١٤٢.

شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الحج).

إن هذه الآيات في سورة الحج تُعدُّ نموذجًا لبيان عناصر هذا النفي، المزيل للشُّبهة، المثبِّت لفؤاد المبلِّغ، ومن ثم لفؤاد أتباعه، وفؤاد طالبي الحق من بعده.

هذا، ومن الثابت أن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل في صورة النبي ﷺ، والنبي بشر، فهو من باب أولى لا يستطيع أن يتمثل في صورة مَلَك، ومن ذلك قوله ﷺ: "من رآني في المنام فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثَّل بي"[1].

وليس منع الشيطان من أن يأتي بصورة النبي ﷺ، إلا لإمكان خصوصية كونه مصدر نقل الوحي من بين البشر، فمصدر نقل الوحي السماوي إذن أولى بالمنع، ولذا قال الآلوسي: "وإذا لم يتمثل منامًا، فلأن لا يتمثل يقظة من باب أولى".

ثانيًا. القرآن فيه غيب كثير، والجن لا يعلمون الغيب، فكيف تكون الشياطين مصدر القرآن؟! والشياطين من طبيعتهم الفساد، بينما القرآن الكريم يدعو للهداية والصلاح:

كيف تكون الشياطين مصدر القرآن، وفي القرآن غيب كثير، والجن لا يعلمون الغيب، حتى إنهم ما علموا بموت سليمان ﷺ وهو أمامهم حتى سقط على الأرض، بعد أن أكلت دابة الأرض عصاه التي يستند عليها، قال الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ (سبأ). وقد تحدَّى الله تعالى بالقرآن الكريم الإنس والجن جميعًا فعجزوا عن الإتيان بمثله، قال الله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء).

فكيف ينسب القرآن إلى الجن وهم لا يستطيعون الإتيان بمثله[2]؟

وهل يُعْقَل أن الجن ـ التي يزعمون أنها مصدر القرآن ـ تُنْزِلُ القرآن على محمد ﷺ ثم تتحدى نفسها فيه بمثل هذه الآيات ؟!!

فمن المعروف أن الله ﷻ قد قصر علم الغيب على نفسه دون غيره من الإنس والجن والملائكة، قال ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (النمل: ٦٥)، وقال أيضًا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ٥٩)، وقال: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الجن).

فهذه أدلة على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وقد حفل القرآن الكريم بكثير من الغيبيات، فكيف يعلمها الشيطان؟!

وإذا كان الجن لا يعلمون الغيب، فبالله عليكم أي جنٍّ هذا الذي يخبر النبي ﷺ عن غيبيات وحقائق

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام (٦٥٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ: "من رآني في المنام فقد رآني" (٦٠٥٦)، واللفظ له.

٢. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٤١، ٤٢.

علمية لم تُعْرَف إلا في القرن العشرين، من كروية الأرض بشكل بيضاوي، ونظرية انتشار الكون، وأن عناصر المادة في الكون واحدة، وأن كمية الهواء في الأجواء تقل إلى درجة أن الإنسان يضيق صدره فيها، وأن الشمس والقمر يسبحان في هذا الفضاء، أي جن هذا الذي يستطيع معرفة ذلك كله؟! ولماذا خص به محمدًا ﷺ دون غيره؟! بل ولماذا لا يخبر جان بمثل هذا أحد المعاصرين ؟!!

وكيف يدَّعي هؤلاء أن النبي ﷺ قد استلهم القرآن الكريم من الشيطان، على الرغم من أن القرآن ينبهنا إلى عداوة الشياطين للإنسان، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ (فاطر)، ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأعراف).

فكيف يكون القرآن من وحي الجن والشيطان؟! وهو يدعو إلى معاداة الشيطان؛ لأنه يريد أن يضل الإنسان عن ربه فيهلك معه®.

ثالثًا. عصمة النبي ﷺ من الشيطان:

لقد حفظ الله ﷻ عباده المخلَصين من كيد إبليس وجنوده، فلا سبيل له عليهم، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (الإسراء). وقد اعترف إبليس بعجزه عن الكيد لهم، فحكى عنه رب العزة قوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص).

ولا شك أن أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ ورسله، وعلى رأسهم خاتمهم ﷺ على قمة عباد الله المخلَصين، الذين عصمهم رب العزة من كيد إبليس وجنوده. وحول عصمة النبي ﷺ من الشيطان يقول القاضي عياض في كتابه "الشفا": "واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى ـ كالجنون والإغماء ـ ولا على خاطره بالوساوس"[1].

وقد دل على المفهوم السابق القرآن الكريم والسنة المطهرة:

أما القرآن الكريم: فقد ورد فيه تعرُّض الشيطان لبعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في أجسامهم ببعض الأذى، وعلى خاطرهم بالوسوسة، مع عصمة الله ﷻ لهم بعدم تمكن الشيطان من إغوائهم، أو إلحاق ضرر بهم يضر بالدين. قال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (ص)، وقال: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾(البقرة: ٣٦). وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (القصص)، وقال الله ﷻ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ (فصلت).

وليس في هذه الآيات الكريمات ونحوها ما

® في "اختصاص الله ﷻ بعلم الغيب" طالع: الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج٢، ص١١٧.

يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحجر).

أما السنة المطهرة: فقد ورد فيها ما يؤكد ما ورد في القرآن الكريم من تعرض الشياطين لرسول الله ﷺ في غير موطن؛ رغبة في إطفاء نوره، وإماتة نفسه، وإدخال شغل عليه، ولكن كانت عصمة الله ﷻ له حائلة دون تمكُّن الشياطين من إغوائه أو إلحاق ضرر به.

ومن هذه الأحاديث التي تدل على ما سبق، ما يأتي:

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينه[1] من الجن"، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: "وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير"[2].

وقوله "فأسلم" برفع الميم وفتحها، روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أَسْلَمُ أنا من شره وفتنته، ومَنْ فَتَحَ قال: إن القرين أَسْلَمَ من الإسلام، وصار مؤمنًا لا يأمرني إلا بخير.

وصحَّح الخطابي وغيره رواية الرفع، ورجَّح القاضي عياض والنووي والزرقاني الفتح؛ لأنه ظاهر الحديث في قوله ﷺ: "فلا يأمرني إلا بخير".

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن عفريتًا من الجن جعل يَفْتِك[3] عليَّ البارحة ليقطع عليَّ الصلاة، وإن الله أمكنني منه فَذَعَتُّه[4]، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون، أو كلكم، ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (ص)، فرَدَّه الله خاسئًا"[5][6].

- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول: "أعوذ بالله منك"، ثم قال: "ألعنك بلعنة الله" ثلاثًا. وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: "إن عدو الله - إبليس - جاء بشهاب[7] من نار، ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات. ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله! لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقًا يلعب به ولدان أهل المدينة"[8].

وهكذا كانت عصمة المولى ﷻ لرسوله ﷺ من الشياطين، حتى مرض وفاته الذي لدَّه[9] فيه بعض الحاضرين عنده بغير إذنه، ولما سألهم ﷺ عن ذلك

---

١. القَرِين: المصاحب.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعث سراياه لفتنة الناس (٧٢٨٦).

٣. يَفتِك: يأخذه على غفلة وخديعة.

٤. ذَعَتَ: خَنَق.

٥. الخاسئ: المطرود.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد (٤٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوُّذ منه (١٢٣٧)، واللفظ له.

٧. الشِّهاب: الشُّعلة الساطعة من النار.

٨. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (١٢٣٩).

٩. لَدَّ المريضَ: جعل لسانه في جانب فمه ووضع له الدواء في الجانب الآخر.

قالوا: خشينا أن يكون بك ذات الجنب، فبين لهم رسول الله ﷺ أن ذات الجنب من الشيطان، وهو معصوم منه قائلًا: "إنها من الشيطان، ولم يكن الله ﷻ ليسلطه علي"[1][2].

وإذا كانت عصمة النبي ﷺ من الجن بهذا الشكل وهذه الدرجة، فكيف يتلقى عنه القرآن؟! بل إن الجن أنفسهم ليتعجبون مما نزل على النبي محمد ﷺ، يقول ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ (الجن)، ويدعون قومهم للإيمان به، يقول ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الأحقاف) فكيف يوحون إلى محمد القرآن ثم يتعجبون منه ويأمرون قومهم بأن يجيبوا محمدًا ﷺ®؟!!

١. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٣٨٩)، والحاكم في مستدركه، كتاب الطب (٨٢٣٥)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، دار الصحيفة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٧٠: ٧٤.

® في **"عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والوجه الثالث، من الشبهة الثانية، والوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

رابعًا. تفريق هؤلاء الطاعنين بين النبي ﷺ وبين غيره من الأنبياء عليهم السلام في شأن الوحي:

إننا نتوجه إلى مثيري هذه الشبهة بالتساؤلات الآتية: لماذا تفرقون في أمر الوحي بين محمد ﷺ وبين أخويه موسى وعيسى - عليهما السلام -؟ وكيف ترفضون الوحي إلى محمد ﷺ وتقبلون ما هو دون الوحي من إلهامات تزعمون أنها حصلت لِقدِّيسيكم، وفيها من الأقوال والأخبار ما لا تقبله العقول؟!

إنما حدث ذلك بسبب أحقاد هؤلاء الدفينة، وعداوتهم المتوارثة، وعدم رغبتهم في اتباع الحق الذي أتاهم به خاتم النبيين، وإمام المرسلين المصطفى ﷺ، ورغبتهم في اتباع الهوى الذي زينته لهم نفوسهم الأمارة بالسوء[3].

ومن قديم كان الادعاء الذي حكاه الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١)، ورد عليهم الله بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ (الأنعام: ٩١).

فكأن الله ﷻ يقول: كيف يستكثرون الوحي على النبي محمد ﷺ مع أنه قد حصل بالفعل؛ كالوحي إلى موسى ﷺ بالتوراة وإلى عيسى ﷺ بالإنجيل[4]، فكيف يؤمنون بنسبة التوراة والإنجيل إلى الله، وينكرون كلامه في القرآن، مع العلم بأن القرآن هو الصدق، كل الصدق في كل ما جاء به من عقيدة

٣. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٣٩.

٤. المصطفون الأخيار، الشيخ عطية صقر، دار مايو الوطنية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٢٤، ١٢٥.

وشريعة وقصص[1]، وهو كتاب تكفَّل الله بحفظه من التحريف والتبديل منذ أن أنزله، على خلاف التوراة والإنجيل اللذين يجدون فيهما التحريف والتبديل واختلاف الروايات، ومن هنا رُفِعَت الثقة التاريخية والقداسة الدينية عن أخبارهما وتشريعاتهما[2].

وينكر د. محمد أبو شهبة على المفترين تناقضهم وتفريقهم بين الأنبياء، ويوضح لهم أن التشكيك في نبوة محمد ﷺ هو تشكيك في نبوة كل الأنبياء، يقول: "ثم ما رأي هؤلاء الطاعنين - وفيهم من ينتمي إلى بعض الأديان - في أنهم لا ينالون من نبي الله محمد ﷺ وحده، وإنما ينالون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب وصحف أُوحي بها من عند الله ﷻ!! فهل تطيب نفوسهم أن يخرِّبوا بيوتهم قبل أن يخربوا بيوت غيرهم؟!! وما رأيهم فيما جاء في كتب العهد القديم والجديد من إيحاءات ونبوات؟! وهل يقولون في وحي نبي الله موسى وعيسى - عليهما السلام - ما يقولون في وحي خاتم الأنبياء محمد ﷺ"[3]؟!

إذن فما يُقال تأييدًا لوحي عيسى عليه السلام أو موسى يصح أن يقال تأييدًا لوحي محمد ﷺ... أما الأمر الذي يجب أن ينكره البحث العلمي - بهذا التحديد - فهو أن يُنَاقَش نوع من الوحي ويُتشكك فيه باسم العلم، ثم يُصان نوع آخر على أنه بديهي التسليم، وبعيد عن مجال الجدل العقلي النظري أو العلم التجريبي!! فقضية الوحي إذن قضية عامة مشتركة، تشمل جميع الأنبياء عليهم السلام ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧)[4].

إن الرسول ﷺ ليس ببدع من الرسل في باب الوحي، فقد أُوحي إليه كما أُوحي إليهم، وصدق الحق تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ (النساء).

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (الشورى)[5].

ثم إذا علمنا أن النبي ﷺ قد جاءت البشارة به في كتبهم - التوراة والإنجيل - فإنه أيضًا جاء في كتبهم أنه يُوحى إليه، وأنه لا يتكلم من نفسه، إنه النبي ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي... كما تنص التوراة: "وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلَّم به باسمي أنا أطالبه". (التثنية ١٨: ١٨، ١٩)، فهو لا يتكلم من نفسه، ولكن يتكلم بما يُوحِي إليه ربه.

كما يخبر المسيح عيسى عليه السلام عن هذه الحقيقة بقوله: "وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به". (يوحنا ١٣: ١٦).

وإذا كان هذا ثابتًا في كتبهم لا يُمارَى فيه؛ فإن صفة

---

١. المرجع السابق، ص١٢.

٢. المرجع السابق، ص٢٥.

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٧٨.

٤. مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام، د. إسماعيل علي محمد، دار النيل، مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٧١.

٥. المرجع السابق، ص٢٧٩.

الوحي إلى نبينا محمد ﷺ، توافق صفة الوحي إلى من تقدمه من النبيين: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ (الشورى)[1]. فلا شك أن هذا مثل ذاك، لذا كان قول ورقة بن نوفل لمحمد ﷺ: "هذا الناموس الذي أُنزل على موسى".[2] وإذا كان ذلك كذلك فلماذا هذا التحيُّز بقولهم باتصال النبي ﷺ بالجن وتلقيه عنها؟! فهذا ما لا يقبله عقل ولا يتوافق مع منهجية البحث.

إن القرآن تحدَّى العرب والعجم، والإنس والجن، أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، وكان القرآن الكريم - ولا يزال - معجزة الرسول ﷺ، ولِمَ الشك في أمر الرسول ﷺ وقد لبث في قومه - من قبل ذلك - أربعين عامًا؟ فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة! ذلك أن هذا الأمر، إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (يونس).

وقد عُرِف النبي ﷺ في قومه قبل البعثة بالصادق الأمين، وقد لقبه قومه بذلك لأنهم لم يعهدوا عليه كذبًا قط، بل كانوا يعرفونه بالصدق والأمانة، ورجاحة العقل، فلِمَ الشك في أمره مع أنه تجرد من كل أمر دنيوي[3]؟

وكان الوحي في غار حراء من أشد ما لقيه النبي ﷺ في تلقي الوحي، وجبريل عليه السلام ليس ملكًا عاديًّا، بل هو الروح، كما أن القرآن روح، فتجتمع الحياة الحقة منهما، وإذا كانت الحياة تسري في الجسد الميت عندما ينفخ فيه الروح، فما ظنك بروح يُلقن النبي ﷺ روحًا، وجبريل عليه السلام هو الأمين الذي يتسم بأمانة الأداء، فلا يُبَدِّلُ مما يؤديه حرفًا زيادة ولا نقصًا.

وقد جاءت الآيات في القرآن الكريم في وصف كيفية إنزال جبريل عليه السلام بالقرآن، يقول ﷻ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (الشعراء). ويضاف إلى هذا أن قلب النبي ﷺ قد نُزِع منه حظ الشيطان، وتم إعداده إلهيًّا. فلا مجال في ذلك لتواجد الشياطين أو وسوستها للنبي الكريم ﷺ في تلقي ألفاظ القرآن الكريم[4].

ويجدر بنا الآن أن نتوجه إلى مثيري هذه الشبهة بهذه الأسئلة: لماذا لم يُعَلِّم أحد الشياطين أحدًا من العرب قرآنًا مثل هذا؟! ولماذا خص محمدًا دون من عداه مع أنه أُمِّيٌّ؟ أليس من الحكمة أن يختار هذا الشيطان أو الجان رجلًا متعلمًا، أو يتنزل على من عُرف باتصاله بالجن والكهانة، أو حتى أرباب الفصاحة من الشعراء؛ إذ كانوا يقولون إن لكل شاعر شيطانًا؟!، ثم أين كان هذا الجن منذ أن كان النبي ﷺ يتعبد في الغار من سنوات، ولماذا يأتي فجأة هكذا، لم يمهِّد،

1. وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، شركة كندة، القاهرة، ط1، 1427هـ/ 2006م، ج1، ص327.
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا (6581)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (422).
3. دلائل النبوة ومعجزات الرسول، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط2، 1404هـ/ 1984م، ص344.
4. تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام المجيدي، مرجع سابق، ص82، 83 بتصرف.

وخاصة أن هذا أمر خطير سيغير وجهة الكون؟!

ومن ثم فلا يسعنا إلا القول بأن النبي ﷺ معصوم من الجن، وأن ما يأتيه وحي نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، من رب العالمين، بلسان عربي مبين[1] ®.

الخلاصة:

- سجَّل التاريخ الاتصال بين النبي ﷺ وملك الوحي جبريل عليه السلام، والقرآن والسنة الصحيحة قد أكدا ذلك.
- كان النبي ﷺ معروفًا في قومه بالصادق الأمين، ومعروفًا برجاحة العقل، فكيف لمن عاش أربعين عامًا بين الناس معروفًا بالصدق والأمانة أن يتحول فجأة إلى كاذب أثيم؟!
- إن هناك أدلة عقلية تبطل ما ادعاه هؤلاء الطاعنون من أن الشيطان هو مصدر الوحي المحمدي، وهي:
  - أن القرآن فيه غيب كثير، والجن لا يعلمون الغيب، فكيف يصدر عنهم هذا الكلام المتضمن الكثير من الغيبيات؟!
  - أن الشياطين من طبيعتهم الفساد والإضلال للناس، بينما يدعو القرآن الكريم للهداية والخير والصلاح، وينهى عن الشر والفساد، فكيف يصدر مثل هذا الكلام من الشياطين أو من إبليس؟!
  - أن الله تبارك وتعالى تحدى بالقرآن الإنس والجن، فعجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم فكيف يُنسب القرآن للجن، وهي لا تستطيع الإتيان بمثله، وهل يَتحدى الجن نفسها فيما قالته حسب زعمهم ؟!
  - لماذا لم تُعلِّم الجن أحد العرب غير محمد ﷺ، وهو ﷺ أميٌّ؟! ولماذا لم يختر هذا الشيطان رجلًا متعلمًا؟ ولِـمَ لَـمْ ينزل على أصحاب الكهانة والدجل أو من عُرِفوا باتصالهم بالجن؟!
  - أين كان هذا الشيطان منذ أن كان النبي ﷺ يتعبد قبل أن ينزل عليه الوحي، ولماذا تأخر هذه الفترة ثم خرج فجأة بمثل هذا الأمر الخطير الذي غير مجرى حياة البشر؟!
- إنكار نبوة النبي محمد ﷺ والتشكيك في مصدر الوحي إليه، إنما هو تشكيك في نبوة أنبياء الله جميعهم من قبله؛ وذلك أن من يشكك في مصدر الوحي المحمدي يفرق بين أنبياء الله، فكيف يؤمنون بالوحي إلى موسى وعيسى - عليهما السلام -، ولا يؤمنون بالوحي إلى محمد ﷺ ؟!

---

١. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص١٥١، ١٥٢.

® في **"البشارة بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

الشبهة الثانية

الزعم أن الوحي المحمدي كان نتيجة تأثره ﷺ بالحنفاء(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن لم يكن وحيًا إلهيًا، بل كان فقط نتيجة تأثره ﷺ بالحنفاء الذين تأثروا هم الآخرون باليهودية والنصرانية، ورفضوا ما كانت عليه قريش من عبادة الأوثان؛ ويستدلون على ذلك بوجود ألفاظ في القرآن والسنة من شعر أمية بن أبي الصلت، ومعلوم أن أمية كان من شعراء الحُنفاء المتأثرين باليهودية والنصرانية. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في مصدر الوحي المحمدي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يتأثر النبي ﷺ بالحنفاء ولا غيرهم، ولو تأثر بهم لذكر المشركون ذلك في جملة اعتراضاتهم على رسول الله ﷺ وما جاء به، أو لَذَكَرَه أمية بن أبي الصلت الذي كان يطمع في النبوة وينتظرها، وينقم على النبي ﷺ اختصاصه بها، ثم ألم يكن من الأولى أن يدَّعي هؤلاء الحنفاء النبوة ما داموا هم الأساتذة وهو ﷺ التلميذ؟!

٢) اختلاف القرآن الكريم والحديث الشريف عن الكتب السابقة - التوراة والإنجيل - التي يزعمون أن الحنفاء تأثروا بها - يدلُّ على عدم تأثر النبي ﷺ بهذه الكتب، فهل يُعْقل أن يتأثر بها ثم يخالفها؟!!

٣) إن ثبوت أمية النبي ﷺ من جهة، ووضوح إعجاز القرآن الكريم - أسلوبًا ونظمًا - من جهة أخرى؛ ينفيان كون القرآن الكريم من تأليف النبي ﷺ، بل وينفيان حتى مجرد تدخله في صياغة أفكاره، وسبك آياته بأي شكل من الأشكال، أو أن يكون نقلًا عن أحد أو تعلمًا منه؛ إذ كيف بأُمِّيٍّ أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز وقد عجز عنه أرباب البلاغة والفصاحة أنفسهم؟!

التفصيل:

أولا. حقيقة تأثر النبي ﷺ بالحنفاء:

لم يتأثر النبي ﷺ بالحنفاء ولا غيرهم، ولو تأثر بهم لذكر المشركون ذلك في جملة اعتراضاتهم على النبي ﷺ وما جاء به، أو لذكر ذلك أُميَّة بن أبي الصَّلْت الذي كان يطمع في النبوة وينتظرها، ويحقد على النبي ﷺ اختصاصه بها.

والحنفاء هم أفراد من العرب ظهروا قبل البعثة النبوية لم يقنعهم ما عليه أقوامهم من عبادة الأصنام، وغير ذلك من مظاهر هذا التحلل الروحي والفساد الاجتماعي. وبدلًا من أن يرى المستشرقون في ذلك دليلًا على أن الجو كان يستدعي ظهور نبي يصلح الأحوال المتردية في الجزيرة العربية وفي العالم أيضًا، إذ كانت الأوضاع في الإمبراطوريات العالمية في ذلك الوقت، مثلها في شبه الجزيرة سوءًا بل أسوأ - نراهم كعهدهم فيما يتعلق بالإسلام ونبيه يتهمونه ﷺ بالأخذ

(*) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣م. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م. الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، د. سيد القمني، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠م.

من هؤلاء الحنفاء[1].

ثم لو حدث أن النبي ﷺ قد تعلم من أيهم لذكر ذلك واحد كأمية بن أبي الصلت ـ مثلًا ـ الذي كان يحقد على النبي ﷺ؛ لأنه كان يطمع في أن تكون النبوة من نصيبه، ثم إن كان محمد ﷺ قد تعلم من الحنفاء، أفلم يكونوا هم أولى بادعاء النبوة ما داموا هم الأساتذة، وهو التلميذ؟ ثم تعالوا لنرى ما حدث بعد أن أعلن محمد ﷺ أنه نبي مرسل من ربه؛ فلقد صدَّق ورقة بن نوفل بدعوته ﷺ ـ كما هو معروف ـ وأعلن أنه لو امتد به العمر، فسوف يقف معه ضد قومه، عندما أخبره أنهم سيعادونه ويخرجونه من بلده، كما أسلم عبيد الله بن جحش بعد الالتباس الذي كان فيه، ثم ظل مسلمًا إلى أن هاجر إلى الحبشة، حيث تنصَّر هناك، ومات قبل أن يعود المهاجرون إلى بلاد العرب، وكان حديد اللسان على سائر المهاجرين بعد تَنَصُّره، يَسلُقهم[2] بتهكُّمه[3] القارص محتميًا بأهل البلاد النصارى.

فلو كان يعرف عن محمد ﷺ شيئًا من هذا الذي يتهمه به المستشرقون، والمبشرون وغيرهم لفضحه وفضح زملاءه المهاجرين في بلاد النجاشي، بل لما آمن به منذ البداية، ومما له مغزاه أن زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت معه في بلاد الحبشة، لم ترتد مثله بل ظلت مستمسكة بدينها، وقد تزوجها النبي ﷺ بعد موت زوجها، ومما له مغزاه أيضًا أن كل إخوة هذا الرجل وأخواته، كانوا من المسلمين الصادقين الأبرار، ومنهم أم المؤمنين زينت بنت جحش، ومن الحنفاء أيضًا عثمان بن الحويرث، وكان قد قدم على قيصر فتنصَّر وحسنت منزلته لديه[4].

وبهذا يتبين قلة الحنفاء، فلم يكونوا كلهم على الجادة، ولكن منهم من تنكَّبوا[5] الطريق، وعرفوا الحق وحادوا عنه، ومن هؤلاء: أمية بن أبي الصلت، الذي كان شاعرًا يعبر عن عقيدته الدينية بشعره، وهو الذي قال:

كلُّ دينٍ يومَ القيامةِ عِندَ
الله إلّا دين الحنيفةِ زُورُ[6]

وكان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المُسُوح[7] متعبدًا، وكان ممن ذكر إبراهيم، وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ والحنيفية، وحرَّم الخمر، وشك في الأوثان، وكان محققًا، والتمس الدين وطمع في النبوة؛ لأنه قرأ في الكتب أن نبيًّا يُبعث من العرب، فكان يرجو أن يكون هو، فلما بُعث النبي ﷺ قيل له: هذا الذي كنت تَسْتَرِيث[8]، وتقول فيه، فحسده عدو الله وقال: "إنما كنت أرجو أن أكونه".

وجاء في السيرة النبوية لابن كثير: عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال في قول الله ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ

١. مصدر القرآن: دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص١٢٩، ١٣٠.
٢. يَسلُق: يؤذي.
٣. التَّهكُّم: الاستهزاء.
٤. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٢٣٠، ٢٣١.
٥. تنكَّب الطريق: مال عنه وضلَّ.
٦. الزُّور: الباطل.
٧. المُسُوح: جمع مِسْح، وهو ثوب الراهب.
٨. تَسْتَرِيث: تستبطئ.

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (الأعراف): هو أمية بن أبي الصلت.

وأخبر أمية عن صفات النبي الذي سيُبعث من العرب، وهي أوصاف انطبقت على النبي ﷺ، وأخبر بهذه الأوصاف أبا سفيان، وعلى الرغم من ذلك أَبَى أُميَّة أن يؤمن بالنبي ﷺ حسدًا واستكبارًا، وسأله أبو سفيان عن سبب ذلك، فقال: ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدًا.

ولم يقف عند حدِّ عدم إيمانه، بل انضم إلى قافلة الكفار في تأييد الباطل، فقد حزن على قَتلَى بدر من المشركين ورثاهم في قصيدة شعرية، فهذا الرجل قد عرف الحق وحاد عنه، وعرف أن الله أرسل رسوله بالهدَى ودين الحق، لكنه عزَّ عليه أن يكون هذا الرسول غيره فكفر ولم يفطن لما كان يجب أن يفطن إليه بأن الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

كل هذا يبين أنه صدَّق ما جاء به النبي ﷺ، فلو تعلم النبي ﷺ من أمية بن أبي الصلت، لذكر هذا الطامح الطامع في النبوة ذلك أو ذكر غيره من الحنفاء ذلك.

وزاد د. إبراهيم عوض على ذلك قائلًا: "ومما يذكر في الحنفاء أيضًا أمية بن أبي الصلت، الذي قدم إلى مكة واستمع من النبي ﷺ إلى آيات من القرآن قائلًا لقريش حين سألوه عن رأيه: "إنه على حق"، ولكنه أجّل الدخول في الإسلام بحجة أنه يريد النظر في الأمر، إلى أن وقعت غزوة بدر وقتل بعض أقاربه من المشركين فيها؛ فاستشاط غيظًا وانقلب يهجو الإسلام، ويبكي قتلى المشركين بعد أن كان قد نوى إعلان إسلامه، فهل هذا موقف يبعث على الثقة بصاحبه؟ أليس يكفي رثاؤه للوثنيين، ومعاداته لدين التوحيد حتى نلقي بكل ما يقال عن تعلم محمد ﷺ من مثله تحت أحذيتنا؟ إنه هو نفسه وقد كان شاعرًا وخطيبًا، وواعظًا مشهورًا، لم يقل قط: إن محمدًا قد تعلَّم منه شيئًا، فكيف يجرؤ على قوله أحلاس آخر الزمان"[2].

ومما يؤكد حقد أمية بن أبي الصلت للنبي ﷺ ما جاء في "السيرة النبوية" للدكتور محمد محمد أبو شهبة قائلًا في ذلك: ولما بُعث النبي ﷺ حسده - أي: أمية - وقال: إن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد. ولما قيل له أفلا تتبعه؟ قال: أستحيي من نساء ثقيف، إني كنت أقول لهن: إني أنا هو، ثم أصير تابعًا لغلام من بني عبد مناف!!

ولما أنشدت أخته النبي ﷺ شيئًا من شعره، قال: "آمن شعره، وكفر قلبه"[3].

ولو كان النبي ﷺ أخذ من شعر أمية - كما يدعي هؤلاء الزاعمون الطاعنون ونسجه أو شكّله قرآنًا أو حديثًا فعلًا - لسارع مشركو مكة للوقوف في وجهه ﷺ، وقالوا له: إنك سطوت على شعر شاعرنا، وزعمت أنك رسول يوحَى إليك، وهذا لم يثبت قط، فهو دليل على أنه كلام مكذوب وضعه واضع خبيث بعد عصر الرسالة، وعصر الخلفاء، والموازنة الحقَّة تثبت - من

---

١. محمد رسول الله ﷺ أعظم البشر، حمزة النشرتي، عبد الحفيظ فرغلي، دار النشرتي، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤٨: ٥٢ بتصرف.

٢. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٢٣١، ٢٣٢.

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٨٠.

أقصر طريق - سمو النَّظم القرآني، وجلال الوحي المنزَّل على ذلك الكلام المتكلَّف الرَّكيك[1].

يقول الدكتور محمد الدسوقي في كتابه "الفكر الاستشراقي": "ويؤكد بطلان ذلك الرأي، وأنه لا وزن له علميًّا، ما ذهب إليه د. طه حسين في معرض رده على تلك الشبهة، أي شبهة تأثير شعر أمية في كتاب الله، فقد قال: إن هذا المستشرق - الذي أثار الشبهة - وأمثاله يشكون في صحة السيرة نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرون في السيرة مصدرًا تاريخيًّا صحيحًا، وإنما حسب قولهم - طائفة من الأخبار، والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق، وهم يقفون هذا الموقف من السيرة النبوية، ويغلون فيه، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المطمئن المتيقن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق، ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة، فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون آخر؟! وبهذا يكون المستشرقون أنفسهم لم يبرءوا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات.

إن التشكيك في أخبار السيرة النبوية أو إنكارها، وعدم الشك في شعر أمية يتلاءم مع منهج الاستشراق في الطعن في نبوة محمد ﷺ، ونفي أن يكون القرآن نزل به الروح الأمين على قلب هذا النبي الأمي"[2].

ثانيًا. إن القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، يختلفان عن الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) الذي تأثر الحنفاء كما يزعمون به:

إن المتأمل في كتاب الله يجد البون الشاسع، والاختلاف الكبير بينه وبين الإنجيل والتوراة، سواءٌ من حيث الأسلوب والنظم، أو من حيث ما تضمن من معانٍ رفيعة في العقيدة والأخلاق والتشريع.

يقول د. عبد الكريم الخطيب مبينًا الاختلاف الكبير بين القرآن والتوراة من جهة الأسلوب: "اقرأ فصلًا أو فصولًا من التوراة، ثم اقرأ سورة أو سورًا من القرآن، فإنك تجد طعمًا غير الطعم ومذاقًا غير المذاق، فإذا حاولت أن تجمع هذا بذاك أو ذاك بهذا، وأن تزاوج بينهما وجدت أمرًا غير مستقيم لك، ولا مطاوع لصنيعك، كمن يؤلف بين أنغام تخرج على غير اتفاق أو ترتيب. على فرض صحة التوراة وأنها والقرآن يخرجان من مشكاة واحدة، فإن أسلوب الأداء مختلف أشد الاختلاف كاختلاف اللغة العامة الدارجة ولغة الشعراء في أعلى طبقاته أو هو أشد".

وهذا الأسلوب الفريد المتميز من أوضح الدلائل على أن القرآن الكريم كتاب الله العظيم، أُنزل على المصطفى ﷺ، عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، ثم إن القرآن الكريم بما تضمنه من عقيدة واضحة صافية قوامها التوحيد المطلق، والكمال المطلق، مغايرة لعقيدة التوراة والإنجيل - لا يمكن أن يكون نسخة عنهما، فالتوراة تصف الله عز وجل بصفات تنافي كماله وجلاله، كالعنته والبخل، وعدم العلم والفقر، وغير ذلك.

وكذلك الإنجيل يتضمن عقيدة التثليث: الأب، والابن، والروح القدس، ثلاثة آلهة.

---

1. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٣٧.
2. الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٨٩ وما بعدها.

فأين هذا من عقيدة التوحيد الخالص؟! ويخالف القرآن الإنجيل أيضًا في قضية صلب المسيح، وعقيدة الفداء، فكيف يكون مُستَقًى منه أو من التوراة[1]؟!

وعدم وجود هذه العيوب التوراتية والإنجيلية في القرآن يدل على استقلاله وعدم تأثره بها كما يدل على أنه ذو مصدرٍ إلهيٍّ.

ومن أقوى ما يدل على أن الرسول ﷺ لم يكن متأثرًا بالحنيفية المأخوذة من اليهودية، أو النصرانية، وجود الخلاف في كثير من العقائد والأحكام، بل لقد جعل الشارع الحكيم جنس مخالفتهم أمرًا مقصودًا له، ومن متطلبات الشرع، وهناك كثير من الأحكام جُعلت العلة فيها هي مخالفة اليهود أو النصارى، من ذلك[2]:

١. قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم"[3].

٢. قوله ﷺ: "خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خِفَافهم"[4][5].

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٤٧٩، ٤٨٠ بتصرف يسير.

٢. للمزيد انظر: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٢٤، ٣٢٥.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب في مخالفة اليهود في الصبغ (٥٦٣٢).

٤. الخِفاف: جمع خُف، وهو ما يُلبس في الرِّجل من جلد رقيق.

٥. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل (٦٥٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فرض متابعة الإمام (٢١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢١٠).

بل إن بعض شعائر الإسلام التي وافقت اليهودية أو النصرانية في جانب منها، والتي زعم بعضهم تأثر الرسول فيها بهاتين الديانتين - أوضح النبي ﷺ العلة فيها وأقرَّ بمخالفتهم أيضًا فيها وذلك مثل:

١. صوم يوم عاشوراء بناء على ما رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: "ما هذا"؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجَّى الله بني إسرائيل من عدوِّهم، فصامه موسى، قال ﷺ: "فأنا أحق بموسى منكم"، فصامه وأمر بصيامه[6]. فعلته الفرح بنجاة موسى عليه السلام والصيام شكرًا على هذه النعمة، وليس لأجل أن يوافقهم في تعظيم هذا اليوم، لذلك فإن النبي ﷺ بيَّن نوع مخالفة اليهود في صيام عاشوراء، عندما شرع صيام يوم قبله، أو يوم بعده، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تُعظِّمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: "فإذا كان العام المقبِل - إن شاء الله - صمنا اليوم التاسع"، قال: فلم يأت العام المقبل، حتى تُوفِّي رسول الله ﷺ[7].

٢. زعمهم أن المؤمنين كانوا لا يصلون في مكة إلا مرتين في اليوم، ثم أدخلت صلاة ثالثة عندما ذهبوا إلى المدينة على غرار اليهودية، فهذا زعم في وهن خيط

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (١٩٠٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (٢٧١٢).

٧. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (٢٧٢٢).

العنكبوت؛ إذ الصلوات الخمس فرضت بمكة ليلة الإسراء، حين عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء، ولا خلاف بين أهل العلم وأهل السير في ذلك.

وهذا الذي دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة التي وردت في صفة الإسراء والمعراج من أحاديث جماعة من الصحابة ﷺ، وفي أحدها قوله ﷺ: "فلم أزل أرجع بين ربي ﷻ وبين موسى ﷺ حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة"[1].

٣. زعمهم أنه جعل الجمعة يوم صلاة عامة، على غرار السبت عند اليهود، فهو أيضًا قول مخالف للصواب؛ لأن الله تبارك وتعالى شرع لعباده المؤمنين الاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾ (الجمعة).

وقد ثبت أن الله أمر الأمم السابقة بتعظيمه، فضلُّوا عنه، واختار اليهود السبت، والنصارى الأحد، وفضل الله هذه الأمة بيوم الجمعة لفضيلته، فعن أبي هريرة وحذيفة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: "أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة، والسبت، والأحد، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق"[2]. ففي الحديث ذم لأهل الكتاب، على تفريطهم في يوم الجمعة، ثم شرع ﷺ صيام يوم السبت، ويوم الأحد مخالفة لهما، كما جاء في حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "كان رسول الله ﷺ يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام، ويقول: إنهما عيدا المشركين، فأنا أحب أن أخالفهم"[3].

قال الحافظ ابن حجر: "يوم السبت عيد عند اليهود، والأحد عيد عند النصارى، وأيام العيد لا تُصام، فخالفهم بصيامهما"[4].

٤. أما كونه ﷺ كان يصلي ويستقبل بيت المقدس، فقد كان يصلي إلى هذه القبلة قبل الهجرة، ولكنه جعل الكعبة بينه وبينها، أي أنه كان يستقبل القبلتين، فلما هاجر إلى المدينة استحال عليه أن يجمع بينهما، فاستقبل بيت المقدس لفترة، ثم نزل الوحي الإلهي بالتحوُّل إلى الكعبة، وقد عرض اليهود عليه أن يعود إلى قبلة بيت المقدس ويتبعوه، وهو ما بيَّن التواءهم وخبثهم، فالصادق في التمسك بدينه لا يعرض مثل هذا العرض، لكنه ﷺ قد رفض ذلك[5].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٨٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٢٩)، واللفظ له.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٩).

٣. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ (٢٦٧٩٣)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب الصيام، صيام يوم الأحد (٢٧٧٦)، والطبراني في المعجم، كتاب ذكر أزواج الرسول ﷺ منهن أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن حذيفة بن المغيرة (٩٦٤)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد (٢٦٧٩٣).

٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٢٦: ٣٢٩.

٥. مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص١٢١.

وبهذا يتبين لنا أن القرآن الكريم والسنة المطهرة جاءا مخالفين لما جاءت به الكتب المقدسة - التوراة والإنجيل - من العادات والمعتقدات اليهودية والنصرانية، وهذا مخالف للأصل فكيف يكون ﷺ آخذًا من الفرع وهم "الحنفاء"؟!

"والفروق بين القرآن وبين والتوراة والإنجيل كثيرة جدًّا، وإن وجود تشابه بينهما في بعض القضايا كقصص الأنبياء، فإنما يدل على وحدة المصدر وأن كلًّا منهما أصله من وحي الله إلى أنبيائه، ولا يفيد أبدًا أن اللاحق منهما قد استمد من السابق"[1].

ويؤكد ذلك ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، وكذلك في التوراة والإنجيل، فقد ذكر فيها اليوم الآخر وصفة الجنة والنار، وظهر ذلك في شعر أمية بن أبي الصلت الذي تأثر بالتوراة والإنجيل، حيث كان متبعًا لملة الخليل إبراهيم عليه السلام.

وفي ذلك يقول د. محمد الدسوقي: "والحقيقة أن اليوم الآخر ليس فكرة يهودية، وليست الصلاة طقوسًا فارسية، وليس تقبيل الحجر الأسود عبادة وثنية، وقانون العقوبات في الإسلام ليس تقدمًا ضئيلًا بالنسبة إلى القوانين الوثنية، فهو مستوى أرفع من القوانين الحديثة التي وضعت في عصر الحضارة والتقدم الفكري"[2] ®.

1. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٤٨٠.
2. الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، مرجع سابق، ص٩٧.

® في "**مخالفة النبي ﷺ اليهود**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

ثالثًا. نَظْم القرآن المعجز وأمية النبي ﷺ ينفيان أن يكون القرآن من تأليفه ﷺ، أو أن يكون له تدخل في صياغته، أو أن يكون مقتبسًا إياه عن غيره:

من الثابت تاريخيًّا أن محمدًا ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، والقرآن كتاب على أعلى مستوى من البيان الأدبي، وهو مختلف تمامًا عما كان يعرفه العرب من شعر ونثر، فالقرآن معجزة لغوية وأدبية جديدة تمامًا، وليس لها سوابق مشابهة، وكونه يأتي على يد إنسان أُميٍّ دليل على أنه ليس من عمله، وإنما هو وحي منزَّل.

"وكل كتب السيرة تحكي قصة الرسول محمد ﷺ، والكل يعلم أن وظيفته قبل البعثة كانت رعي الغنم والتجارة، وأنه لم يتلق أي قسط من التعليم في أية مرحلة من حياته، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة، ثم بدأ نزول الوحي عليه وهو في سن الأربعين، وطوال هذه الفترة لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وطوال وجوده في مكة أمام أهالي مكة حتى بلغ سن الثالثة والخمسين لم يتعلم القراءة والكتابة، والقرآن الكريم يؤكد ذلك، وفي مكة نزل عليه من الوحي ٨٦ سورة، ثم هاجر للمدينة، وفي المدينة نزل عليه من الوحي ٢٨ سورة، وبذلك أصبح مجمل القرآن ١١٤ سورة، وهو لا يعرف القراءة والكتابة، فكيف لإنسان يجهل القراءة والكتابة، أن يقوم بتأليف ١١٤ سورة تشكل ٦٢٣٦ آية بها إعجاز بلاغي وأدبي وبها فصاحة وبيان حكيم. هل يستطيع إنسان لا يعرف القراءة والكتابة تأليف مثل هذا القرآن وسبكه كما يزعم هؤلاء"؟![3] وقد

3. محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص١٢٤.

عجز عن الإتيان بأقصر سورة منه الفصحاء والبلغاء من الناس؟!

إن القرآن الكريم نفسه ينفي أن يكون من صنع البشر وتأليفهم، ويؤكِّد أنه كلام الله المنزل على رسوله ﷺ لهداية الناس وإصلاح حالهم، وذلك من عدة نواحٍ:

١. من ناحية أسلوبه البليغ المعجز المغاير لأسلوب النبي ﷺ، فيما صدر عنه من الأقوال غير القرآن، فالحديث النبوي يختلف اختلافًا كبيرًا عن القرآن الكريم من جهة الأسلوب، وكل قارئ يفهم العربية يدرك ما بين الأسلوبين من فرق كبير، فلو كان القرآن صادرًا من محمد نتيجة تأثره بالحنفاء المتأثرين باليهود والنصارى لكان كلامهما ـ القرآن والسنة ـ وسبكهما واحدًا، وكان أسلوب القرآن هو أسلوب الأحاديث نفسه؛ لأنه لا يمكن أن يكون لكاتب واحد مهما بلغ من الذكاء والعبقرية أسلوبان يختلفان هذا الاختلاف الكبير، ولظهر هنا التأثر في كليهما.

٢. من ناحية ما تضمنه من إشارات علمية دقيقة ونبوءات غيبية، وأخبار القرون الماضية، والتشريع العظيم، وغير ذلك من العلوم والمعارف التي يزخر بها هذا السفر العظيم، كل ذلك ينفي أن يكون القرآن بشريًّا، وإلا فمن أين لمحمد الرجل الأمي هذه الحقائق العلمية، التي لم يُتَوصل إلى معرفتها إلا في العصر الحديث؟!!

٣. من ناحية أن القرآن لا يعكس شخصية محمد ﷺ في أفراحه، وأحزانه، فلقد توفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة في عام واحد، وحزن عليهما حزنًا شديدًا حتى سُمِّي هذا العام بـ "عام الحزن"، فهل يوجد في القرآن أية إشارة لكل هذا؟!

٤. من ناحية أن القرآن الكريم في بعض المواقف كان يخالف رأي الرسول ﷺ؛ بل كان يعاتبه ويلومه على أفعاله، كعتابه في موقفه من الرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، حيث قال ﷻ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (عبس)، وكعتابه له ﷺ في مسألة أسرى غزوة بدر حيث قال تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال).

وكذا عتاب الله ﷻ للنبي ﷺ في مسألة الإذن للمنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، حيث قال: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (التوبة)، فلو كان القرآن الكريم نابعًا من ذاته لما ظهر فيه مثل ذلك العتاب على تلك التصرفات؛ لأن طبع البشر أن يخفوا أخطاءهم وتقصيرهم ولا يذكروها في مؤلفاتهم، وبهذا يظهر أن القرآن الكريم ليس من صنعه وإنما هو خارج عن ذاته ﷺ[1].

٥. ثم لو كان القرآن من عند النبي محمد ﷺ لما انتظر الوحي عند تعرضه إلى مشكلة تشريعية، فتبقَى القضية معلَّقة حتى يأتي الوحي ليفصل في تلك القضية، ومن الأمثلة على ذلك، حادثة الإفك، وقضية المتخلفين عن الجهاد، والمجادلة خولة الخزرجية، فلقد

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٤٩٥: ٤٩٧ بتصرف يسير.

انتظر الرسول ﷺ الوحي في تلك القضايا الثلاث حتى نزّل الله ﷻ وَحيَه، فقَضَى رسول الله ﷺ في القضايا.

وبهذا يتضح أنه لم يكن للنبي ﷺ دخل في القرآن وفي صوغه وسبكه بهذا الأسلوب، وإلا لقضى في تلك القضايا، وغيرها من التي انتظر فيها الوحي حتى قضى بما أنزل الله عليه[1].

٦. من ناحية أن محمدًا ﷺ بشرٌ لا يستطيع أن يتحدث عن الربوبية بجلالها، وتوضيحًا لهذا المعنى يقول د. محمد سعيد رمضان البوطي: إن من آيات القرآن، آيات ذاتية، أي يتكلم الله ﷻ فيها عن ذاته آمرًا، أو ناهيًا، أو مخبرًا، فإذا تأملت هذه الآيات، رأيتها تتسم بجلال الربوبية، وصفات الألوهية، ولم تجد فيها أي معنى من المعاني البشرية، والصفات الإنسانية.

فاقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (يس)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ (طه).

إن آيات مثل تلك الآيات التي ترد في القرآن الكريم لا يمكن أن يكون قائلها من البشر؛ لأنه مهما تبجّح أو ترقّى هذا البشري، فإنه لا يستطيع أن يقول ما يقول الله ﷻ عن ذاته؛ لأنها معلومات تفوق قدرة البشر على المعرفة، ولا يمكن أن يعلمها إلا الله، ولا يقولها إلا هو ﷻ.

وبهذا يتبين أن القرآن منزَّل من عند الله ﷻ وليس من كلام البشر، ولا نتيجة تأثر النبي ﷺ بالحنفاء®.

الخلاصة:

- لم يتأثر النبي ﷺ بالحنفاء، ولا غيرهم - كما يزعم الزاعمون - ولو تأثر بهم لذكر ذلك المشركون عندما اعترضوا على نبوة النبي ﷺ وكذَّبوا ما جاء به، ولكن هذا لم يحدث، وهذا دليل نفي تأثره بتعاليم هؤلاء الحنفاء.
- لقد كان أمية بن أبي الصلت يحقد على النبي ﷺ أن اصطفاه الله للرسالة، إذ كان يطمع فيها وينتظرها، وقد رفض الدخول في الإسلام وهو يعلم حقيقة هذا الأمر، حسدًا وبغضًا منه للنبي ﷺ، فكيف يقتبس النبي ﷺ دينه من حاقد عليه؟!!
- لقد أنزل الله ﷻ القرآن على النبي ﷺ وحيًا باللفظ والمعنى، وأما السنة فكانت وحيًا بالمعنى دون اللفظ، نقلًا بالمشاهدة من أفعال النبي ﷺ وأقواله وتقريراته التي رآها أصحابه الكرام ﷺ ونقلوها إلينا نقلًا صحيحًا دون تغيير أو تحريف.
- إن الاختلاف البين والواضح بين القرآن الكريم والسنة النبوية من جهة وبين التوراة والإنجيل من جهة أخرى: شكلًا وموضوعًا ونظمًا وحكمًا - ليثبت عدم تأثر النبي ﷺ بهذه الكتب، والفَرْق بينهما واضح جليٌّ إذا تصفحنا هذه الكتب وقارنا بينها مقارنة منصفة.
- لقد أجمعت المصادر التاريخية على ثبوت أُميَّة النبي ﷺ، هذا بالإضافة إلى إعجاز القرآن الكريم في كافة الوجوه، كل ذلك ينفي بشرية القرآن الكريم،

---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٥٧٦ بتصرف.

® في "أمية النبي ﷺ تنفي اقتباس الفاتحة من الإنجيل" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

ويثبت كونه إلهيَّ المصدر، وذلك مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء: ١٠٥)، لا بما رأيت؛ فكيف لهذا الأمي أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز، وقد عجز عنه أرباب البلاغة والفصاحة؟!

الشبهة الثالثة

الزعم أن النبي ﷺ اقتبس بعض ألفاظ القرآن من العبرية والسريانية (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن النبي ﷺ اقتبس بعض ألفاظ القرآن الكريم من العبرية والسريانية، ويستدلون على ذلك بما يزعمونه من أن النبي ﷺ كان على علم بالعبرية والسريانية، ويمثِّلون لذلك بما يتوهَّمونه من أن كلمة "فرقان" العربية الواردة في القرآن هي نفسها كلمة "فرقان" السريانية زاعمين أنه ﷺ استخدمها في القرآن بنفس المعنى الذي استُخدمت به الكلمة المقابلة في السريانية. هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في خلوص ألفاظ القرآن من العُجْمة، وعصمتها من تحريف الأيدي والألسنة، انتهاء إلى القول ببشريته أو القول بانتحاله.

وجوه إبطال الشبهة:

١) ليس من المعقول أن يخالف النبي ﷺ اليهود والنصارى في أساس دينهم، ثم يقتبس منهم بعض الألفاظ، ولو ثبت أن فَعَل النبي ﷺ ذلك لعلمه اليهود والنصارى أنفسهم، ولما سكتوا عنه، بل شهَّروا به من باب أَولَى وأحرَى.

٢) من المعلوم أن النبي ﷺ كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية فضلًا عن غيرها، فكيف لرجل هذا شأنه أن يكون ضليعًا في العبرية والسريانية كما يزعمون؟!

٣) بالرجوع إلى المعاني المختلفة لكلمة "فرقان" وأصولها في اللغة العربية نجد أنها ليست مقتبسة بمعانيها من السريانية، أو العبرية، بل هي كلمة عربية في الأصل، وفي الاستعمال، فهي مأخوذة من "فرَّق" أي ميز وفصل بين شيئين.

التفصيل:

أولا. إن ما جاء به النبي ﷺ يخالف عقائد اليهود والنصارى وكتبهم، فكيف يخالفهم، ثم يقتبس منهم ألفاظ القرآن الكريم؟!

من الحقائق الثابتة المعلومة أن القرآن قد ردَّ تحريفات أهل الكتاب وبيَّن خطأها، ومن أمثلة ذلك:

- أن اليهود المقيمين منهم بيثرب كانوا يزعمون أن عزيرًا ابن الله، مثلما يقول النصارى: إن المسيح هو ابن الله.

وقد ردَّ القرآن عليهم، وبيَّن أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شركي قديم، قال عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ (التوبة).

(*) موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، مصر، ط١، ٢٠٠٤م.

• مثال آخر ما جاء في التوراة: "فأُكملت السماوات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا". (التكوين ٢: ١ ـ ٣).

وقد رد القرآن الكريم على هذا التحريف قائلًا: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (ق).

• ومثال آخر على سفاهة اليهود قولهم زورًا عن رب العزة صاحب الكرم والجود إن يده مغلولة: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (المائدة: ٦٤)، وقولهم عليه تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ (آل عمران: ١٨١).

فهل قائلو مثل هذا الكفر والتخريف هم أصحاب ألفاظ القرآن، والنبي ﷺ سرقها منهم[1]؟!

فإذا انتقلنا إلى النصرانية، نجد أن العقيدة الإسلامية تخالف عقيدة النصارى من أساسها، فبينما يقول النصارى: إن الله ثالث ثلاثة، وإن عيسى هو ابن الله، وإن عيسى عليه السلام قد صلبه اليهود، وإن صلبه كان كفارة للخطيئة الأصلية، خطيئة آدم التي أُخرج بسببها من الجنة ـ نرى القرآن ينفي هذا كله ولا يعترف به.

فالله في الإسلام هو واحد أحد، ويستحيل بمقتضى كونه إلهًا أن يكون اثنين، أو ثلاثة، أو أكثر، وكل من في السماوات والأرض إنما هو عبد الله مخلوق بأمره، سواء في ذلك المسيح عيسى عليه السلام أو غيره: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص)، ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ (النحل).

ومن هنا يُكفِّر القرآن من يقول إن الله ثالث ثلاثة، وهو يرتكز في نفي هذا التثليث، كما ارتكز في نفي التثنية على بدهية عقلية هي أن الله يستحيل أن يكون إلا واحدًا: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (المائدة: ٧٣).

وقد أثبت القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام رسول الله وأمه صديقة، قال تعالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (المائدة)[2].

وكما نفى القرآن أن يكون عيسى إلهًا أو ابنًا للإله، نفى أيضًا أن يكون عليه السلام قد صُلِب، أو قُتل بأية طريقة أخرى، وأكد أنه شُبِّه لهم: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء).

هذا وغيره كثير يدل على أن القرآن الكريم يخالف عقيدة اليهود والنصارى، ولا يتفق معهم، فكيف يأخذ

---

١. مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٢٢٥: ٢٢٨ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٢٢٩: ٢٣٢ بتصرف.

عنهم بعض الألفاظ®.

ثانيًا. أمية النبي ﷺ دليل على كذبهم، حيث كان النبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب بالعربية، ولا يعرف من العبرية أو السريانية شيئًا:

من المعروف أن النبي ﷺ كان أميًّا، قال الله ﷻ: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقال الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ (الأعراف).

وقد ورد في بعض الأحاديث ما يؤكد أن النبي ﷺ كان أميًّا، ففي صلح الحديبية من حديث البراء ﷺ: فأخذ يكتب الشرط بينهم علي بن أبي طالب، فكتب: "هذا ما قاضى عليه رسول الله ﷺ"، فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولاتبعناك، ولكن اكتب: "هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله".

فقال: "أنا محمد بن عبد الله، وأنا والله رسول الله"، قال: وكان لا يكتب، قال: فقال لعلي: "امحُ رسول الله".

فقال علي: والله، لا أمحوه أبدًا، قال: "أَرِنيه"، قال: فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ[1].

ففي طلب النبي لعلي بأن يريه الكلمة "رسول الله" دليل على أميته ﷺ وعدم معرفته القراءة والكتابة[2].

على أن هناك حكمة عظيمة من أُميَّة النبي ﷺ تتجلَّى في اعتبارين هما:

١. قطع أسباب الريب عن قصار النظر من ضعاف الإدراك، ومن هواة الباطل؛ إذ لو كان النبي يقرأ ويكتب لوجد الشيطان مدخلًا إلى عقول بعض الناس بأن القرآن صنعة محمد ﷺ ومن تأليفه، ولوجد خصوم الدعوة سلاحًا شديد التأثير على ضعاف البصيرة، وسدًّا لهذه الذرائع وحسمًا لوساوس شياطين الجن والإنس، أرادت حكمة الله أن يكون صاحب الدعوة أميًّا.

٢. أن الله ﷻ لم يرضَ أن يكون من البشر مُعلِّمًا أو أستاذًا لصاحب الدعوة ﷺ، ولذلك لم يجلس محمد ﷺ من أحد مجلس التلميذ من الأستاذ أو المتعلِّم من المعلِّم، بل كان معلمه واحدًا هو الله ﷻ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الفضل في قول الله ﷻ: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ (النساء).

وهذا الخطاب السامي الجليل لم يخاطب الله به أحدًا من عباده سُوى خاتم الرسل ﷺ[3].

® في "**مخالفة الإسلام لليهودية والنصرانية في كثير من العقائد والأحكام المحرفة**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان بن فلان وإن لم ينسبه (٢٥٥٢).

٢. أمية محمد ﷺ، خالد محمد عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٣ بتصرف.

٣. افتراءات المستشرقين على الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص١٩٣.

وهكذا كانت أمية النبي ﷺ دليلًا قاطعًا على عدم تعلمه من أحد من الناس، وعلى صدقه فيما بلَّغ عن ربه تعالى، ومن ثم فلم يكن النبي ﷺ مطلعًا على العبرية والسريانية كما يزعمون، ناهيك عن قولهم: إنه كان ضليعًا فيهما®.

ثالثًا. بالرجوع إلى المعاني المختلفة لكلمة "فرقان" وأصولها في اللغة، نجد أنها ليست مقتبسة بمعانيها من السريانية أو العبرية:

إننا إذا رجعنا إلى كلمة "فرقان" فسنجد لها أصولًا في اللغة العربية، وهي من "فَرَقَ" والمصدر "فُرقان"، ومعناها: فصل وميَّز الشيء عن الآخر، نقول: فَرَقَ بين الخصوم، أي: حكم بينهم وفصل، وقد ورد منها في القرآن ستة عشر اشتقاقًا، كقوله ﷻ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران)، وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ (الفرقان)، فسمَّى الله القرآن فرقانًا، بما يحوي من حجج وبينات، ودلائل واضحات، وبراهين قاطعات، ومرة تأتي كلمة "فرقان" بالإضافة، كقوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال: ٤١)، ويوم الفرقان: هو يوم بدر، فرق الله ﷻ فيه بين الحق والباطل، وبين الهُدَى والضلال، وهو أول مشهد شهده الرسول ﷺ وكان ذلك ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان. ومرة تأتي فرقان وعدًا للمؤمنين، كقوله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال: ٢٩)؛ أي: عرفانًا، تفرقون به بين الحق والباطل، ومرة تأتي بوصفها دعاءً، كقوله ﷻ: ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) ﴾ (المائدة)، يعني: اقضِ وافتح بيننا وبينهم، ومرة تأتي كوصف للحال، كقوله: ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ (طه: ٩٤)، أي: أشعت الفرقة فيهم، وكقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، بمعنى فارقوه، وصاروا فرقًا كأهل الملل والنحل، والأهواء والضلالات، وقوله ﷻ: ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) ﴾ (المرسلات) تفرِّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وأمثال ذلك تكررت اثنتين وسبعين مرة. وأما كلمة "الفرقان" نفسها فتأتي سبع مرات، مرتين فيما أنزل الله على موسى وهارون، في قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ (الأنبياء)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾ (البقرة)، فالكتاب هو التوراة، والفرقان هو المعرفة بالتمييز، وفي كل هذه الاستخدامات في القرآن يأتي المعنى المشترك فيها جميعًا هو: التفرقة بين الحق والباطل، أما كلمة "فرقان" السريانية بمعنى ***Yesha***، فمعناها الخلاص، وما أبعد المسافة بين المعنى العربي للمصطلح، والمعاني الأجنبية الأخرى[1].

® في "حكمة الله ﷻ في أمية النبي ﷺ" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

١. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص٩١، ٩٢.

الخلاصة:

- إن القرآن جاء مخالفًا لعقائد اليهود والنصارى في أمور كثيرة، ومبينًا أخطاءهم وتحريفاتهم لكتبهم، ولو أن النبي ﷺ أخذ عن العبرية أو السريانية بعض الألفاظ لما سكت عن ذلك اليهود والنصارى حين نزول القرآن.
- إن القرآن أُنزل كما قال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء)، أي بلسان شامل العربية، وكامل الفصاحة، لا لبس فيه ولا عجمة، ليكون بيِّنًا واضحًا ظاهر الوضوح، وقاطعًا للعذر، ومقيمًا للحجة على الكافة.
- النبي ﷺ لم يقتبس لفظ "الفرقان" من السريانية ولا العبرية ـ كما يزعمون ـ وذلك أنه ﷺ لم يجالس أحدًا من أهل الكتاب ولا غيرهم، حتى يأخذ عنهم، كما أنه ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب العربية أو العبرية أو السريانية أو غيرها.
- إن الوقوف على معاني كلمة "الفرقان" في لغة العرب ليؤكد فرْق ما بينها وبين معاني الكلمة التي ذكروها، وادَّعوا أن معناهما واحد.

الشبهة الرابعة

الزعم أن النبي ﷺ أخذ الحروف المقطعة الواردة في فواتح بعض سور القرآن عن اليهود(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقوِّلين أن محمدًا ﷺ أخذ بعض القرآن الكريم من اليهود، ويستدلون على ذلك بأن الحروف المقطعة الواردة في فواتح بعض السور مستوحاة من اليهود، وهي ذات معنى عندهم كانوا يستعملونها به. ويتساءلون: لِمَ استعان النبي ﷺ باليهود في كتابة الوحي؟! هادفين من وراء ذلك إلى إحاطة القرآن الكريم بشيء من تعدد المصادر، فبعضه عن اليهود، وبعضه خيال وهكذا يُحاول هؤلاء النيل من مصدر الوحي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد حرص النبي ﷺ كل الحرص على ألا يَدْخل في القرآن الكريم أي لفظ من غيره؛ فاتخذ كُتَّابًا للوحي من أجلاء الصحابة، ولم يكن فيهم يهودي واحد، وكانوا جميعًا يعرضون عليه ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة.

٢) الحروف المقطعة التي وردت في أوائل السور وحي من الله تعالى، أنزله على نبيه، ولم يكتبها أحد من كتاب الوحي من عند نفسه، ولا أثر لها في كتب اليهود، بل هي دليل صدق النبي ﷺ، ولها معنى لا يعلمه إلا الله ﷻ.

(*) موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق.

٣) لا يمكن بحال من الأحوال اتهام محمد ﷺ بأنه لفَّق القرآن من كُتُب اليهود الدينية؛ لأنه قد جاء مخالفًا للتوراة شكلًا وموضوعًا، وكذلك حرص النبي ﷺ على مخالفة اليهود في كل أمرهم، فكيف يقتبس منهم بعض فواتح السور؟

التفصيل:

أولا. لقد حرص النبي ﷺ كل الحرص على ألا يَدْخل في القرآن أي لفظ من غيره:

من الأمور الثابتة والمؤكدة في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ كان حريصًا على ألا يدخل أي لفظ غريب إلى القرآن الكريم؛ لذلك اتخذ رسول الله ﷺ كتَّابًا للوحي من أجلَّاء الصحابة، كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، فالآية تنزل فيأمرهم بكتابتها، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها، حتى تُظاهر الكتابة في السطور، الجمع في الصدور، كما كان بعض الصحابة الكرام يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم، دون أن يأمرهم النبي ﷺ فيخطونه في العُسُب[١]، واللِّخَاف[٢]، والكَرانيف[٣]، والرِّقاع[٤]، والأَقْتاب[٥]، وقِطَع الأديم، والأكتاف[٦]، فجاء عن زيد بن ثابت أنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرقاع"[٧][٨].

وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة في كتابة القرآن، حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ.

وكان جبريل عليه السلام يعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: "كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرسولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة"[٩].

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله ﷺ ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة كذلك.

ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي ﷺ مجتمعة في مصحف عام، بل عند هذا ما ليس عند ذاك، وقد نقل العلماء أن نفرًا منهم علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود - قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ، وذكر

١. العُسُب: جمع عَسِيب، وهو جريد النخل.
٢. اللِّخَاف: جمع لَخْفَة، وهي الحجارة الرقيقة.
٣. الكَرانيف: جمع كُرْنافة، وهي أصول الجريد الباقية في النخلة.
٤. الرِّقاع: جمع رُقعة، وهي قطعة من جلد أو ورق.
٥. الأقتاب: جمع قِتْب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه.
٦. الأكتاف: جمع كَتِف، وهو العَظْم الذي للبعير أو الشاة، كانوا إذا جف كتبوا عليه.
٧. يؤلفون القرآن من الرِّقاع: يجمعون ما أُنزل من آيات متفرقة في سورة واحدة بإشارته ﷺ.
٨. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الجهاد، باب ما ذكر في فضل الجهاد والحث عليه (١٩٤٤٨)، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث أبي ذر **الغفاري** رضي الله عنه (٢١٦٤٧)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن (٣٩٥٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣٩٥٤).
٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٦١٤٩).

العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخرًا عن الجميع، وهؤلاء الكتبة لم يكونوا من اليهود كما يدعي المفترون.

وقُبِض رسول الله ﷺ والقرآن محفوظ في الصدور، ومكتوب في الصحف على نحو ما سبق، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة، ولم يجمع في مصحف عام، حيث كان الوحي يتنزل تباعًا فيحفظه القراء، ويكتبه الكتبة، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد؛ لأنه ﷺ كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر، وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير ﷺ إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا، ولو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لأدّى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي، قال الزركشي: "وإنما لم يكتب في عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يفضي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ"، وبهذا يفسر ما روي عن زيد بن ثابت، قال: "قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء"[1]، أي لم يكن جمع مرتب الآيات والسور في مصحف واحد، قال الخطابي: "إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضي الله عنهما".

ويُسمَّى هذا الجمع في عهد النبي ﷺ حفظًا وكتابة: "الجمع الأول"[2].

وهكذا يتبين لنا كيف حرص الرسول ﷺ على سلامة القرآن الكريم من الزيادة أو النقصان، بل إن النبي ﷺ من شدة حرصه على ألا يختلط القرآن الكريم بالحديث النبوي، نهى عن كتابة الحديث، فهل يعقل بعد ذلك أن يقال إن النبي ﷺ قد ترك كتبته يضيفون إلى القرآن ما يشاءون®؟!

ثانيًا. الحروف المقطعة التي وردت في أوائل السور وحي من الله ﷻ أنزله على نبيه ولم يكتبها أحد من عند نفسه، ولا أثر لها في كتب اليهود:

من المعلوم أن عدد هذه الحروف ٧٨ حرفًا، يتكرر بعضها في مختلف السور التي أوردتها وهي ٢٩ سورة، وبدون تكرار فهي ١٤ حرفًا.

ومن الملاحظ أن الابتداء بهذه الحروف جاء على نسق الكلم العربي، فقد لا تبدأ السورة إلا بحرف واحد مثل: "ص"، وقد تبدأ بحرفين مثل "حم"، أو بثلاثة أحرف مثل: "الم" وأيضًا بأربعة مثل: "المص"، أو بخمسة مثل: "كهيعص".

ونلاحظ أن طريقة بناء الكلمة في اللغة العربية يسير على نفس المنوال، فهي إمَّا على حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، ولا أكثر من ذلك؛ ولأنها حروف مقطعة فإنها تقرأ كحروف التهجِّي، وليس كأسماء

١. أخرجه الديرعاقولي في فوائده كما في الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٦٠)، برقم (٧٤٥).

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١١٨: ١٢٠.

® في "نفي تزيد عبد الله بن أبي السرح في القرآن" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

متمكنة، ولا أفعال.

وابتداء السور بها حيَّر كثيرين، ويجعل المختصين عاجزين عن مجاراة القرآن ومحاولة معارضته بمثله، وربما معنى هذه الحروف أنها ابتداء الحروف التي منها يبني العرب كلامهم، ومع أنهم يملكون ناصية استخدامها وتأليف المخاطبات بها، إلا أنهم يعجزون عن مضاهاته، وذلك أبلغ في الحجة عليهم؛ لأن القرآن الذي يتألف من هذه الحروف لا يخرج في ألفاظه وعباراته ودلالاته عما اصطلحوا عليه في كلامهم.

ويعلق الشيخ الشعراوي تعليقًا رائعًا عندما تعرَّض لمسألة الحروف المقطعة في بداية السور، وذلك في بداية تفسيره لسورة البقرة؛ إذ يوضح أن هذه الحروف دالة على صدق رسول الله ﷺ في البلاغ عن ربه، وأن هذا القرآن مُوحَى به من الله تعالى إلى رسوله ﷺ، فالحروف لها أسماء ومسميات... والناس حينما يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه ولايمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلَّم ودرس، أما الذي لم يتعلَّم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لا ينطق بأسمائها، ورسول الله ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، لذلك لم يكن يعرف شيئًا عن أسماء الحروف فكيف نطق بها رسول الله ﷺ ؟ لا بد أنه بلغها كما سمعها، ويدل على ذلك أيضًا أننا نجد الحروف نفسها في فواتح سور أخرى وتنطق بمسمياتها لا بأسمائها فمثلًا "الم" في بداية سورة البقرة ينطق كل حرف على حدة باسمه لا مسماه، بينما تنطق بمسمياتها في بداية سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ (الشرح)، وفي سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ (الفيل). فلا بد أن النبي ﷺ نقلها كما سمعها من جبريل عليه السلام في كل موضع حسبما تلقَّاها[1].

أما عن معاني هذه الحروف فيقول الشيخ الشعراوي:

ونحن لا يصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف؛ فحياة البشر تقتضي هنا في بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا وإن كانت تمثل أشياء ضرورية بالنسبة لنا، تمامًا ككلمة السر التي تستخدمها الجيوش... فخذ كلمات الله التي تفهمها بمعانيها وخذ الحروف التي لا تفهمها بمرادات الله تعالى فيها... إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها... والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر، ومع ذلك لم نسمع أحدًا يطعن في الأحرف التي بدأت بها السور.. وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية.. ولو أنهم لم يفهموها لطعنوا فيها[2].

ومن ثم فإن هذه الحروف المقطعة في بدايات بعض سور القرآن الكريم هي كلام الله المنزل على محمد ﷺ ولا دخل للبشر فيها، كما أنها ليست مستمدة من اليهود ـ كما يزعمون ـ لأن المتأمل في كتب اليهود لا يجد مثل هذه الحروف، وها هي أسفار العهد القديم بين أيدينا، فليأتنا من يزعم أن النبي ﷺ قد أخذها عنهم بدليل منها: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ (النمل)، بل إنه ﷺ لو اقتبس منها حرفًا واحدًا لشنَّعوا عليه ووجدوا في ذلك فرصة سانحة للتشكيك في

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص١٠٣ وما بعدها.

٢. المرجع السابق، ص١٠٦ وما بعدها.

القرآن وتكذيبه.

ثالثًا. القرآن الكريم منزل كله من عند الله تعالى كما أنه يختلف عن الكتب السماوية السابقة عقيدة وتشريعًا:

مما لا يختلف عليه أحد أن ثمة قيمًا وفضائل إنسانية ارتضتها البشرية، وتعارفت على احترامها والتزامها، وهي قيم الحق، والعدل، والخير، والفضيلة، وغيرها.

كما أن ثمة أمورًا رفضتها البشرية كذلك، وتعارفت على نبذها ومقاومتها، وهي الباطل، والظلم، والشر، والرذيلة، وكل إفساد في الأرض.

هذا الذي ارتضته أو رفضته البشرية بهدي الفطرة وحصاد التجربة لم تنكره الأديان السماوية ، ولم تناقضه بل أكدته، ووضعت له التشريعات الأخلاقية التي تحدد المثوبة لما هو خير، والعقوبة لما هو شر، مع التفريق الحاسم بين الطيب والخبيث وبين الحلال والحرام[1].

ومن هنا لا يجوز أن يُتهم النبي ﷺ بأنه أخذ القرآن الكريم من اليهود، لمجرد وجود الحروف المقطعة في القرآن الكريم، مع أنها قرآن ووحي نزل به جبريل عليه السلام على قلب النبي ﷺ، أو لمجرد مشاركة بعض اليهود الذين أسلموا في كتابة الوحي، مع أن إسلامهم دليل على أن القرآن الكريم من عند الله، ولو أن الرسول ﷺ اقتبسه من التوراة لما أسلموا، ولاستغنوا بالتوراة عن القرآن.

كما أنه لا يصح بصفة خاصة اتهام القرآن بأنه ملفَّق من الكتب السابقة يهودية كانت أو نصرانية لما يأتي:

١. ما سبق تقريره عن القيم التي أقرتها البشرية، وتعارفت على قبولها إن كانت خيرًا أو رفضها إن كانت شرًّا، مما جاءت الرسالات السماوية لتؤكده.

٢. من الثابت أن الرسالات السماوية كانت تعبر كل منها عن مرحلة من مراحل التطور الإنساني وما يقابله من تطور الرسالات، وكما يقول الإمام محمد عبده: كانت الأديان السماوية الأولى ـ وعلى رأسها اليهودية ـ قد ناسبت طفولة البشرية، فخاطبت الحس حيث لا يعرف الإنسان إلا ما يقع تحت حسه، فلما نما وجدان البشرية جاءها دين النصرانية يتحدث عن الزهادة والصفاء، وملكوت الله في مواجهة حرص اليهود على متاع الدنيا وإن أُهْدِرت في سبيله القيم.

فلما بلغت البشرية حالة اكتمال تطورها جاءها دين الإسلام ينظم الشئون كلها ويرعَى الحس والعاطفة ويُعنَى بالقلب والعقل، وينظم للناس شئون دنياهم وأخراهم.

٣. لهذا كان دور القرآن بوصفه الرسالة الخاتمة دور المهيمن على كل ما سبقه من رسالات، فيؤكد ما هو صحيح فيها ويصحح ما هو خطأ، وهو إن اتفق مع الكتب السابقة، أو اختلف معها ليس ملفقًا منها ولا مأخوذًا عنها. لكنه التعبير الدقيق عن تكامل الرسالات السماوية، واكتمالها كما تحدث القرآن نفسه عن ذلك، وهذا قبل تحريف الكتب السابقة، أما بعد تحريفها فليس هناك تكامل بل اختلاف وتضاد، عقيدة وتشريعًا.

٤. الدراسات المقارنة للكتب الثلاثة الأخيرة ـ التوراة والإنجيل والقرآن ـ تؤكد وبوضوح ـ كما يعترف بعض الغربيين ـ: أن الحق دائمًا هو ما يقرره

---

١. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢١.

القرآن سواء في قضية "الألوهية" أو قضية "المسئولية الفردية" أو "الدستور الأخلاقي" أو "الواقعية" في التعامل مع "الإنسان" بشقيه: الروح والجسد.

ثم إنه - ودون تعصب منا - ليس في الرسالتين السابقتين ما كان محمد ﷺ بحاجة لأخذه منهما في شئون الدنيا أو الآخرة [١].

٥. ومن أقوى ما يدل على أن الإسلام لم يكن مقتبسًا من اليهودية أو النصرانية، وجود الخلاف في كثير من العقائد والأحكام؛ بل لقد جعل الشارع الحكيم جنس مخالفتهم أمرًا مقصودًا إليه، ومن متطلبات الشرع، وهناك كثير من الأحكام جعلت العلة فيها مخالفة اليهود أو النصارى، من ذلك [٢]:

- قوله ﷺ: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم" [٣].
- وقوله ﷺ: "خالفوا اليهود فإنهم لا يصلُّون في نعالهم ولا خفافهم" [٤].
- عن أنس بن مالك ﷺ: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل الصحابة النبي ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ (البقرة). فقال رسول الله ﷺ: "اصنعوا كل شيء إلا النكاح". فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه [٥]. قال الإمام ابن تيمية: "فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم، حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه".

فهذا إقرار من اليهود أنفسهم، بمخالفة النبي ﷺ لما كانوا عليه حتى اشتهر ذلك بينهم، وفي هذا برهان ساطع على بطلان زعم المشككين الذين يدعون اقتباس النبي ﷺ الأحرف المقطعة في فواتح السور من اليهود.

ومع هذا كان من عظمة القرآن أنه عَدَّ إيمان المسلم غير صحيح ما لم يؤمن بكل ما سبق القرآن من كتب.

٦. يبقى بعد هذا كله حاجز حصين يحول بين محمد ﷺ وبين أية فرصة للاطلاع على هذه الكتب للآتي:

- أنه كان أميًّا لا يعرف القراءة والكتابة.
- أننا لو سلمنا جدلًا بالزعم أنه قرأ أو كان يقرأ فإن هذه الكتب: التوراة والإنجيل، كانت مكتوبة بلغة غير عربية وهي العبرية.

فمن أين يأتي التلفيق؟!

وكيف يتاح له ﷺ أن يتعرف عليها حين يأخذ منها

---

١. المرجع السابق، ص٢٢، ٢٣.

٢. راجع: رد شبهات حول عصمة النبي في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٢٥.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب مخالفة اليهود في الصبغ (٥٦٣٢).

٤. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل (٦٥٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فرض متابعة الإمام (٢١٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢١٠).

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها (٧٢٠).

ويلفق منها كتابه كما زعموا[1]؟!

وهكذا يتبين لنا تهافت زعم هؤلاء - على اختلاف طوائفهم - أن فواتح بعض سور القرآن قد أخذها النبي ﷺ من اليهود أو من غيرهم ®.

الخلاصة:

- لقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على ألا يدخل في القرآن الكريم أي لفظ ليس منه، أو أن يختلط بغيره، فاتخذ كُتَّابًا من كبار الصحابة - والصحابة كلهم عدول - كان يأمرهم بكتابة ما ينزل عليه من الوحي، ويرشدهم إلى موضعه من السور، فاجتمع للقرآن في حياة النبي ﷺ الكتابة في السطور، والجمع في الصدور، ولم تنله يد بالنقص ولا بالزيادة حتى جمعه الخلفاء الراشدون.
- ليس صحيحًا أن كتَّاب الوحي كانوا من اليهود، بل لم يكن من بينهم يهودي واحد.
- الحروف المقطعة التي وردت في فواتح بعض السور القرآنية - وَحْيٌ من الله تعالى أنزله على نبيه ﷺ، وأنَّى لكاتب من كتاب الوحي أن يكتبها من عند نفسه، ثم إن هذه الأحرف لا وجود لها في الكتب السابقة.
- كيف يقتبس النبي ﷺ من كتب اليهود وهو يأمر بمخالفتهم في كل شيء؟! والقرآن نفسه يشنِّع عليهم بسبب فسادهم وتحريفهم كتبهم، ويخالفهم في عقائدهم وشرائعهم المحرفة، وهذا برهان ساطع على بطلان قول من يدعون اقتباس النبي ﷺ فواتح بعض السور من اليهود.

1. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق، ص٢٤.

® في "مخالفة الإسلام لعقائد اليهود والنصارى المحرفة وردها" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

الشبهة الخامسة

ادعاء أخذه ﷺ أصول دينه عن بعض رهبان النصارى(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن النبي ﷺ تعلَّمَ أصول دينه من بعض رهبان النصارى، ويستدلون على ذلك بأنه اقتبس سورة الفاتحة من الإنجيل، حيث التقى ﷺ بالراهب بحيرا أثناء رحلته مع عمه أبي طالب إلى الشام، وكذلك التقى بالراهب نسطورا أثناء رحلته في تجارته لخديجة إلى الشام. هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في مصدر الوحي المحمدي، وإلى القول ببشريته.

وجها إبطال الشبهة:

١) مخالفة القرآن الكريم للنصرانية ومعارضته إياها في كثير من المواطن وتعريضه بالنصارى في سورة الفاتحة، كل ذلك ينفي وجود أدنى اقتباس للقرآن من النصرانية، كما أن ثمة كثيرًا من التشريعات الإسلامية لا وجود لها أصلًا في الديانة المسيحية.

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، د. سمير عبد الحميد إبرهيم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق.

٢) من الثابت تاريخيًّا أن الرسول ﷺ لم يذهب إلى الشام إلا مرتين فقط على مدار عشر سنوات، وأن لقاءه ببحيرا، ونسطورا كان لقاءً عابرًا، لا يتفق وطبيعة التلقِّي والتعلُّم لأي شيء، فضلًا عن أن يكون المتعلَّم هو القرآن الكريم، ثم إذا كان هذان الراهبان قد علَّما النبي ﷺ؛ فلماذا لم يذكر ذلك قومه أو الراهبان المذكوران؟!، بل لماذا لم يَخُصَّا نفسيهما بهذا الشرف من باب أولى؟!

التفصيل:

أولا. معارضة القرآن للنصرانية ومخالفتها في كثير من المواطن ينفي اقتباس محمد ﷺ منها:

إن الإسلام قد عارض وخالف في كثير من المواطن النصرانية، وذلك في أمور من الجوهر والصميم، فإذا كان هذا الخلاف الجوهري بين الإسلام والنصرانية واقعًا منذ أول لحظة بُعِث فيها محمد ﷺ، فكيف يكون الإسلام أو بعضه مأخوذًا منها؟ وأي شيء يكون قد أخذه إذن؟ هل أخذ منها عقيدة التوحيد، وتنزيه الله عن كل نقص؟ أم أخذ منها الإيمان بعصمة الأنبياء؟ أم تراه أخذ منها الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وإيتاء الزكاة، وأحكام الجهاد، والزواج، والطلاق والميراث على ما هو مفصَّل في الشريعة الإسلامية؟ إن كل الذي تساءلنا عنه وغيره كثير، لا وجود له عندهم، بل عندهم ما يناقضه تمامًا، فكيف يكون الإسلام إذن صورة عن النصرانية، وبينه وبينها خلاف واسع وبون شاسع[1].

ومن الأمثلة التي توضح هذا التعارض بين القرآن والكتب السابقة، أن العبادات في الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم من صلاة، وصيام، وزكاة وحج، وتفاصيل هذه الشعائر، وطريقة أدائها ـ من الأمور التي لا نظير لها في الديانات السابقة، وإذا كان القرآن الكريم قد اقتبس من الأناجيل التي بين أيديهم، فلماذا لم يأخذ بنظرية التثليث، وبعقيدة الصلب، والخطيئة، وألوهية المسيح[2]؟!

وإذا كان القرآن أو بعضه من عند هؤلاء النصارى، فلماذا جاءت فيه آيات لا توافق النصرانية، مثل:

١. ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ (النساء).

٢. ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ (النساء).

٣. ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ (المائدة).

٤. ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ

١. مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام، د. إسماعيل علي محمد، مرجع سابق، ص٤٥ بتصرف يسير.

٢. الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، مطابع الولاء الحديثة، مصر، ٢٠٠٦م، ص٩١.

لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (المائدة).

٥. ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الصف).

فأين التوحيد المطلق لله في العقيدة الإسلامية من التثليث في عقيدة بحيرا ونسطورا؟!

وأما كون الفاتحة مقتبسة من الإنجيل فباطل؛ وذلك أنَّ في افتتاح السورة بـ "بسم الله"، وإفراد الله ﷻ بالحمد من أول كلمة رفضًا واضحًا لعقيدة التثليث النصرانية، كما أنها أفردت العبادة لله ﷻ في قوله ﷻ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة)، يقول الأستاذ سيد قطب: "والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه ﷺ في أول ما نزل من القرآن باتفاق، وهو قوله ﷻ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ (العلق)، وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى من أن الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (الحديد: ٣) فهو ﷻ الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجود وجوده، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه، فباسمه إذن يكون كل ابتداء، وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه.

والتوجه إلى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكر الله، أما شطر الآية الأخير: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (الفاتحة) فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامي، فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية.. والرب هو المالك المتصرِّف، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرِّف للإصلاح والتربية.

والتصرف للإصلاح والتربية شمل العالمين - أي جميع الخلائق - والله ﷻ لم يخلق الكون، ثم يتركه هملًا، وإنما هو يتصرف فيه بالإصلاح، ويرعاه ويربيه، وكل العوالم والخلائق تحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين، والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة.

والربوبية المطلقة هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل والغبش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة، وكثيرًا ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواجد للكون، والاعتقاد بتعدُّد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة، ولقد يبدو هذا غريبًا مضحكًا، ولكنه كان وما يزال، ولقد حَكَى لنا القرآن الكريم عن جماعة من المشركين كانوا يقولون عن أربابهم المتفرقة: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر: ٣)، كما قال عن جماعة من أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١).

وكانت عقائد الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، تعج بالأرباب المختلفة بوصفها أربابًا صغارًا تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون!

لقد جاء الإسلام، وفي العالم ركام من العقائد والتصورات، والأساطير، والفلسفات، والأوهام، والأفكار يختلط فيها الحق بالباطل، والصحيح

بـالزائف، والـدين بالخرافـة، والفلـسفة بالأسـطورة، والضمير الإنساني تحت هـذا الركـام الهائـل يتخـبط في ظلمات وظنون ولا يستقر منها على يقين..

وإفراد العبادة لله ﷻ في قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ إعلان بـرفض عقيـدة التثليـث التـي يدين بها أهل الإنجيل.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هذه هي الكليـة الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات الـسابقة في الـسورة، فلا عبادة إلا لله، ولا استعانة إلا بالله.

وهنا كذلك مفرق طريق، مفرق طريق بين التحـرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد!

وهذه الكلية تعلن ميلاد التحـرر البـشري الكامـل الشامل، التحرر مـن عبوديـة الأوهـام، والتحـرر مـن عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع، وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد، والله وحده هو الذي يُـستعان به، فقد تخلص الضمير البشري، مـن اسـتذلال الـنظم والأوضـاع والأشـخاص، كـما تخلـص مـن اسـتذلال الأساطير والأوهام والخرافات.

وهنا يعرض موقف المسلم مـن القُـوَى الإنـسانية، والقوى الطبيعية، فأما القوى الإنـسانية ـ بالقيـاس إلى المسلم ـ فهي نوعان: قوة مهتديـة، تـؤمن بـالله، وتتبـع منهج الله، وهذه يجب أن يؤازرها، ويتعاون معهـا عـلى الخير والحق والصلاح، وقوة ضالة لا تتصل بـالله، ولا تتبع منهجه، وهذه يجـب أن يحاربهـا ويكافحهـا ويغـير عليها"[1].

فعقيدة المسلمين هي توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة دون أحد، وأما عن عقيدة النصارى فقـد قـالوا: إن الله هو المـسيح ابـن مـريم، والله ﷻ يـرد علـيهم فيقـول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ٧٢)؛ فقد أكّد ﷻ كُفْر قائلي هـذا القـول من النصارى؛ إذ غَالَوْا في إطراء نبـيهم المـسيح عيـسى ابن مريم ﷺ غلوًّا ضادوا به غلو اليهود في الكفر بـه، وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتانًا عظـيمًا، ثـم صـار هو العقيدة الشائعة فيهم، ومن عدل منهم إلى التوحيـد يعد مارقًا عن ديـنهم، ذلـك بـأنهم يقولـون: إن الإلـه مركب من ثلاثة أصول يسمونها: "أقانيم" وهي، الآب والابن والروح القدس[2]، وهذه الأقانيم الثلاثـة هـي الـذات والنطـق والحيـاة، فـالله موجـود بذاتـه، نـاطق بكلمته، حي بروحه، وكل خاصية من هذه الخواص أو العناصر التي يتكون منها الإله تعطيـه وصـفًا معينًـا أو مظهرًا خاصًّا، فإذا تجلَّى الله بصفته سُـمِّي "الآب"، وإذا نطـق فهـو "الابـن"، وإذا ظهـر كحيـاة فهـو "الـروح القـدس"، وفي النهايـة يكـون الآب والابـن والـروح القدس إلهًا واحدًا وهو الله[3].

ثم يقرر الله ﷻ كفـر مـن قـال مـنهم: إن الله ثالـث ثلاثة، فيقـول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (المائدة: ٧٣).

فأين ذلك مما قررته سورة الفاتحة من إفراد العبودية

---

١. في ظلال القرآن، سيد قطـب، دار الـشروق، مـصر، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١، ص٢١: ٢٥ بتصرف.

٢. تفسير المنار، محمـد رشـيد رضـا، دار الفكـر، بـيروت، ط٢، د. ت، ج٦، ص٤٨٢.

٣. المسيحية بـين التوحيـد والتثليـث وموقـف الإسـلام منهـا، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٧٧، ٢٧٨.

لله تعالى رب العالمين؟!

ولو سلمنا جدلًا أن الفاتحة مقتبسة من الإنجيل، فكيف نفهم ذم الفاتحة للنصارى ووصفها لهم بالضالين؟!!

لو صح أخذ الفاتحة من الإنجيل، أكان يصح أن تسمي أصحاب الإنجيل بالضالين؟ وقد ورد في الحديث المرفوع تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى[1].

وجاء في "معالم التنزيل" للبغوي بعد تفسير لفظتي "المغضوب عليهم والضالين" تفسيرًا لغويًّا، أنه قيل: المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى؛ لأن الله تعالى حكم على اليهود بالغضب، فقال: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ (المائدة: ٦٠) وحكم على النصارى بالضلال، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ (المائدة: ٧٧).

وبعد فهل من الممكن نقلًا وعقلًا، أن يكون النص الإنجيلي مصدرًا لما ورد في القرآن الكريم؟!!

إن المقارنة بين هذه النصوص تُسفِر عن انفراد النصوص القرآنية بدقائق لا وجود لها في النص الإنجيلي. أمَّا ما توهموه من تشابه بين الفاتحة وبين ما جاء في الإنجيل من قوله: "فصلُّوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدَّس اسمك. ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. خُبزَنا كفافنا أعطِنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجِّنا من الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد.. آمين". (متى ٦: ٩ ـ ١٣)، وأن هذا الاستفتاح يشبه: "بسم الله الرحمن الرحيم". ثم إن الصلاة في المسيحية تتكون من آيتين تختصان به تعالى، وأربع آيات للعبد بالإضافة إلى البسملة، وكذلك الفاتحة عند المسلمين، ويستشهدون على ذلك بما جاء في الحديث القدسي عن الفاتحة من قوله ﷺ: "قَسَمتُ الصلاة بيني وبين عبدي"[2]. فوهم باطل؛ إذ لو كانت الفاتحة مأخوذة من الإنجيل بالفعل، فهل كان معاصرو محمد ﷺ ومعارضوه من كل الاتجاهات يسكتون عن ذلك؟ لقد كانوا يتصيدون له ﷺ التهم، ويقفون له بالمرصاد، فكيف يغيب عنهم أمر كاقتباس الفاتحة من كتب النصارى، لا سيما وأن الفاتحة هي أم الكتاب، وهي ركن أساسي من أركان الصلاة، التي هي عماد الدين؟!

إن كل ما استطاع المعارضون أن يَدَّعوه لم يخرج عن إطار التعميمات التي لا تستند إلى أي أساس علمي، وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى هذه الدعاوى الباطلة؛ فزعموا كما حكى عنهم القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٤)﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ (الفرقان)، وقالوا: إن محمدًا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ (النحل:١٠٣).

ومن الثابت تاريخيًّا أن محمدًا ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا

---

[1]. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، بقية حديث عدي بن حاتم ﷺ (١٩٤٠٠)، وأبو يعلى في مسنده، حديث ميمونة زوج النبي ﷺ (٧١٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٦٣).

[2]. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٩٠٤).

يكتب؛ ولذلك عين عددًا من أصحابه لكتابة ما ينزل عليه من وحي قرآني، ولو كان يستطيع القراءة والكتابة لما كان في حاجة إلى الاستعانة بأحد لكتابة آيات القرآن الكريم.

فكيف يستطيع أُمِّيٌّ أن يطَّلع على كتب الديانات الأخرى؟ وكيف ومتى حدث ذلك، إن هذه مجرد دعاوَى لا يقوم عليها دليل، ولا سند لها من الواقع[1].

والقرآن الكريم كله كتاب مُتَّسِق في نَظْمه وأسلوبه وتعاليمه، فلو كانت الفاتحة مأخوذة من كتب سابقة لكانت مختلفة في أسلوبها وفي نظمها، وتعاليمها عن بقية سور القرآن الكريم، ولما لم يكن ذلك كان نظم الفاتحة وأسلوبها وتعاليمها يتفق ونظم القرآن الكريم وأسلوبه، والآن نطالب هؤلاء المشككين بما طالبهم به القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ (البقرة) ®.

ثانيًا. من الثابت تاريخيًّا أن النبي ﷺ لم يذهب إلى الشام إلا مرتين فقط على مدار أكثر من عشر سنوات، فأنَّى له أن يتعلم كل هذا في زيارتين عابرتين؟!

إن الزعم بتلقِّي النبي من بحيرا في صباه في رحلته إلى الشام مع عمه، أو عن نسطورا أثناء رحلته التجارية للسيدة خديجة وهو في شبابه - زعم باطل لا يستند إلى دليل من عقل أو منطق وذلك للأسباب الآتية:

- إن التقاء الراهب بحيرا بالغلام محمد، أو التقاء الراهب نسطورا بالشاب محمد ﷺ كان لقاءً عابرًا؛ إذ إن طريق التجارة من مكة إلى الشام، كان يتخذ من أديرة الرهبان مواقع استظلال وراحة.

ولم يكن هذا اللقاء خاصًّا بسيدنا محمد ﷺ أو على انفراد معه؛ بل كان لقاءً عامًّا يجمع قوافل التجارة كلها، فسرعة اللقاء لا تمكِّن من تعليم ولا تعلُّم.

- إن نبوة سيدنا محمد ﷺ أتت بعد اللقاء الأول بثلاثين سنة تقريبًا، وبعد اللقاء الثاني بخمسة عشر عامًا، فلِمَ هذا الصمت الطويل من النبي ﷺ إن كانت هناك إيحاءات من هذين الراهبين؟

ومن المعروف أن فترة الشباب هي أجمع فترات العمر للقوة والثورة وإرادة التغيير.

- إن النصرانية في المنطقة العربية لم يكن لها حكومة، أو هيئة تجمعها على وحدة التعاليم، فهؤلاء الرهبان المنتشرون في صحاري المنطقة، هم من الذين فرَّقتهم الصراعات المذهبية حول طبيعة المسيح، ومزَّقتهم الاضطهادات السياسية.

فأي عقيدة تلقاها سيدنا محمد ﷺ من هؤلاء الرهبان؟ أهي عقيدة الصَّلب والفداء؟ أو عقيدة التثليث؟!

إنه من البدهي أن القرآن العظيم قد التقى مع الكتب السابقة في قصصها العام باعتبار المشكاة الواحدة التي خرجت منها، ولكن تفاصيل القصة في القرآن الكريم قد فضحت تحريفات أهل الكتاب

---

1. حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٦، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، العدد ١٣٣، ص٨، ٩.

® في **"أمية النبي ﷺ تنفي كون القرآن من تأليفه"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء. وفي **"مخالفة الإسلام لعقائد اليهود والنصارى المحرفة وردها"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، والوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

وافتراءاتهم على الله ورسله.

يقول أحد الباحثين المنصفين من غير المسلمين[1]: "محمد بغير ذلك اللقاء - لقائه ببحيرا - في عرض الفلاة، كان حريًّا أن يغدو محمدًا بقضه وقضيضه، وفضله وعقله وهداه.

أما بحيرا بغير هذا اللقاء فكان حريًّا أن يذهب في التاريخ نسيًا منسيًّا، فأدخله ذلك اللقاء دولة التاريخ، وأحدث له ذكرًا باقيًا، وقد راح ألوف من نظرائه المنقطعين للنسك في الصحراء واختلط تراب عظامهم بالرمال التي يذروها الهواء".

فالباحث يريد أن يقول إن بحيرا لم يكن سقراط عصره، ولا فيلسوف زمانه، ولم يُعرف له ذكر في التاريخ قبل هذا اللقاء ولا بعده، فمن هو بحيرا حتى يُنسب إليه القرآن؟!!

وعلى كلٍّ فما أشبه الليلة بالبارحة.. وصدق الله حيث يقول ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ (الفرقان).

لا ينكر أحد أنه ﷺ لم يذهب إلى الشام في حياته كلها إلا مرتين فقط، وذلك على مدار أكثر من عشرة أعوام، فأين إذن هذه الرحلات التي يتكلمون عنها، والتي يزعمون أن النبي ﷺ التقى فيها بأحبار اليهود ورهبان النصارى وأخذ عنهم، ومتى كانت؟ وأين تم هذا اللقاء، وكم مدة قضاها ليتلقى تلك الدروس حتى يهضمها ويستوعبها؟ ومن هم الذين أخذ عنهم؟ وماذا أخذ؟ هذه الأسئلة وغيرها الكثير والكثير يعجز المستشرقون عن إجابتها؛ لأنها لا إجابة لها ألبتة.

فإن ما زعموه من أنه من الممكن أن يكون رسول الله ﷺ تلقف هذا الذي جاء به من بحيرا ونسطورا الراهبين - زعم باطل؛ وذلك لأن المعروف الثابت تاريخيًّا أن النبي ﷺ لم يلق بحيرا هذا إلا مرة واحدة، وهي المرة الأولى التي سافر فيها إلى الشام، وكان معه عمه أبو طالب، وكان عمره ﷺ آنذاك تسعة أعوام، ولا يعقل أن يكون سيدنا محمد ﷺ قد أخذ عنه، وهو في هذه السن شيئًا.

وأنَّى لبحيرا معرفة ما حواه الوحي الإلهي قرآنًا وسنة، من علوم وأخبار ماضية ومستقبلية؟ هذا لو فرضنا أنه يمكن أن يكون قد أخذ عنه شيئًا.

إن الباحث المنصف لو استنطق التاريخ، ما زاد على أن يقول له: إن الراهب بحيرا لما رآه تظله سحابة من الشمس، ورأى فيه بعض أمارات النبوة، ذكر لعمه أنه سيكون له شأن، وحذره أن تناله اليهود بأذى.

وكذلك الحال عندما مرَّ رسول الله ﷺ بالراهب نسطورا، وهو في طريقه إلى الشام، يعمل في تجارة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - وكانت هذه هي المرة الثانية والأخيرة في رحلاته خارج مكة، وكان ﷺ إذ ذاك شابًّا في الخامسة والعشرين من عمره، وفي صحبته غلام خديجة ميسرة، والذي تحدث به الراهب نسطورا عن رسول الله ﷺ كان مع ميسرة، ولما تحقق الراهب من صفات النبوة في رسول الله ﷺ ما زاد على

---

1. هو د. نظمي لوقا في كتابه "وامحمداه"، وهو أحد النصارى المصريين.

أن جاء إلى رسول الله وقبّل رأسه وقدميه، وقال: آمنت بك، وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة، ثم قال لميسرة بعد أن خلا به: يا ميسرة! هذا نبي هذه الأمة، والذي نفسي بيده إنه لهو تجده أحبارنا منعوتًا في كتبهم.

ولم تذكر الأخبار أنه كان حتى هناك مجرد حديث بين الغلام الصغير محمد ﷺ وبين بحيرا، وبين الشاب محمد ﷺ وبين نسطورا، وإنما الذي ذكرته الأخبار أن كل الحديث الذي تحدث به الراهب بحيرا عنه، كان مع عمه أبي طالب، والذي تحدث به الراهب نسطورا عنه، كان مع غلام خديجة ميسرة! فماذا - يا ترى - سمع الشهود من عمه أبي طالب وميسرة من علوم هذا الأستاذ المزعوم؟ هلا نبأنا التاريخ بنبأ ما جرى خلال هذا الحديث المزعوم الذي جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن والسنة؟!

إن تلك الروايات التاريخية التي تتحدث عن اللقاء العابر بين رسول الله ﷺ وبين بحيرا ونسطورا، تجعل من المستحيل أن يقف كل من بحيرا ونسطورا موقف المعلِّم المرشد لسيدنا محمد ﷺ؛ لأن كلًّا منهما بشَّر عمه أو ميسرة بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن راهب بهذه البشارة التي يزفها، ثم يُنَصِّب نفسه أستاذًا لصاحبها الذي سيأخذ عن الله، ويتلقى عن جبريل، وإلا كان هذا الراهب متناقضًا مع نفسه!!

إن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة، لفرح بها قومه، وقاموا لها ولم يقعدوا؛ لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله ﷺ، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة[1].

يقول د. شوقي أبو خليل: "إن اسم الكاهن الذي زعموا أنه كان يملي، أو يعطي قصص القرآن للنبي ﷺ كان يختلف دائمًا باختلاف مرجع هذه الشبهة ومصدرها، أو الإشاعة المفتراة، فإن كان المرجع مسيحيًّا فالراهب هو سرجيوس أو بحيرا وفي مرات أخرى هو ورقة بن نوفل أو نسطورا.

وإذا كان المرجع يهوديًّا فصاحب القرآن حاخام إسرائيلي مجهول الاسم، ولا ندري لماذا ينتهي في أصله ونسبه إلى بني إسرائيل؟

وإننا لندعو من أثاروا هذه الشبهة إلى أن يتفكروا في هذه النقاط الست الآتية التي تهدم شبهتهم من أساسها:

١. إن اختلاف الروايات يدل على أن الشبهة والتهمة لم يتفق عليها، ولم تكن محكمة، فمرة بحيرا، وتارة نسطورا، وتارة ورقة، ومَرَّة حاخام مجهول الاسم.. أليس هذا كافيًا لرد التهمة؟

٢. إن عُمْر محمد ﷺ كان تسع سنوات فقط، عندما ذهب مع عمه أبي طالب إلى الشام، فهل يُعقل أن يعي ويستوعب هذا الطفل الأمي ما يمليه له بحيرا؟

ولما عاد ثانية مع ميسرة خادم خديجة في تجارة لها كان عمره خمسًا وعشرين سنة، ولم يتكلم ميسرة إلا بما رأى من عناية الله بمحمد، ولم يجتمع محمد في هذه الرحلة مع أي كاهن أو راهب، فلماذا نتغافل عن معجزات الله لنبيه ﷺ وهو في تجارته لخديجة؟ ولماذا نظن أنه أخذ دينًا في هذه الرحلة؟

ويحضرنا تساؤل: هل كان من الممكن أن يخرج النبي ﷺ إلى بلاد الشام خلسة لو لم تكلفه خديجة بتجارتها ليأخذ من بحيرا القرآن؟

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٣١٩: ٣٢١.

وما الصلة السابقة بين محمد وبحيرا؟ ولماذا انتقى بحيرا محمدًا بالذات وأعطاه هذا التشريع، ولم يعطه لابنه أو قريبه ولم يَدَّعِه لنفسه؟

لماذا يعطي المجد والخلود، والشهرة، والقوة، والنصر، وخير البشرية، وإنقاذها إلى هذا العربي اليتيم، ولم يدعه لنفسه؟ أليس هو - أقصد الراهب بحيرا - أولى بذلك من يتيم أبي طالب؟!

٣. إن النبي ﷺ لم يبق في رحلته الأولى إلا وقتًا قصيرًا مع بحيرا بوجود أناس كثر، فعامل الزمن يجب التنبه له، فهل يكفي لهذا الأمي الصغير يوم أو يومان أو ثلاثة كي يعي القرآن كله جملة وتفصيلًا؟!

ولو أنه أخذ شيئًا من بحيرا لقالت قريش لمحمد ﷺ لما ادَّعى النبوة: إن بحيرا أعطاك هذا، ولكان ذلك ورقة رابحة بيد قريش؛ لأنه لن يستطيع إنكار ما أخذ بوجود قومه، وهذا ما لم تقله قريش في حربها الإعلامية ضد النبي ﷺ وضد القرآن، وهي التي أشاعت ما أشاعت، وعملت ما عملت للوقوف في وجه النبي ﷺ والقرآن!!

٤. رفضنا عقلًا وبرهَنًا بموضوعية على أن القرآن لن يكون من عند بشر مطلقًا، فبحيرا بشر، وورقة بن نوفل بشر، وحاخام اليهود بشر... كلهم بشر فلن يكون من عندهم، ولو بقي محمد عندهم آلاف السنين، لما أتوا بمثله ولما أعطوه بالتالي هذا التشريع المعجز.

٥. لم يعاصر بحيرا أو نسطورا... التسلسل الزمني للحوادث الواردة في القرآن الكريم، فأين بحيرا أو ورقة أو.. من سؤال يُسْأَله رسول الله فنرى الإجابة قد وُجِدت في حينها، وجاء القرآن يشرحها ويحدد موقفه منها؟ وهذا يدحض دحْضًا قاطعًا كون القرآن من عند هؤلاء، فلو كان جزء منه من عندهم، لكانت الحوادث التي جرت بعدهم وتكلم بها النبي ﷺ لها أسلوب يغاير أسلوبهم، أي لكان في القرآن أسلوبان متغايران وهذا ما لا نراه في القرآن قطعًا.

ومهما كان بحيرا أو غيره كبير عقل، وصاحب نظر ثاقب، وعبقريًّا فذًّا، فلن يعرف أو يعرف غيره حوادث جرت بعد وفاته بعشرات السنين!

٦. وفي القرآن الكريم آيات لا توافق عقيدة المسيحية، فكيف يكتبها بحيرا أو نسطورا؟ وآيات توضح نفسية اليهود الخبيثة، فكيف يكتبها حاخام"[1]؟!

الخلاصة:

- الناظر فيما ورد في القرآن الكريم من عقائد وتشريعات يجد مخالفة صريحة ومعارضة واضحة لما عند النصارى، ويجد أنه سفَّه عقائدهم، وفضح أسرارهم، وبيَّن انحرافهم، فلو كان رهبانهم مُعَلِّمين للنبي ﷺ لما وقف منهم هذا الموقف العدائي، بل لمدحهم وأثنى عليهم حتى لا يفتضح أمره، ثم لماذا لم يَدَّعِ أحد منهم تعليمه إذ بَكَّتهم وشنَّع بهم؟!
- الفاتحة بما فيها من عقائد التوحيد التي تنافي عقيدة التثليث تنفي عن نفسها أن تكون مقتبسة من الإنجيل.
- النظم القرآني نظم واحد، ولا يشابهه نظم، ولن يشابهه نظم، ومن ثم كانت الفاتحة من عند الله، وليست اقتباسًا من إنجيل النصارى المحرَّف، ولا ينبغي ذلك.

---

١. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٣: ٣٥ بتصرف.

• المطالع لتاريخ رحلات النبي ﷺ إلى الشام، يجد أنه لم يسافر إليها إلا مرتين فقط، فهل تكفي هاتان الزيارتان لتعليم محمد ﷺ كل ما جاء به، مع علمنا بما هو ثابت تاريخيًّا من طبيعة اللقاء العابر السريع، والتي لا تسمح بالتلقي أو التّعلّم؟

• لماذا اختار بحيرا أو نسطورا محمدًا ﷺ دون من عداه لتلقي هذا التعليم؟ ولماذا لم يشنِّع بمحمد ﷺ من رأوه من قومه الذين كانوا معه في رحلة الشام؟!

• لماذا يُعطي هذان الراهبان محمدًا ﷺ هذا الشرف والمجد، ولم يستأثرا به؟! ولِمَ لمْ يعلِّما القرآن أحدَ أبنائهم أو أقاربهم، ثم أنّى لهم بهذا الإعجاز أصلًا؟! وعليه فالنتيجة النهائية أن القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى، ولا دخل للبشر فيه.

الشبهة السادسة

ادعاء أن النبي ﷺ والسيدة خديجة بنت خويلد وورقة بن نوفل اختلقوا القرآن والإسلام(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن النبي ﷺ اختلق دين الإسلام، وألَّف كتابًا مدعيًا أنه كتاب سماوي يحوي شرائع الدين الذي لفَّقه، وقد استعان في ادعاء هذه النبوة وفي تأليف هذه التعاليم القرآنية بزوجته خديجة، وابن عمها ورقة بن نوفل، فالثلاثة جميعهم هم الذين لفَّقوا هذا الدين، واتفقوا على تسميته بـ "الإسلام"، وتسمية كتابه بـ "القرآن"، وتنصيب محمد ﷺ نبيًّا لهذا الدين الجديد. وقد استدلوا على ذلك كله بما يأتي:

١. أنه ﷺ تعلَّم من ورقة بن نوفل عن طريق زوجته: خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ التي هي ابنة عم ورقة. وقد حبَّب ورقة إلى النبي ﷺ العزلة والاختلاء.

٢. أن التعاليم الدينية التي كان يأتي بها النبي ﷺ ـ الوحي ـ قد انقطعت فترة بوفاة ورقة بن نوفل، مما يدل على أنه كان يستعين به في تأليف هذه التعاليم.

٣. أن زوجته خديجة ـ رضي الله عنها ـ كانت تُثَقِّفُهُ وتُعِدُّه للنبوة، بدليل أنها وفَّرت له أسباب العيش من مالها؛ حتى يتفرغ لهذا الأمر.

ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في مصدر الوحي، بنفي إلهيته وإثبات بشريته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن أول لقاء بين النبي ﷺ وورقة بن نوفل كان بعد إعلامه ﷺ بالنبوة من قِبل أمين الوحي جبريل، ولم يتكرر مثل هذا اللقاء مرة أخرى؛ بسبب موت ورقة، فكان هذا اللقاءُ هو الأول والأخير، فهل يُعْقَل أن يستقي النبي ﷺ تعاليم دينه من ورقة في لقاء واحد لم يَطُلْ؟!

٢) لم ينقطع الوحي عن رسول الله ﷺ بسبب موت

(*) لكن محمدًا لا بواكي له، د. إبراهيم عوض، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م. الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم، ميريت للنشر والمعلومات، مصر، ٢٠٠١م. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

مُعَلِّمه ورقة بن نوفل كما يدَّعي المدعون، ولكن انقطاعه كان نوعًا من الرياضة الرُّوحية، ومرحلةً لإعداده إعدادًا نفسيًّا لتلقي الرسالة الكبرى.

٣) ليست السيدة خديجة - رضي الله عنها - صانعة نبوة محمد ﷺ، فلقد تزوجت السيدة خديجة برجلين قبل النبي ﷺ. فلماذا لم تُعِدَّ أحدهما لهذه النبوة، بل لماذا لم تنسب هذه النبوة لابنها هند بن أبي هالة إن كانت هي صانعة النبوة كما يزعمون؟

٤) لـمَّا أخذت سِنُّ النبي ﷺ تدنو نحو الأربعين، حَبَّب الله ﷻ إليه ﷺ العزلة والاختلاء في غار حراء، وكأنه تعالى يُعِدُّه ليكون الرسولَ الخاتم، وكان ذلك قبل أن يلتقي ﷺ بورقة بن نوفل، فهل يُعقَل أنْ يُدَّعى أن ورقة هو الذي دفعه إلى العزلة والاختلاء، وحبَّبَها إليه؟!

٥) لِمَ كان النبي ﷺ من بين ثلاثة الأعضاء الذين اشتركوا في تلفيق الإسلام والقرآن - النبيَّ الخاتم؟! ولِمَ لمْ يؤثر العضوان الآخران - ورقة بن نوفل وخديجة - نفسيهما بهذا الأمر العظيم؟!

التفصيل:

أولا. لقاء النبي ﷺ بورقة: تداعياته وملابساته:

إذا تأملنا دعوى أن النبي ﷺ قد تلقَّى القرآن من ورقة بن نوفل ابن عم زوجته خديجة - رضي الله عنها - فإننا لا نجد دليلًا يسندها، فهذه هي كتب السيرة، وكتب التاريخ، بالإضافة إلى المصادر الإسلامية من القرآن الكريم، والسنة النبوية، لا يوجد فيها أيّ ذكر، ولو من باب النفي عن تعلم النبي ﷺ من ورقة بن نوفل، كما لم يرد مثل هذا الاتهام على لسان كفار قريش، وقد كانوا ينتهزون أي فرصة للنيل من النبي ﷺ، حتى زعموا أنه كان يتلقى الوحي من أحد الحدادين الروم في مكة، وفي هذا يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ (النحل).

ومن ثم يمكن أن نتساءل: إذا كان للنبي ﷺ علاقة وثيقة - كما يدعي هؤلاء - بورقة بن نوفل، فلماذا لم يتهمه المشركون بالتعلُّم منه، على الرغم من أن حجتهم في ذلك ستكون أقوى بكثير من اتهامهم إياه بتعلمه من الحداد الرومي؛ فابن نوفل قرشي عربي، ولديه المادة واللسان المفصح عما يشاء؟!

ألا يدل هذا على أن النبي ﷺ لم تكن له أية علاقة بهذا النصراني - ورقة بن نوفل - باستثناء هذا اللقاء الوحيد الذي تم بينهما بعد بدء نزول الوحي، بحضور السيدة خديجة زوج النبي ﷺ وبنت عم ورقة بن نوفل، فعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حِراء فيتحنَّث[1] فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: "اقرأ".

قال: "ما أنا بقارئ"، قال: "فأخذني فَغَطَّني[2] حتى بلغ منِّي الجَهْد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ"، قال: "فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني

١. التَّحنُّث: التعبّد.
٢. غَطَّني: ضمَّني وعَصَرَني.

الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ﴿٣﴾ ﴾ (العلق)".

فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجِف[1] فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: "زَمِّلوني[2]، زَمِّلوني"، فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع[3]، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي"، فقالت خديجة: "كلا والله ما يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ،[4] وتُكْسِب المعدوم، وتَقْرِي[5] الضيف، وتُعين على نوائب الحق".

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، فقالت له خديجة: "يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك"، فقال لي ورقة: "يا ابن أخي، ماذا ترى"؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: "هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا،[6] ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك".

فقال رسول الله ﷺ: "أَوَمُخْرِجِيَّ هم"؟ قال: "نعم، لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا"، ثم لم يَنشَب[7] ورقة أن تُوُفِّي، وفَتَرَ الوحي"[8][9].

والمتأمل في هذا الحديث، وفي حياة ورقة بن نوفل يتبين له عدة أمور يستحيل معها أن يكون النبي ﷺ تعلَّم من ورقة، وهي:

١. أن هذا اللقاء الذي تم بين النبي ﷺ وبين ورقة، قد تمَّ بواسطة السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ فلم يلجأ النبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل من تلقاء نفسه، وهذا يدل على عدم وجود أية صلة بين النبي ﷺ وبين ورقة بن نوفل قبل هذا اللقاء، وصيغة الكلام والحوار بينهما تشهد وتدل على عدم وجود سابق لقاء بينهما.

٢. أن هذا اللقاء كان اللقاء الأول بين النبي ﷺ وبين ورقة؛ إذ لم ترو كتب السيرة، أو الحديث أي خبر عن لقاء النبي ﷺ بورقة بن نوفل قبل هذا اللقاء، حتى في قصة زواج النبي ﷺ بخديجة، فقد ورد في كتاب "الكامل" للمبرد أن ورقة بن نوفل كان غائبًا وقت خطبة محمد ﷺ وخديجة ـ رضي الله عنها ـ : "ويُروَى أن رسول الله ﷺ لـمَّا خطب خديجة بنت خُوَيلِد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، ذُكر ذلك لورقة بن نوفل، فقال: محمد بن عبد الله يخطب خديجة بنت خويلد،

---

١. يَرْجِف: يخفق ويضطرب.

٢. زمِّلوني: غطُّوني ولفُّوني بالثياب.

٣. الرَّوع: الفزع.

٤. الكَلُّ: المتعَب العاجز.

٥. تَقري: تُطعِم.

٦. الجَذَع: الشَّاب القوي.

٧. يَنشَب: يلبث.

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).

٩. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٥٩: ٦١.

الفَحل لا يُقدَع أنفه"[1][2].

فنرى في هذا الخبر أن خطبة محمد لخديجة تمت أولًا، ثم نرى الخبر يُذكر بعد ذلك لورقة بن نوفل، ربما لكونه ابن عمها ويهمه العلم بذلك. والعبرة من ذلك أن ورقة بن نوفل كان غائبًا عن محفل خطبة زواج محمد ﷺ وخديجة - رضي الله عنها -[3]، ومن ثم لا نجد في سيرة النبي ﷺ أي لقاء بينه وبين ورقة بن نوفل قبل هذا اللقاء.

٣. أن موقف ورقة بن نوفل في تلك الحادثة يؤكد أنه لا يمكن أن يكون معلِّمًا لرسول الله ﷺ في يوم من الأيام؛ فقد كان موقفه موقف المستفسر المستطلع لما حدث مع رسول الله ﷺ في غار حراء، فلما أخبره كان موقفه التبشير والتصديق والإيمان بنبوته والتطلع للتضحية والمناصرة.

٤. أن ورقة لم يلبث زمنًا طويلًا بعد هذه المقابلة على قيد الحياة؛ إذ توفي بعد ذلك بوقت قصير، فلو كان هو مصدر العلوم والمعارف لرسول الله ﷺ، فمن أين له ﷺ بالتعاليم التي جاء بها بعد موته؟! وإن قيل إنه كتب القرآن له جملة واحدة ثم أعطاه له، فليس لذلك أساس من الصحة، ولا يقول ذلك عاقل، والقرآن نفسه يكذب ذلك؛ لأنه نزل مفرَّقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة، على حسب الوقائع والأحداث، فمن أين لورقة هذه المعرفة بهذه الحوادث، ففي القرآن آيات عن غزوة بدر وأحد وحادثة الإفك... إلخ، فهل عرف ورقة هذه الحوادث كلها حتى يؤلف فيها قرآنًا، ثم إن القرآن تضمن كثيرًا من العلوم والمعارف التي لم يصل البشر إلى معرفتها إلا في زمن قريب، فمن أين لورقة بهذا[4]؟!

٥. أن طبيعة اللقاء بينه ﷺ وبين ورقة لم تكن تسمح بالتعلُّم أو التلقِّي، بل إنها لتنفي إمكانية حصول ذلك؛ لأن اللقاء كان عابرًا قصيرًا، فهل يسمح هذا اللقاء القصير بتلقِّي مثل هذا القرآن المعجز جملة أو شيء منه؟

٦. أن ورقة نفسه لم يكن متمكِّنًا في الديانة النصرانية؛ إذ إنه كان وثنيًّا على دين قريش ثم تَنَصَّر، وهذا واضح في حديث البخاري: "وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية"، وقصة تنصُّره معروفة، وذُكرت في كثير من المصادر التاريخية الإسلامية، والراجح أن ذلك قد حدث في وقت متأخر من حياة ورقة بن نوفل، ولم يكن لديه من العلم مهما بلغ ما يميزه عن غيره من رهبان نصارى العرب، بدليل سفره إلى الشام، وطلبه للنصرانية هناك، ثم عودته إلى مكة، واعتزاله أهلها، وما هم فيه من ضلال وعبادة أوثان، ولم يُسْمَع عنه أنه دعا قومه للنصرانية أو تَرْك عبادة الأوثان، وكذلك لم تكن له أية محاولة لإصلاح مجتمعه الوثني، بل اكتفى بالعزلة والابتعاد عن الناس والاجتهاد في التعبُّد لإحساسه بدنو أجله.

ومن ثم فلم يكن لورقة أي هدف دَعَوِي أو

---

١. الفَحل لا يُقدَع أنفه: مثل يُضرب للكُفْء الذي لا يُردُّ في الزواج.

٢. الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرِّد، مؤسسة المعارف، بيروت، د. ت، ج١، ص٩٣.

٣. نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل، حسن يوسف الأطير، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٦.

٤. الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٤٧٤ بتصرف.

إصلاحي سوى التمنِّي ومطالعة كتب الديانات القديمة التي تبشِّر بنبي سوف يمحو الله ﷻ به الظلمة، ويقيم على يديه الملة العوجاء، ولا نريد بذلك الطعن في ورقة بن نوفل؛ لأن الخطأ لم يكن خطأه بل خطأ بيئة مكة، فلم يكن أهلها الوثنيون ليسمحوا لورقة أو لغيره بتسفيه عقولهم وسبِّ آلهتهم، وليس ما تعرض له زيد بن عمرو بن نُفيل - صديق ورقة القديم - من اضطهاد ونفي خارج مكة بعيدًا عن ناظري ورقة.

من كل هذه الحقائق التي ذكرناها يتضح لنا استحالة تعلُّم النبي ﷺ من ورقة بن نوفل؛ لأن هذه دعوى بغير دليل، فلا يمكن أن ننسخ حكم التاريخ والشهود الثقات، والقرائن الحاسمة، لنأخذ بدعوى ساقطة منقوضة الأصل والأساس، فمهما بلغ عقل ورقة بن نوفل، ومهما كان صاحب نظر ثاقب، ومهما كان عبقريًّا فذًّا، فلم يكن بمقدوره، ولا مقدور غيره من البشر، أن يأتي بمثل سورة من القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن ثَمَّ، فلا يمكن لعاقل أن يزعم أن ورقة بن نوفل هو مصدر الوحي المحمدي؛ لأنه لو كان كذلك فلماذا لم ينسب هذا الوحي لنفسه؟! ولماذا يتنازل عن هذا الكنز الثمين - القرآن والنبوة - لمحمد بن عبد الله؟ وإذا كان لقائل أن يقول: إن سِنَّ ورقة وإصابته بالعَمَى قد حالت بينه وبين ذلك، فلماذا لم يختر رجلًا من قومه - بني أسد - ليقوم بهذه المهمة ويكون الشرف كله لهم؟!

ثانيًا. نفي كوْن السبب في انقطاع الوحي عن النبي موتَ ورقة بن نوفل:

إن فترة الوحي وانقطاعه عن النبي ﷺ من الأمور الثابتة التي روتها أحاديث عديدة، ونحن نقبل ذلك ولا ننكره، ولكن الذي لا نقبله هو القول بأن هذه الفترة كانت بسبب موت ورقة بن نوفل؛ فقد علَّل بعض العلماء لفترة انقطاع الوحي هذه بأنها كانت "ليذهب ما كان يجده رسول الله ﷺ من الرعب والاضطراب بسبب بدء تجربة الوحي، وليحصل له بانقطاع الوحي بعدها التشوُّق إلى العود"[1]، وذلك يؤدي إلى قدرة أكبر على تحمل العناء في وجود هذا الشوق، بعد أن تطمئن نفسه ويهدأ قلبه، ويزول أثر المفاجأة الكبرى، فيتطلع مرة أخرى إلى تكرار هذه التجربة العظيمة التي يتصل فيها الإنسان بقُوَى من عالم الغيب.

وهذا مما يتفق مع طبيعة الأمور، وواضح من مجموع الروايات كلها أن تجربة بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ بالآيات الأولى من سورة (اقرأ)، كان لها أثر هائل في نفسه انعكس في شعور يجمع بين الرعب والفزع - من التجربة غير المألوفة - والتطلع إلى استكمال جوانبها ومعرفة أبعادها، وذلك لما أوتيه الإنسان - على وجه العموم - من رغبة اكتناه سر المجهول والاتصال به، وهو ما يُعرف بـ "غريزة حُب الاستطلاع"، وأيضًا فإن محمد بن عبد الله ﷺ كان يجمع إلى هذه الرغبة الأصيلة في الإنسان شعورًا قويًّا وملحًّا نما وتمكَّن على مر الأيام في نفسه، بأن ما عليه قومه من وثنية وعادات اجتماعية ليس هو الحق، ولعله - بعد أن مرت به تجربة بدء الوحي، وبعدما حدثه به ورقة - تطلع إلى استكمال أسرار هذه التجربة النادرة العظيمة، على الرغم مما

١. مدخل إلى الدراسات القرآنية، د. محمد بلتاجي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٧٦.

اقترن بها من رعب وفزع واضطراب.

"وما نظن أن فترة الوحي وانقطاعه عن رسول الله ﷺ على هذا النحو، إلا كانت نوعًا من الرياضة الروحية، ومرحلة من إعداده النفسي لتلقي الرسالة الكبرى، خاتمة رسالات الله إلى البشر، وما نظن ـ أيضًا ـ أن الأحداث غير المألوفة التي مرت به من قبل ـ والتي تمثلت في تفرده وانعزاله عن كثير من مفاهيم بيئته وعقائدها، انتهت به إلى العزلة والرؤيا الصادقة ـ إلا كانت مراحل سابقة في إعداده لتلقي رسالة الله تعالى.

حتى إذا ما بلغ به الشوق إلى معاودة هذه التجربة، وزال عنه رعبها ومفاجأتها، وثبت لديه يقين قاطع بأن ما أتاه إنما كان حقًّا من الله، وأنه مقدمة لما بعده ـ جاءه الأمر من الله وعاودته التجربة الهائلة مرة أخرى تأمره بأن يقوم، وأن يطهر ثوبه؛ لينهض إلى إنذار الناس بما أتاهم مما نزِّل عليه"[1].

ومن ثم فلم يكن موت ورقة بن نوفل، هو سبب فتور الوحي وانقطاعه عن النبي ﷺ كما يزعم هؤلاء، وإلا لانقطع الوحي تمامًا لموت ورقة بن نوفل، وهذا ما لم يكن، فسرعان ما تتابع الوحي على النبي ﷺ بعد هذه الفترة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه لم ينزل من القرآن في حياة ورقة إلا سورة العلق فقط، وهي سورة نزلت بنفس أسلوب سائر السور التي نزلت بعد وفاة ورقة، كما أنه لم يعاصر التسلسل التاريخي للحوادث الواردة في القرآن، فأين ورقة من سؤال يُسألُهُ رسول الله ﷺ، فنرى الإجابة قد وُجِدَت في حينها، وجاء القرآن يشرحها ويحدد موقفه منها؟ وكيف لورقة ـ أو غيره ـ أن يعرف حوادث جرت بعد وفاته بعشرات السنين[2]؟

ونخلص مما سبق كله إلى أن العلاقة التي تربط بين انقطاع الوحي عن النبي ﷺ، وبين موت ورقة بن نوفل، لا تتعدَّى مجرد الارتباط التزامني بين حدثين تاريخيين®.

ثالثًا. ليست السيدة خديجة رضي الله عنها صانعة نبوة محمد ﷺ:

لقد عاشت أمُّنا السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ مع زوجها رسول الله ﷺ أكثر من عشر سنوات قبل البعثة، فلو صَحَّ ادعاء المدَّعين أن لها ـ رضي الله عنها ـ دورًا كبيرًا في صناعة نبوته ﷺ، وفي تلفيق الدين الذي جاء به، فلماذا ـ إذن ـ سكتت عن تثقيفه وتعليمه وتأهيله للنبوة هذه المدة الطويلة؟!

ومن الثابت تاريخيًّا أنها ـ رضي الله عنها ـ تزوجت قبل النبي ﷺ برجلين، فلماذا إذن لم تنسب هذه النبوة وذلك الدين لأحد زوجيها أو كليهما؟ بل ولماذا لم تنسب ذلك كله إلى ابنها من أبي هالة، أو حتى تنسبه لنفسها؟! ولماذا لم تنقطع التعاليم الدينية التي جاء بها النبي ﷺ والتي يزعمون أنها ـ رضي الله عنها ـ علمته إياها، بعد وفاتها ـ رضي الله عنها ـ؟! ولا أحد ينكر

---

1. المرجع السابق، ص٧٥، ٧٦ بتصرف.

2. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٣٥.

® في "مدة فترة الوحي عن النبي ﷺ" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

الدور الذي قامت به السيدة خديجة - رضي الله عنها - في حياة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، إلى أن تُوفِّيت - رضي الله عنها -، وهو عنها راضٍ كلَّ الرضا، ولها وَفِيٌّ كلَّ الوفاء.

رابعًا. إن الله ﷻ هو الذي حَبَّب إلى نبيه ﷺ العزلة والاختلاء، وكان ذلك قبل أن يلتقي ﷺ بورقة:

لا مجال لادِّعاء مُدَّعٍ أن ورقة بن نوفل هو الذي دَرَّب النبي ﷺ على العزلة والاختلاء وحببها إليه؛ وذلك أن المطالع لكتب السيرة والتاريخ يتأكد أنه ﷺ "لـمَّا أخذت سنُّه تدنو نحو الأربعين، نشأ لديه حب للعزلة بين الفترة والأخرى، وحبَّب الله ﷻ إليه الاختلاء في غار حراء - جبل يقع في جانب الشمال الغربي من مكة - فكان يخلو فيه، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلًا، حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرة إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحي، وهو في إحدى خلواته تلك"[1].

إن انعزال النبي ﷺ عن كثير من مفاهيم بيئته وعقائدها، وخلوته في غار حراء - يدلان على أن الله ﷻ يهيئه ويعدُّه لتلقي الرسالة الكبرى، فإذا عُلِمَ من هذا أن اختلاء النبي ﷺ في غار حراء كان يسبق بداية نزول الوحي عليه، وأنَّ اللقاء الوحيد الذي جمع بين النبي ﷺ وورقة بن نوفل كان بعد نزول جبريل عليه السلام - فإن ذلك ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون لورقة أدنى تأثير في حبِّ النبي ﷺ للاختلاء والعزلة®.

خامسًا. لِم كان النبي ﷺ النبيَّ الخاتم من بين الأعضاء الثلاثة ؟!

إن العقل يقضي بأن المرء الذي يفتري على الله ﷻ؛ بأن يختلق دينًا جديدًا ويلفِّقه ويدعي أنه دين سماوي، ثم يواصل افتراءاته عليه ﷻ، فيؤلف لهذا الدين الجديد كتابًا يدعي أنه كتاب سماوي مُنزل من قِبَلِهِ ﷻ - إن هذا العقل يقضي بأن هذا المرء لا يتورع عن أن يؤثر نفسه دائمًا على الآخرين، ولو كانوا أولي قرباه، وأن يتصاعد هذا الإيثار إلى أبعد مدى. وترتيبًا على هذا فإننا نتوجه إلى مثيري هذه الشبهة بالتساؤلات الآتية:

إذا كان لورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - مشاركة فعَّالة في صنع نبوة محمد ﷺ، وإذا كان الثلاثة اتفقوا على تلفيق الإسلام والقرآن، فلماذا وقع الاختيار على محمد ﷺ دون العضوين الآخرين، مع أن لهما - كما يدعون - الأثرَ المباشر والأكثر فعالية في صنع نبوته ورسالته ﷺ؟! ولِمَ لَمْ يؤثِرْ أحدُهما نفسه بهذا الأمر العظيم؟! وإذا كان ورقة وقتها شيخًا كبيرًا أعمى، تقعد به آفة العمى، وتقعد به شيخوخته عن أن يقوم بأعباء الرسالة، فلماذا لم يختَرْ أحد أقاربه، فيخصَّه بهذا الأمر العظيم؟! وإذا كانت خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - شريكة في ذلك الأمر، فلماذا لم تنسب لنفسها ذلك الفضل كذلك، ألم تكن ذات وجاهة

---

1. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٦٤.

® في **"خلوة النبي ﷺ واعتزاله عادات قومه قبل البعثة وأسبابها"** طالع: الوجهين الأول والثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من هذا الجزء. وفي **"اعتزال النبي ﷺ وخلوته سنة الأنبياء قبله"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من هذا الجزء.

اجتماعية في قومها، وعندها من المال ما قد يساعدها في تحقيق ذلك؟!

الخلاصة:

- إن أول لقاء بين النبي ﷺ وورقة بن نوفل كان بعد نزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وإعلامه إياه بالنبوة، ولقد تمَّ هذا اللقاء بواسطة خديجة - رضي الله عنها - بوصفها ابنة عم ورقة، مما ينفي وجود أية صلة بين النبي ﷺ وورقة، ولم يتكرر هذا اللقاء مرة ثانية، بسبب موت ورقة، فهل يكفي لقاء واحد قصير في أن يصنع ورقة للنبي ﷺ نبوة، أو أن يؤلف له دينًا؟!

- من الثابت تاريخيًّا أن الوحي انقطع عن النبي ﷺ بعد تجربة الوحي المشهورة، والتي أُعْلِم فيها النبي ﷺ بالنبوة، ولا علاقة بين هذا الحدث، وبين وفاة ورقة؛ فما هذان الحدثان إلا حدثان تاريخيَّان ارتبطا ارتباطًا تزامنيًّا فحسب.

- إن السيدة خديجة - رضي الله عنها - بريئة كلَّ البراءة مما نَسَبَهُ إليها الطاعنون من مشاركتها في صنع نبوة زوجها ﷺ، وإذا كانت كما يقولون فَلِمَ صبرت عن صنيعها هذا طوال حياتها مع النبي ﷺ قبل أن يُبْعَث؟! ولِمَ لمْ تختصَّ أحد زوجيها اللذين تزوجتهما قبل النبي ﷺ بهذا الأمر العظيم، أمرِ النبوة والرسالة؟! ولِمَ لمَ تنقطع التعاليم التي جاء بها النبي ﷺ بعد وفاتها؟!

- إذا عُلِمَ أن اختلاء النبي ﷺ في غار حراء كان يسبق بداية نزول الوحي إليه، وأن اللقاء الوحيد الذي جمع بينه ﷺ وبين ورقة كان بعد نزول جبريل عليه السلام، تأكَّد نفي أن يكون لورقة أي تأثير في حبه ﷺ للاختلاء والعزلة.

- لو كان النبي ﷺ وورقة وخديجة شاركوا في تلفيق الدين الإسلامي ووضع نبوته ﷺ، فلِمَ كان ﷺ النبيَّ الخاتم، من دونهما؟! ولِمَ لم يُؤْثِر العضوان الآخران نفسيهما بهذا الأمر العظيم؟!

الشبهة السابعة

ادعاء أن سلمان الفارسي هو الذي علَّم النبي ﷺ القرآن (*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغالطين أن سلمان الفارسي بما كان عنده من علم بالعقائد والديانات التي تحوّل بينهما قبل أن يهتدي إلى الإسلام - هو من علَّم محمدًا ﷺ القرآن، وجملة ما جاء به في الشرع والعقيدة، وَزَعَمَهُ وحيًا يُوْحَى به إليه. وذلك ادِّعاء لا يقوم وحده، بل هو أحد المطاعن التي تطعن مجتمعة في نبوته ﷺ، وفي أن ما جاء به إنما هو وحيٌ إلهيٌّ.

وجها إبطال الشبهة:

١) قصة سلمان رضي الله عنه كما تثبتها المصادر التاريخية ليس فيها ما يؤيد هذا الادعاء.

٢) ليس في سيرة النبي ﷺ ولا فيما أُوحِي إليه من القرآن ما يصح دليلًا على أنه ﷺ تلقى دعوته عن بشر.

(*) شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. قصة سلمان الفارسي وما تُرْشِدُ إليه[1]:

إن الفرق بين التقوُّل الصرف والرأي العلمي في دراسة التاريخ هو ثبوت شاهد وجيه يشهد الدعوى فيرفعها إلى رتبة الاحتمال، فماذا قدَّم التاريخ عن سلمان وما قدَّمه إلى رسول الله ﷺ؟ وهل قَدَّم ما يسوِّغ أن نخرج بهذه النتيجة العسيرة، وهي أنه علَّم محمدًا ﷺ القرآن وجملة ما جاء به في دعوته؟

إن قصة سلمان - على ما تُثْبِتُها الروايات - يصح أن نميِّز فيها بين ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي ما يمكن أن نسميه بمرحلة التكوين؛ فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: حدثني سلمان الفارسي - من فِيْهِ - قال: كنت رجلًا فارسيًّا من أهل أصبهان، من أهل قرية يُقال لها: "جيّ"، وكان أبي دَهقان[2] قريته، وكنت أَحَبَّ خلق الله إليه، فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، حتى كنت قَطِنَ النار[3]، الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة.

وهذه الرواية تدل على أن سلمان كان مجوسيًّا على دين آبائه.

المرحلة الثانية: وهي ما يمكن أن نسميه بالمرحلة الانتقالية، فسلمان انتقل في هذه المرحلة من المجوسية إلى النصرانية، وفي رواية ابن عباس: "وكان أبي صاحب ضَيعَة، وكان له بناء يعالجه، فقال لي يومًا: يا بني، قد شغلني ما ترى فانطلق إلى الضيعة، ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بِهَمِّي بك. فخرجت لذلك فمررت بكنيسة النصارى، وهم يُصلُّون، فملت إليهم وأعجبني أمرهم، وقلت: هذا والله خير من ديننا، فأقمت عندهم حتى غابت الشمس، لا أنا أتيت الضيعة، ولا رجعت إليه، فاستبطأني وبعث رُسُلًا في طلبي، وقد قلت للنصارى حين أعجبني أمرهم: أين أَصْلُ هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى والدي. فقال: يا بني، قد بعثت إليك رسلًا، فقلت: مررت بقوم يُصلُّون بكنيسة فأعجبني ما رأيت من أمرهم، وعلمت أن دينهم خير من ديننا، فقال: يا بني، دينك ودين آبائك خير من دينهم، فقلت: كلا والله، فخافني وقيَّدني، فبعثت إلى النصارى وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم وسألتهم إعلامي من يريد الشام، ففعلوا؛ فألقيت الحديد من رجلي وخرجت معهم حتى أتيت الشام، فسألت عن عالمهم فقالوا: الأَسقُف، فأتيته وأخبرته، وقلت: أكون معك أخدمك وأُصلِّي معك. قال: أقم. فمكثت مع رجل سوء كان يأمرهم بالصدقة، فإذا أعطوه شيئًا أمسكه لنفسه، حتى جمع سبع قِلال[4] مملوءة ذهبًا ووَرِقًا[5]، فتُوُفِّي فأخبرتهم فزجروني، فدللتهم على ماله فصَلَبوه، ولم يغيبوه[6] ورجموه، وأجلسوا مكانه رجلًا فاضلًا في دينه، زُهْدًا ورغبةً في الآخرة وصلاحًا، فألقى الله حبه في قلبي،

---

١. انظر: عظمة الرسول والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، دار مكة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٨٨: ٩٣. محمد رسول الله، محمد رضا، مرجع سابق، ص٥٠: ٥٢.

٢. الدَّهقان: هو زعيم الفلاحين العَجَم، ورئيس الإقليم.

٣. قَطِن النار: خادمها.

٤. القِلال: جمع قُلَّة، وهي إناء مصنوع من الفخّار للشرب وغيره.

٥. الوَرِق: الفضة.

٦. يُغَيِّب: يُدفَن.

حتى حَضَرَته الوفاة فقلت: أوصني، فذكر رجلًا بالموصل، وكنا على أمر واحد، حتى هلك، فأتيت الموصل فلقيت الرجل، فأخبرته بخبري، وأن فلانًا أمرني بإتيانك، فقال: أقم، فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة، فقلت له: أوصني، فقال: ما أعرف أحدًا على ما نحن فيه إلا رجلًا بعَمُّورية[1]، فأخبرته فأمرني بالمقام وثاب لي شيئًا واتخذت غنيمة وبقرات، فحضرته الوفاة، فقلت: إلى من توصي بي؟ قال: لا أعلم أحدًا اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبي يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية، مهاجره بأرض ذات نخل وبه آيات وعلامات لا تخفى، بين مِنْكَبيه خاتم النبوة، يأكل الهديَّة ولا يأكل الصدقة"[2].

المرحلة الثالثة: مرحلة الوصول إلى الحقيقة، بعد أن علم سلمان بأمر النبي ﷺ وأوصافه من صاحبه شد سلمان رحيله إلى وادي القُرَى، ثم إلى المدينة، حتى لقي النبي ﷺ وعرفه بعلاماته وآمن به.

ويظهر من هذا السياق أن غاية الأمر أن شابًّا فارسيًّا نشأ على المجوسية، ثم تحول إلى النصرانية وظل عليها حتى هُدي إلى الإسلام وأتى النبي ﷺ ليأخذ عنه، فهل نحن واجدون فيما دعا إليه محمد ﷺ ما يشبه عقائد الفرس التي نشأ عليها سلمان؟ ذلك ما لا يظنه أحد، بل لا موضع لمثل هذا وقد تحوَّل سلمان نفسه عنها إلى النصرانية. فهل أُخذ الإسلام ـ إذن ـ عن النصرانية التي ظل عليها سلمان حِينًا؟ هذا ـ كسابقه ـ لاموضع له، فإن في الجزيرة من حول النبي ﷺ نصارى عرفوا دعوته وأتوا إليه ليجادلوه بمكة من قبل أن يعرف سلمان ورحلاته التي تقصها علينا الروايات.

على أن سلمان رضي الله عنه إنما أدرك النبي ﷺ بالمدينة بعد هجرته، فقد لقيه ـ إذن ـ بعد أن صَدَعَ[3] بدعوته، وأعلن عقيدته في الله عز وجل مرة واحدة في غير تدريج أو مهادنة، وبعد أن نزل عليه القرآن المكي كله وجانب من المدني وقسم من الشرائع والأحكام، فما هذا الذي جاء به سلمان وعلَّمه النبيَّ ﷺ؟

وقد تعلَّق بعض من يجتهدون في التفتيش عن شيء يأخذونه على الإسلام ورسوله بكلمة جاءت عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ هي قولها: "كان لسلمان مجلس من رسول الله بالليل حتى غلبنا على رسول الله ﷺ"[4]، فعلى فرض صحة هذه الرواية التي لم ترد في أيٍّ من كتب السنة فإن المتعلِّم هو سلمان رضي الله عنه وليس النبي ﷺ وهو الواضح من السياق؛ إذ كان هو الذي يقتطع الوقت من رسول الله ﷺ فهو المتعلم وهو ما يقتضيه المنطق، ويمتنع تمامًا على منصف مستقل الفكر أن يفهم من مثل هذا أن سلمان الذي سعى إلى النبيِّ ﷺ هذا السعي الصابر الطويل إنما كان يخلو به ليعلِّمه ما بقي برأسه من ديانات الفرس والنصارى، ذلك ما لا يبدر إلى ذهن قارئ ألبتة؛ فإن سلمان الذي تعلَّق قلبه بالحقيقة الدينية وسعى لها سعيها كان يلازم رسول الله ﷺ وتسكن إليه نفسه بعد تطوافه العسير، وهذا ما

---

1. عَمُّورية: بلد من بلاد الروم، فتحها المعتصم سنة ٢٢٣هـ.
2. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رفاعة بن شداد عن عمرو بن الحمق رضي الله عنه (٢٣٧٨٨)، والطبراني في المعجم الكبير، باب السين، سهيل بن حنظلة (٦٠٦٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٩٤).
3. صَدَعَ: جَهَر.
4. أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١٩٢).

تفيده العبارة لا ما تسبق إليه خواطر المحرِّفين، ولا شك أن إسلام سلمان ﷺ حجة قائمة على صدق ما جاء به محمد ﷺ من الوحي الإلهي بعد أن اطَّلع على علامات نبوته كما أخبره بها الرهبان، ثم إذا كان سلمان باحثًا عن الحقيقة، بذل فيها قصارَى جهده، ينتقل من هذا إلى ذاك من البشر العاديين كي يظفر بما ليس بعده شك ـ فماذا يفعل إن لقي من لا يقول إلا صدقًا، ومن هو متصل بالسماء، لا شك أنه سيلازمه ملازمة طويلة ماكثًا معه الساعات الطوال متعلِّمًا، وهذا ما كان يحدث، وعكسه قياس معكوس ومحض افتراء[1].

ثانيًا. لم يتلقَّ النبي علمًا عن أحد من البشر:

ليس هذا سياق القول في السيرة النبوية وخصائصها التي لم تتفق لداعية أو مصلح قط في التاريخ الإنساني بجملته، لكننا نبرز هنا سمة الوضوح في هذه السيرة، فإن المصنفات التي وضعها المسلمون في سيرة نبيِّهم ﷺ تتجاوز ميلاده نفسه إلى حيث تبدأ بآبائه وأجداده، ثم تتتبع حياته طورًا طورًا تسجل أفعاله وأقواله جميعًا حتي تنتهي بلحوقه بالرفيق الأعلى.

هذه الحياة التي تُقدَّم للناس بتفصيلاتها ودقائقها ليس فيها أن محمدًا ﷺ اختلف يومًا إلى معلم يأخذ عنه علمه، بل لا يعرف عنه أنه دخل في شيء مما كان قومه يتعاهدونه من فنون الشعر والنثر، ومكث على حاله هذه نحوًا من أربعين عامًا، فإذا هو يخرج على قومه بهذا القرآن الكريم.

ولقد كان القرآن معجزًا يوم نزل، أعجز قومًا كانت بضاعتهم من بين الأمم بضاعة القول البليغ، ولقد ظل يجود على المؤمنين بما يثبت قلوبهم من إخبار بغيب في الزمان أو المكان، وإخبار بما تكنه السرائر ويهجس في الخواطر والقلوب، ولقد مضى عليه اليوم ما يجاوز أربعة عشر قرنًا وإذا هو يُعْجز في تلميحاته العلمية، فيسبق بآياته ما بلغته الكشوف بعد عناء وطول بحث.

على أن ادعاء أن النبي ﷺ يعلمه بشر ادعاء قديم، ولقد ذكره القرآن غير مرة في آياته، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل). يقول الشيخ ابن عاشور في تفسير الآية: "وافتتاح الجملة بالتأكيد بلام القسم، وقد يشير إلى أن خاصة المشركين كانوا يقولون ذلك لعامتهم ولا يجهرون به بين المسلمين لأنه باطل مكشوف وأن الله أطلع المسلمين على ذلك، فقد كان بمكة غلام روميٌّ كان مولى لعامر بن الحضرمي اسمه "جبر" كان يصنع السيوف بمكة، ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثاله من عامة النصارى من دعوات الصلوات؛ فاتخذ زعماء المشركين من ذلك تمويهًا على العامة، فإن معظم أهل مكة كانوا أميين فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرفة أو يكتب حروفًا يتعلمها يحسبونه على علم، وكان النبي ﷺ لما جانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام، فقالت قريش: هذا يعلِّم محمدًا ما يقوله"[2].

---

1. انظر: اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٢٢٥ وما بعدها.
2. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، ج٧، ص٢٨٦.

فهذه - إذن - دعوى قد عرف مُرَوِّجوها أنها قول باطل مُفتَرى، وإنما يَبُثُّونها بين عامتهم من الأميين، وهي دعوى لا يزيدها مرور العصور والأجيال إلا بطلانًا وتهافتًا، وهذا الذي نناقشه هنا هو نفسه الذي أجاب عنه القرآن من قبل، فإن سلمان هذا أعجمي أيضًا كذلك الغلام القديم الذي تحدث عنه المشركون، فلنحتج اليوم بما قاله القرآن من قبل: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النحل)، ثم إننا لم نسمع في تاريخ المشركين أنهم زعموا هذا، وهم الذين بذلوا قصارى جهدهم في محاربة النبي ﷺ والقرآن، وقد تقوَّلوا في ذلك بأقصى ما بلغته عقولهم، فهل توصل إليه اليوم عمالقة الفكر من المستشرقين؟!!

وإذا كان سلمان الفارسي رضي الله عنه عنده مثل هذا العلم الغزير والحقائق التي ليس لها مثيل، فلماذا يؤثر بهذا محمدًا ﷺ وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة أو الكتابة؟! بل لماذا يؤثر بها أحدًا من العرب، وخاصة إذا علمنا أن الفرس كانوا ينظرون إلى العرب نظرة دونية، ويرون أنهم لا حَظّ لهم من الحضارة والرقي والعلم، ألم يكن من كمال السخرية منهم أن يتيهوا عليهم بمثل هذا الشرف العظيم؟!

الخلاصة:

- ليس في قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه ما يسوِّغ أن يكون دليلًا على أنه كان يعلم النبيَّ القرآن أو غيره من مبادئ الشرع والعقيدة، وذلك أنه إنما أدرك النبي ﷺ بعد الهجرة، وقد نزل القرآن المكي وجانب من المدني، وتحددت العقائد وقسم من الأحكام، بل - فوق هذا وذاك - إن الثقافة الدينية لسلمان على تقدير إحاطته بعقائد الفرس والنصرانية - لا يوجد لها أثرٌ فيما جاء به النبي ﷺ، بل قد جاء ﷺ بما يردُّ الأصول الاعتقادية الكبيرة في هذه الديانات.
- السيرة النبوية على وضوحها وبيانها ليس فيها أن النبي ﷺ كان يختلف إلى معلم يأخذ عنه، ومن ذا كان يملك حينذاك ما جاء به القرآن من وجوه الإعجاز، ولقد ساق المدَّعون تلك الدعوى نفسها التي ساقها المشركون قديمًا من أن محمدًا ﷺ، إنما يعلمه غلام أعجمي، ولقد أجابهم الله ﷻ بقوله: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾، وهو جوابنا الآن نفسه فإن سلمان رضي الله عنه إنما كان أعجميًّا كذلك.

الشبهة الثامنة

الزعم أن أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ كان منامًا، وكذلك رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام في الغار(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن ما كان من رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في الغار إنما كان رؤيا منامية، مستدلين على ذلك برواية لابن إسحاق تزعم أن أول ما نزل من القرآن كان منامًا. ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في أن الله ﷻ أوحى إلى محمد ﷺ، والذهاب إلى أن ما

(*) لكن محمدًا لا بواكي له، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق. فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم، مرجع سابق.

كان يراه إنما هو طيف يخايله فيظنه وحيًا ويحسب نفسه نبيًّا، وإنما هي رُؤًى اتفقت له بطول خلوته وانعزاله ﷺ في غار حراء.

وجها إبطال الشبهة:

١) الوحي أنواع مختلفة، منه ما يكون منامًا، ومنه ما يكون إلهامًا يلقيه الله في قلب نبيه، ومنه ما يكون تكليمًا من الله لنبيه بكلام يسمعه ويدرك معناه، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا أغلب أنواع الوحي لرسولنا محمد ﷺ، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (الشورى).

٢) إن تصوير الوحي بالحلم في النوم يخالف ما أجمع عليه المسلمون من أن رؤية النبي ﷺ لأمين الوحي جبريل عليه السلام في الغار كانت يقظة لا منامًا، أما رواية ابن إسحاق التي استدلوا بها، فتُحمل - إن صحت - على أن ما حدث في المنام كان قبل ذلك، توطئة لما حدث في اليقظة.

التفصيل:

أولا. صور الوحي المختلفة:

للوحي أنواع مختلفة: فمنه ما يكون منامًا، وذلك بأن يرى النبي ﷺ رؤيا في منامه، فتتحقق بعدُ في اليقظة كما رآها في نومه تمامًا، ومما يشهد لهذا ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء.." إلى أن قالت: "حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ.. إلى آخر الحديث"[1][2].

إن رؤيا الأنبياء حقٌّ، ولذلك فإن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بادر إلى ذبح ولده عندما رأى في المنام أنه يذبحه، وعدَّ هذه الرؤيا أمرًا إلهيًّا، قال تعالى في إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الصافات)[3].

فالرؤيا الصالحة كانت تمهيدًا للوحي وتقدمة للنبوة، تجعل الرسول في تهيئة نفسية لما ينتظره من الكرامة.

وهذه الرؤيا من الصدق والوضوح بحيث تتحقق في اليقظة، كما رآها في النوم، أو بحيث تعبر وتكون إعلام خير وبشائر هُدى.

وقد بدأت هذه المرحلة قُبيل لقاء غار حراء بستة أشهر، واستمرت بقية عمره الشريف، ولا نعرف نماذج من الرُّؤى قبل النبوة، ولكن جاء القرآن وجاءت السنة بنماذج من الرُّؤى التي وقعت بعد النبوة، منها على سبيل المثال: قال ﷻ: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٢. الوحي والقرآن الكريم، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٨.

٣. الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٥٨، ٥٩.

ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأنفال).

ففي غزوة بدر الكبرى واجه المسلمون المشركين في أول واقعة حربية حاسمة، وكان المشركون أضعاف عدد المسلمين، وقد وقعت رؤيا الرسول ﷺ خلال المعركة، شاهد فيها المشركين قلة قليلة، فأخبر أصحابه يومئذ قائلًا: "هذه مصارع القوم العشية".[1] وتلك بُشرَى إلهية حتى يشتدَّ العزم وتقوَى الإرادة ويزداد الإقدام[2].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بينا أنا نائم أُتيت بقَدَح لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الرِّيَّ يخرج من أظفاري، ثم أعطيت فَضلِي عمر". قالوا: فما أَوَّلته يا رسول الله؟ قال: "العلم"[3].

فهنا عبَّر الرسول رؤياه، وفسَّر اللبن بالعلم في كثرة الانتفاع بها، ويظهر من ذلك فضل عمر، فهو الفاروق الذي كان إسلامه فتحًا، وهجرته نصرًا، وخلافته رحمة[4].

هذه بعض الرُّؤَى التي كان يراها النبي ﷺ ثم تتحقق مثل فلق الصبح، وليس معنى ذلك أن الوحي كان رؤى منامية، ولكنَّه كان وحيًا إلهيًّا ينزل به جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، وكان الصحابة يحسُّون ذلك، ويرون علامات التغير على وجهه ﷺ.

ومن الوحي ما يكون إلهامًا يلقيه الله في قلب نبيه، فيجد من نفسه علمًا ضروريًّا بأن هذا من عند الله تعالى، وهذا هو المقصود بالنَّفث[5] في الرُّوع[6] الوارد في حديث رسول الله ﷺ: "إن الروح الأمين نَفَث في رُوعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي[7] رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب"[8].

ومنه ما يكون تكليمًا من الله لنبيه بكلام يسمعه ويدرك معناه، مع يقينه بأنه كلام الله وليس كلام أحد سواه، كما كلم الله موسى عليه السلام لما ذهب لميقات ربه الذي ضرب له أجلًا أربعين ليلة، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ويقول في آية أخرى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (النساء).

ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا أغلب أنواع الوحي لرسولنا محمد ﷺ ولغيره من

---

١. صحيح: أخرجه البزار في مسنده، مسند عمر بن الخطاب (٢٢٢)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الاستنصار عند اللقاء (١٠٤٤٢)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ٢٢٣).

٢. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٦٩، ١٧٠.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل العلم (٨٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر (٦٣٤١).

٤. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق، ص١٧٠، ١٧١.

٥. النَّفث: النَّفخ.

٦. الرُّوع: النَّفس.

٧. تستوفي: تستكمل.

٨. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩)، برقم (٣٤٣٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٩٩)، برقم (١٠٣٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦).

الرسل، والقرآن كله من هذا القبيل[1].

ثانيًا. رؤية النبي ﷺ لأمين الوحي جبريل عليه السلام في الغار كانت يقظة لا منامًا:

إن المقرَّر لدى المؤرخين للسيرة الطاهرة أن الوحي ابتدأ بخطاب جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في الغار، يقول د. محمد محمد أبو شهبة: "جاء في الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: "اقرأ"، قال: "ما أنا بقارئ"، قال: "فأخذني فغطَّني، حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾ (العلق)"، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: "زمِّلوني، زملوني"، حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ: "لقد خشيت على نفسي"، فقالت: خديجة: "كلا والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتَقرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق"[2].

وزاد ذلك وثوقًا ما رواه البخاري في نزول آية المدثر عن جابر عن رسول الله ﷺ قال: "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فقلت: زمِّلوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) ﴾ (المدثر)، فحَمِي الوحي[3] وتتابع"[4][5].

ولكن هناك رواية في سيرة ابن إسحاق تنص على أن أول خطاب بين جبريل عليه السلام والنبي محمد ﷺ كان برؤيا صادقة في المنام؛ ففي رواية ابن إسحاق عن عبيد بن عُمير مرسلًا: قال النبي ﷺ: "جاءني جبريل وأنا نائم بنَمَط[6] من دِيباج[7] فيه كتاب فقال: اقرأ... إلخ"، فظاهر هذا أنه كان منامًا"[8][9].

1. الوحي والقرآن الكريم، د. محمد حسين الذهبي، مرجع سابق، ص٨، ٩.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٦٥٨١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤٢٢).
٣. حمي الوحي: كثر نزوله وازداد.
٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٥).
٥. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مرجع سابق، ص٧٩.
٦. النَّمَط: نوع من البُسُط.
٧. الدِّيباج: نوع من الثياب مصنوع من حرير.
٨. صحيح: أخرجه محمد بن إسحاق الفاكهي في أخبار مكة، كتاب ذكر حراء وفضله، باب لم يكن من الخلق شيء أبغض إليَّ من شاعر (٢٣٥٤)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية.
٩. السيرة النبوية، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦١: ٢٦٤ بتصرف.

والمعوَّل عليه ما في الصحيحين، وأن ذلك كان في اليقظة لا في المنام، وإن ثبت ما ذكره ابن إسحاق فيكون ما حدث في المنام كان قبل ذلك توطئة لما حدث في اليقظة[1].

وهكذا ننتهي إلى حقيقة ثابتة مُتَّفِقة مع مجموع النقول، وتتلاقَى مع العقول، وهي أن الالتقاء بالروح القدس ابتدأ في المنام، ثم أَلِفَ محمد ﷺ الرؤيا المنامية الصادقة، ويظهر أنها في وضوحها وجلائها تشبه رؤية اليقظة؛ إذ كانت تجيء مثل فلق الصبح كما أخبرت أم المؤمنين عائشة، حتى إذا كان الأنس بروح القدس، وامتلاء النفس بالروحانية كانت المشاهدة في اليقظة؛ لأن ذلك مقام خطير عظيم، لا تَقوَى عليه النفوس إلا بعد أن تُصْقَل صقلًا روحيًّا[2].

ونحن لم نعرف أن شيئًا من القرآن نزل على الرسول ﷺ منامًا أو إلهامًا، أو تكليمًا من الله بغير واسطة، وكل ما عرفناه من ذلك هو أن رسول الله ﷺ كان - أحيانًا - يرى في منامه رؤيا فينزل بعدها قرآن يصدقها، كما ورد أنه ﷺ أغفى إغفاءة رأى فيها نهر الكوثر الذي أعده الله له في الجنة، ولما استيقظ نزل عليه قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ (الكوثر) إلى آخر السورة.

ومما يشهد لنزول القرآن كله بواسطة جبريل، قوله تعالى في صفة القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ (الشعراء)، وقوله ﷻ: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٠٢﴾ (النحل)[3].

أما عن كيفية مجيء الوحي، فيقول الرسول ﷺ: "أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجَرَس[4]، وهو أشده عليَّ، فيُفصَم[5] عني وقد وَعَيتُ ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا، فيكلمني فأعي ما يقول"[6][7].

فالوحي كان يأتي النبي ﷺ مثل صلصلة الجرس، وهذه الحالة هي أشد حالات الوحي، وقد جاء في الأحاديث الشريفة ما يشير إلى هذه الشدَّة، ويصف ما يعتري النبي ﷺ عندها، ففي حديث عائشة: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيُفصَم عنه وإن جبينه ليتفصَّد[8] عرقًا"[9].

كما أن الملك كان يأتي النبي ﷺ في صورة رجل، وقدرة الملك على التشكُّل بالصورة البشرية محل اتفاق أهل الأديان جميعًا، فلقد نزل الملائكة على إبراهيم

١. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٤.

٢. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٧١.

٣. الوحي والقرآن الكريم، د. محمد حسين الذهبي، مرجع سابق، ص٩.

٤. صَلْصَلة الجَرَس: المقصود به: الصوت الشديد.

٥. يُفصَم: يذهب.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب عرق النبي في البرد وحين يأتيه الوحي (٦٢٠٥).

٧. الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، مرجع سابق، ص٥٠.

٨. يتفصَّد: يسيل.

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٢).

الخليل عليه السلام ضيفًا مكرمين، وقدّم لهم عجلًا حنيذًا، ولم يعرف أنهم ملائكة إلا حين أفصحوا له عن حقيقة أمرهم، وأتى الملائكة لوطًا عليه السلام في صورة شباب، قال عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ (هود)، وبعث الله إلى مريم البتول جبريل عليه السلام في صورة بشر سَوِي يبشرها باصطفائها واصطفاء وليدها[1].

كما أن الرسول ﷺ رأى الملك في صورته الحقيقية، فبعد لقاء الغار الأول بين النبي ﷺ وجبريل عليه السلام انقطع الوحي فترة من الزمن، ثم انجلَى الموقف، وتراءى للرسول ﷺ جبريل عليه السلام في صورته الملائكية، ونزل عليه صدر سورة المدثر.

جاء عن النبي ﷺ أنه قال: "بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زمّلوني زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ (المدثر). فحمي الوحي وتتابع"[2].

فهل يبقى لأحد بعد كل هذه الحقائق مرية في أن رؤية النبي ﷺ لجبريل في الغار يقظة لا منامًا؟

الخلاصة:

- للوحي طرق مختلفة، منها: الرؤيا المنامية، والتعليم المباشر من الملائكة في صورتها البشرية، والتعليم بصوت من الملائكة في طبيعتها النورانية، وتعليم الملائكة في خفاء، والكلام من وراء حجاب، فالرؤيا المنامية إحدى هذه الصور المختلفة، وهذا ما حدث مع إبراهيم عليه السلام في رؤياه ذبح إسماعيل عليه السلام.
- رؤية النبي ﷺ لأمين الوحي جبريل عليه السلام في الغار كانت يقظة لا منامًا، فالملك كان يأتي النبي ﷺ مثل صلصلة الجرس، وأحيانًا يأتيه في صورته الملائكية، وأحيانًا أخرى كان يأتيه في صورة رجل، وتشكل الملائكة بالصورة البشرية محل اتفاق الأديان جميعًا.
- رواية ابن إسحاق التي استدل بها هؤلاء على أن الرؤية كانت منامًا تُحْمَل على أن هذا كان - في المنام - تهيئة لما سيحدث في اليقظة، ومن الثابت أن رؤيا الأنبياء حق.



الشبهة التاسعة

الزعم أن القرآن نابع من ذات النبي ﷺ ويمثل نفسيته وعقله (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن الوحي القرآني نابع من ذات النبي ﷺ، ويستدلون على ذلك بما يتوهمونه من استحالة تشكُّل جبريل بالصورة البشرية، وأن الوحي في مُجْمله تصوير نفسي لشخص النبي ﷺ وحياته بأفراحه وأحزانه وانفعالاته، كما أنه من استنباط عقله

---

1. النبوة المحمدية، د. محمد أحمد المسير، مرجع سابق، ص١٧٥ : ١٧٧ بتصرف.
2. المرجع السابق، ص١٨٦ بتصرف.

(*) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، مرجع سابق.

بما فيه من أفكار وآراء ومعلومات مُدَّخرة صدرت منه في حال انفعال شديد، وقد ساعدته على ذلك نفسٌ صافية هذَّبها بكثرة تحنُّثه في غار حراء. هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في قدرة المَلَك على التشكُّل في صورة تمكِّنه من تبليغ النبي ﷺ الوحي، وصولا إلى إثبات صدوره من نفس النبي وإثبات بشريته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الغرض الرئيس الذي يقف وراء كثرة خلوات الرسول ﷺ يتمثل في التأمل في صنع الله، بعيدًا عن المجتمع الجاهلي وما كان يحدث فيه من مساوئ ومنكرات، وليس في ذاك ما يُؤَهِّل لتأليف قرآن، ثم إنه لم يكن بدعًا من الرسل في ذلك التخلِّي عن المنكرات ولا ذاك التجنُّب للمعاصي.

٢) إن الحوار الأول الذي دار بين محمد ﷺ وجبريل عليه السلام: "اقرأ"، "ما أنا بقارئ" يدل على أن اللقاء كان بين ذاتين منفصلتين تمام الانفصال: ذات النبي ﷺ وذات جبريل عليه السلام.

٣) إن القرآن الكريم لا يعكس شخصية النبي ﷺ لا في أفراحه ولا في أحزانه ولا في انفعالاته، ولا حتى فيما يدور في خلده وعقله، وإذا كان الأمر كما زعموا ـ جدلًا ـ فلقد تُوُفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة في عام واحد؛ فلماذا لم توجد في القرآن إشارة إلى هذا الحدث مع عِظَمِ تأثيره في شخص النبي ﷺ ونفسيته؟!

٤) ليس كل ما في الوحي الإلهي ـ قرآنًا وسنة ـ مما يمكن أن يستنبطه العقل؛ بل فيه من الغيبيَّات وأخبار الأمم السابقة والحقائق العلمية ما لايمكن أن يدركه عَقْلُ بَشَرٍ بالغًا من الذكاء ما بلغ.

٥) إن قدرة الملك على التشكُّل بالصور البشرية محل اتفاق أهل الأديان جميعًا، وليس النبيُّ ﷺ بِدْعًا من الرسل في ذلك؛ بل هو ما حدث بالفعل مع سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط ـ عليهما السلام .

التفصيل:

أولا. لقد كانت كثرة خلوات الرسول ﷺ للتأمل في صنع الله بعيداً عن المجتمع الجاهلي وما فيه من مساوئ ومنكرات:

في البداية لا بد أن نشير إلى أن النبي ﷺ لم يكن بدعًا في هذا الصدد من الرسل وبعض الصديقين الذين اعتزلوا للتأمل في صنع الله بعيدًا عن مساوئ أقوامهم ومنكراتهم ومفاسدهم؛ فزكريا عليه السلام كان يعتزل قومه، ومريم الصِّدِّيقة كانت تعتزل قومها، وكل منهما أوتي في عزلته فضلًا وآيات من الله، زكريا بُشِّرَ في خلوته بيحيى بعد عقم، ومريم أنجبت رسول الله عيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ تلقَّى في تلك الخلوة مراسم الرسالة الخالدة، إنها خلوات كانت بتدبير من ذي الجلال والإكرام، وليست لطلب ملذات الدنيا، ولا الهروب من معاناة ظروف الحياة.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فإن المغرضين الحاقدين لا يعجبهم هذا؛ فقد سكتوا عن عزلتي زكريا ومريم، وتناولوا عزلة رسول الإسلام بالتشويه؛ لأنه رسول الإسلام، ويقيننا أن عزلة زكريا وعزلة مريم لو كانتا من وقائع السيرة الإسلامية لما سكتوا عنهما، ولقال المغالطون النصارى في عزلة مريم ما قاله اليهود فيها من قبل: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا (٢٧)﴾ (مريم)، ولطعنوا في نسب المسيح عيسى عليه السلام ورموا أمه

الطاهرة بالفحشاء: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ (الكهف)[1].

لقد كان رسول الله - قبل البعثة - يحب الانزواء عن قومه؛ لما كان يراهم عليه من عبادة الأصنام، فكان يخلو ﷺ بنفسه، وقوي عنده حب الخلوة للتفكر في آلاء الله بعد زواجه بخديجة، فكان يصعد إلى غار حراء شهرًا من كل عام يخلو فيه بنفسه ويعبد الله، وزاد عنده حب الخلوة أكثر لما قرب موعد البعثة.

يقول الخطّابي - رحمه الله - عن اختلاء النبي ﷺ في غار حراء: والخلوة يكون معها فراغ القلب وهي معينة على الفكر، ومقطع لدعاوى الشغل، والبشر لا ينفك عن طباعه ولا يترك مألوفه من عاداته إلا بالرياضة البليغة والمعالجة الشديدة، فلطف الله بنبيه محمد ﷺ في بداية أمره فحُبِّب إليه الخلوة وقطعه عن مخالطة البشر؛ ليتناسى المألوف من عاداتهم ويستمر على هجْران ما لا يحمد من أخلاقهم، وألزمه شعار التقوى وأقامه في مقام التعبد بين يديه ليخشع قلبه وتَلين عَرِيكته[2] لورود الوحي؛ فيجد منه مرادًا سهلًا، ولا يصادفه حَزْنًا[3]، فجعلت هذه الأسباب مقدمات لما أرصد له من هذا الشأن ليرتاض بها ويستعد لما نُدب إليه، ثم جاءه التوفيق والتبشير وأخذه بالقوة الإلهية، فجبرت منه النقائص البشرية وجمعت له الفضائل النبوية[4].

إن من يزور غار حراء يدرك ما معنى الخلوة فيه شهرًا كاملًا، إنها انقطاع عن الدنيا وعن الناس بما هم عليه من جشع وتكالب على الدنيا وانحراف في السلوك، ويدرك ما معنى التأمل في آلاء الله في ذلك المكان المرتفع حيث الهدوء التام، والإشراف على الأودية والجبال، والإطلال عن بعد على الكعبة المشرفة، إن التأمل فيه لا يعني سوى السمو بالروح وتطهير النفس من أدرانها، استعدادًا لحمل الرسالة الخالدة، هدية السماء للأرض[5].

ثم إن قريشًا كانت تفعل ذلك، كما كانت تصوم عاشوراء، وإنما لم ينازعوا النبي ﷺ في غار حراء مع مزيد الفضل فيه على غيره؛ إذ إن المقيم فيه يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة والتعبد والنظر إلى البيت؛ لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه، فتابعه على ذلك من كان يتألّه[6]، فكان النبي ﷺ يخلو مكان جده، فسلم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم[7].

فإذا كان هذا حال بعض الناس قبله، فلماذا لم يخرجوا إلينا بمثل ما جاء به النبي ﷺ من القرآن الكريم؟!! إن هذه فرية ليس لها دليل تستند عليه®.

---

١. افتراءات المستشرقين على الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص٧، ٨ بتصرف يسير.
٢. العَرِيكة: النفس والطبيعة.
٣. الحَزْن: من الرجال من خشُنت معاملته.
٤. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٣١٩.

٥. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٩٩، ١٠٠.
٦. يتألّه: يتعبّد.
٧. سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، مرجع سابق، ج٢ ص٣١٩، ٣٢٠.
® في **"خلوة النبي ﷺ واعتزاله عادات قومه"** طالع: الوجهين الأول والثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الرابع، من الشبهة السادسة، من هذا الجزء.

ثانيًا. الحوار الأول بين محمد ﷺ وجبريل عليه السلام: " اقرأ "، " ما أنا بقارئ " يدل على أن اللقاء كان بين ذاتين منفصلتين تمام الانفصال: ذات النبي ﷺ وذات جبريل عليه السلام:

في البداية يجب أن ننبه إلى أن وقوع الوحي لجميع الأنبياء - عليهم السلام - ومنهم نبينا ﷺ - أمر ثابت، وليس في الوحي ما يخالف العقل أو المنطق، بل وقوعه جائز عقلًا، لاستحالة تلقي البشر التشريعات الإلهية عنه عز وجل دون واسطة، فلا بد من وجود واسطة، وهو ملَك مقرب ينزل بالتشريعات من عند الله على من يصطفيه من خلقه. فإن سلمتم بهذا فلا بد أن تسلِّموا بنزوله على سيدنا محمد ﷺ وجميع الأنبياء قبله، ويلزم من ذلك التسليم بكل ما جاء به، وإلا للزم التشكيك في نزول الوحي على جميع الرسل والأنبياء السابقين، وأن ما جاءوا به هرطقات وخرافات وحيل نفسية واعتقادية لا دخل للوحي فيها، وهكذا نجد أن ظاهرة الوحي معروفة لدى أتباع الأديان الثلاثة، كما أنه من المعروف أيضًا أن النبوة والوحي ظاهرتان متلازمتان[1].

لقد بيَّن الله عز وجل أن الوحي أمر خارج عن نفس النبي ﷺ وليس نابعًا من داخلها، بل حمله جبريل عليه السلام من عند الله إليه، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ (الشعراء).

فحامل الوحي ملك منفصل عن ذات محمد ﷺ، ليس خيالًا فيها، وله من الصفات ما بيَّنها الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (٢٥) ﴾ (التكوير)[2].

يقول الأستاذ ابن نبي مبيِّنًا استقلال ظاهرة الوحي عن نفس النبي ﷺ: "ومن الواجب أن نذكر مدى التباعد الرئيس البيِّن في الحوار بين الذات المتكلمة الآمرة الحازمة، والذات المخاطَبة المضطربة المجفلة - "ما أنا بقارئ" مثال على الإجفال[3] - إن هذا التباعد يصوِّر لنا عملية نفسية أخرى مختلفة تمامًا عن الأولى، ولكنها متحدة معها في الزمن، إن هاتين الحالتين - أي التباعد الجوهري والاتحاد الزمني - متعارضتان سواء تصورناهما في مجال واحد للذات، أم في مجالين مختلفين: الشعور واللاشعور، فهناك بالضرورة تعدد في الذوات، وهو تعدد لا يمكن أن تضمه وحدة نفسية، فنحن مضطرون لهذا أن نقرر ازدواج الذات كما يحدث في أي حوار عاديٍّ، وبين هاتين الذاتين اللتين تتحاوران تنجلي الذات المحمدية كشاهد واعٍ ومؤرخ صادق للواقع الذي نحلله".

ومن المعروف أن الاستقلال بين هاتين الذاتين قد تجاوز لحظة الوحي، فكان حقيقة مصاحبة لنزول القرآن أي مدة ثلاث وعشرين سنة كاملة، ومن ملامح ذلك نزول آيات كثيرة تلوم النبي ﷺ على بعض

---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص١٧٤ بتصرف.

٢. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٠٦.

٣. الإجفال: الفزع والانزعاج.

المواقف الدعوية أو الشخصية التي وقفها، وهذا يؤكد عدم تحكمه في محتوى الوحي أو في زمانه، ومن أمثلته ما حدث حين حدد النبي ﷺ للمشركين وقتًا لإجابتهم عن سؤالهم وسؤال اليهود عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فتأخر نزول الوحي حتى تأثر النبي لذلك، ورجا نزول القرآن.

ثم نزلت الإجابة وفيها تعليم وعتاب له، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف). ونزل في هذه الحادثة قوله ﷺ الذي يؤكد ما ذهبنا إليه قبل قليل: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ (مريم) واستنادًا إلى مثل هذه المعلومات اليقينية، تأكد استمرار الانفصال بين الوحي والنبي ﷺ حتى نهاية رسالته.

ويواصل الأستاذ ابن نبي حديثه قائلًا: "وسنجد فيما بعد وإلى النهاية أن الذات المحمدية لن تتحدث مع الذات المتكلمة حين تخاطبها، وهذا الصمت في ذاته جدير بالملاحظة؛ لأنه يسجل إدراك الرسول ﷺ النهائي أمام الظاهرة التي سيقف منها منذ ذلك الحين موقف التسليم"[1].

وهناك دليل آخر على انفصال الذاتين وهو أن القرآن في نظمه البديع لو كان من عند محمد ﷺ لما جاء في أعلى درجات البلاغة والسمو، والوحي يفاجئه وهو بين قومه، فإذا فارقه جبريل تلا عليهم ما تلقاه، فكيف يمكن في هذه اللحظات أن يخلو إلى نفسه لينمّق نوعًا من الكلام يدَّعي أنه وحي من الله، وقد حدث مثل ذلك في المرأة التي جادلته في شأن زوجها الذي ظاهر منها، فإن الحوار بينه وبينها لم يكد ينتهي حتى جاء الوحي من الله مقررًا الحكم في هذه المسألة: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١)، فهل كانت له خلوة مع نفسه جوَّد فيها هذا الكلام، مع أن عائشة كانت تمشِّط رأسه، وهو يتلقى هذا الوحي[2]؟!

ثالثًا. القرآن الكريم لا يعكس شخصية الرسول ﷺ:

إن القرآن الكريم لا يعكس شخصية النبي ﷺ لا في أفراحه ولا في أحزانه ولا في انفعالاته، ولا حتى ما يدور في خلده وعقله؛ فلقد توفي عمه أبو طالب وزوجته خديجة في عام واحد، وحزن عليهما حزنًا شديدًا حتى سُمِّي ذلك العام بعام الحزن، فهل يوجد في القرآن أي إشارة لكل هذا؟ فلو كان القرآن ـ كما يزعمون ـ نابعًا من ذاته ﷺ لظهرت تلك المشاعر فيه.

ثم إن القرآن في بعض المواقف كان يخالف رأي الرسول ﷺ بل كان يعاتبه ويلومه على أفعاله، كعتابه في موقفه من الرجل الأعمى: عبد الله بن أمِّ مكتوم، قال ﷻ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (عبس).

وكعتابه له في مسألة أسرى بدر قال ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

---

١. نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٤٧١، ٤٧٢.

٢. المصطفون الأخيار، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ص١٢٥، ١٢٦.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنفال).

وكعتاب الله ﷻ له ﷺ في مسألة الإذن للمنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، قال ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (التوبة).

فلو كان القرآن الكريم نابعًا من ذاته ﷺ لما ظهر فيه مثل ذلك العتاب على تلك التصرفات؛ لأن طبع البشر أن يخفوا أخطاءهم وتقصيرهم، ولا يذكروها في مؤلفاتهم، وبهذا يظهر أن القرآن الكريم ليس من صنعه وإنما هو خارج عن ذاته ﷺ.

ومما يؤكد أن القرآن لا يعكس شخصية رسول الله ﷺ أنه في أكثر الأوقات لا يذكر شيئًا عنه ويتجرد تمامًا من الإشارة إليه، وعندما يورد شيئًا عنه فلكي يحكم عليه أو يضبط سلوكه أو يسيطر عليه، وفيما يتعلق بأفراحه وأحزانه نعلم كم كان حزنه لوفاة أبنائه وأصدقائه، فهل نجد في القرآن أقلَّ صدًى لهذا؟

ولكن بمجرد أن يتعلَّق الموضوع بسلوك أخلاقي نرى التعارض جليًّا بين السلطة التشريعية والنفس الخاضعة المستسلمة كما يتعارض التشدُّد مع التساهل، والصراحة القصوى مع الحياد.

وليس أدل على أن القرآن ليس من عند محمد ﷺ من اشتداد حاجة الرسول إلى شيء منه، فلا يجده إلا بعد مدة من الزمن، فقد كان ﷺ تمرُّ به بعض المواقف المحرجة يحتاج فيها إلى القرآن لحسم الموقف فلا يجد، مثال ذلك ما حلَّ به ﷺ من الضيق والحرج عندما رماه المنافقون في أهل بيته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلم يستطع ﷺ أن يفعل شيئًا حتى جاءه الوحي ببراءة أهله، وقطع بذلك ألسنة المروِّجين والخائضين، فلو كان القرآن من عنده لأعلن منذ اللحظة الأولى براءتها وحسم الموقف[1].

وبهذا يتبين لنا أن القرآن هو كلام الله المعجز المنزَّل على سيدنا محمد ﷺ وأنه ليس أفكارًا مدَّخرة في عقله ﷺ صدرت عنه في حالة انفعاله كما يزعمون.

رابعًا. ليس كل ما في الوحي الإلهي (قرآنًا وسنة) مما يمكن أن يستنبطه العقل، أو مما يدركه الوجدان والشعور:

إن في الوحي جانبًا كبيرًا من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقي والتعليم أو المعاصرة.

ومن هذه الجوانب، ما جاء في الكتاب والسنة من أنباء ما قد سبق، وما فصَّلاه من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع.

أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه ـ أيضًا ـ بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أو يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون: إن محمدًا قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقَّل فيها قرنًا قرنًا، فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان، أو أنه ورث كتب الأولين، فعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟

إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك؛ لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه ﷺ لم يكن من أولئك ولا

1. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٤٩٧، ٤٩٨ بتصرف.

هؤلاء، قال ﷻ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ (هود). وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ (العنكبوت).

فسيدنا محمد ﷺ كان رجلًا أميًّا، نشأ بين قوم أميين أربعين سنة من عمره، لم تظهر عليه فيها أمارات من علوم ومعارف تقارب ما جاء به القرآن والسنة، ثم يطلع علينا بين عشية وضحاها، فيكلمنا بما لا عهد له به، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في كتبهم وحجبوه عن الناس، أفي مثل هذا يقول مثيرو الشبهة: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره[1]؟

ولنتأمل قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ ومبينًا هذه الحقيقة: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ (آل عمران)، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ (يوسف)، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ (القصص)، وقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ (يوسف).

لا نقول: إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية، وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد، وثمود، وطوفان نوح، وأشباه ذلك ـ لم يصل قط إلى الأميين، فإن هذه النتف اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر؛ لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة، والكنوز المدفونة في بطون الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين، ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن.

حتى الأرقام.. طبِّق الأرقام: فترى مثلًا في قصة نوح ﷺ في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين، قال ﷻ: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) ﴾ (الكهف)، وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية.

أفي مثل هذا يقول هؤلاء: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوِّغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سرٌّ آخر يُلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة، وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلًا لهذه الظاهرة، وأقرب فهمًا لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٠٥، ٣٠٦.

هؤلاء: إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لا بد أن تكون قد أُمْليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة، فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلَّم ما لم يكن يعلم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ﴾ (الأنعام: ١٠٥) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (الفرقان).

ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين جبريل عليه السلام، واكتتبها، ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (يونس).

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها[1].

أما عن الحقائق الدينية الغيبية فقد يقال: إنها من نوع ما يدرك بالعقل، فيمكن أن ينالها الذكي بالفراسة أو بالروية، وهذا كلام قد يلوح حقًّا في بادئ الأمر، وسرعان ما ينهار أمام الاختبار، يقول د. محمد عبد الله دراز مفصلًا لهذا الجانب: فأما أمر الدين فإنَّ غاية ما يجتنبه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبَّره، وأنه لم يخلقه باطلًا، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة، فلا بد أن يعيده كرَّة أخرى، لينال كل عامل جزاء عمله، إن خيرًا وإن شرًّا، هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة، بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنها رأي عين، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب، وعدة الملائكة الموكَّلة بتلك الأبواب، فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومة الحسابية وتلك الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل ألبتة، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين، وإما حق فلا يُنال إلا بالتعليم والتلقين، لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنه أهلها، يقول ﷺ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ (المدثر: ٣١)، ويقول الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى: ٥٢)، ويقول ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (يونس).

ويتطرق د. محمد عبد الله دراز إلى الحديث عن أنباء المستقبل، موضحًا أنه لا سبيل إلى اليقين فيها إلا بالوحي الصادق قائلًا: أما النبوءات الغيبية فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحًا يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، جاعلًا الشاهد من هذه مقياسًا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمه محاطًا بكلّ تحفُّظ وحذر، قائلًا: "ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث

---

١. النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٩، ٢٠٠٥م، ص٦٦، ٦٧ بتصرف يسير.

لو سارت الأمور على طبيعتها، ولم يقع ما ليس في الحسبان". أما أن يبتَّ الحكم بتًّا ويحدده تحديدًا حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية - فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين: إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه: صدق أو كذب، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرَّافين والمنجمين، وإما رجل اتخذ عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده، وتلك هي سنة الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلًا رَوَى أخباره عن واحد منهما.

فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام، وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبد الدهر، وما لن يكون أبد الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطًا من الصدق والكذب، والصواب والخطأ، بل كانت مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه، يجيئه عفوًا ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفًا مما ينبئ به، يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ (٤١) لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (٤٢) ﴾ (فصلت).

إنَّ العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحد محدود تقف عنده ولا تتجاوزه، فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركوزًا في غريزة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصِّل إلى ذلك المجهول، إما بسرعة كما في الحدس، وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناله يد العقل بحال، وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عمَّن جاءه ذلك الإلهام[1].

وبعد هذا البيان الشافي لا يسعنا - ولا يسع أي منصف - إلا التسليم بأنَّ ما جاء به محمد ﷺ من قرآن كريم هو وحي من الله ﷻ، نزل به جبريل الأمين على قلبه ﷺ لينذر قومًا ما أتاهم من نذير من قبله؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

خامسًا. إن قدرة الملك على التشكُّل بالصورة البشرية محل اتفاق أهل الأديان جميعًا:

لقد نزل الملائكة على إبراهيم ﵇ ضيفًا مكرمين وقدم إبراهيم ﵇ لهم عجلًا حنيذًا[2] ولم يعرف أنهم ملائكة إلا حين أفصحوا له عن حقيقة أمرهم، قال ﷻ: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٤) إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ (٢٧) فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (٢٨) ﴾ (الذاريات).

وأتت الملائكة لوطًا في صورة شباب بهي الطلعة جميل المنظر، قال ﷻ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ (٧٧) وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ

١. المرجع السابق، ص٦٨: ٧٠ بتصرف يسير.
٢. الحنيذ: المشوي.

﴿ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ (هود).

وبعث الله إلى مريم البتول جبريل عليه السلام في صورة بشر سوي يبشرها باصطفائها واصطفاء وليدها، قال الله عز وجل: ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ (مريم).

وانطلاقًا من هذه الحقيقة كان جبريل عليه السلام يتنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في صورة رجل، وقد أخرج البخاري في صحيحه "وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول"[١].

وجاء في السنة الصحيحة أن هذا الرجل اتخذ أكثر من شكل:

١. فتارة يأتي على صورة أحسن الناس وجهًا، وأطيبهم ريحًا ولا يعرفه أحد من الصحابة، ففي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه"[٢].. إلى آخر هذا الحديث.

وقد أتى جبريل على هذه الصورة ليخفى عن الناس في بادئ الأمر، ويتطلعوا إليه في شغف، ويتأملوه في تعجب؛ كي تَقْوَى ملكتهم في تتبع أسئلته وحفظ الجواب عنها؛ ولأن القضية قضية تعليم لهم وبيان، فاتخذت هذا الشكل من الحوار، لفتًا للأنظار وترسيخًا لحقائق الإيمان.

٢. وتارة يأتي جبريل عليه السلام في صورة بشرية، ويؤم النبي صلى الله عليه وسلم عند الكعبة ويعلمه الصلاة ويبين له أوقاتها بدءًا ونهاية، وذلك في غداة الليلة المباركة التي وقع فيها الإسراء والمعراج، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "نزل جبريل عليه السلام فأمَّني فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه"، يحسب بأصابعه خمس مرات[٣].

٣. وأحيانًا يأتي الملك على صورة أحد الصحابة، وهو دِحيَة الكلبي رضي الله عنه، كان من كبار الصحابة، وشهد أُحُدًا وما بعدها، وأُعْطِي شطرًا كبيرًا من الحسن؛ قال ابن حجر: وكان جبريل عليه السلام ينزل على صورته؛ أي: دحية الكلبي، جاء ذلك من حديث أم سلمة، ومن حديث عائشة، وعن يحيى بن معمر عن ابن عمر رضي الله عنهما: "كان جبريل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي"[٤].

وفي أحاديث الإسراء ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عُرِض عليَّ الأنبياء، فإذا موسى ضَرْب[٥] من الرجال، كأنه من رجال شَنُوءة، ورأيت عيسى ابن مريم، فإذا أقرب من

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب عرق النبي في البرد وحين يأتيه الوحي (٦٢٠٥).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة (١٠٢).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب أوقات الصلوات الخمس (١٤١٠).

٤. صحيح: أخرجه ابن راهويه في مسنده، ما يروى عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه (١٦٥)، والنسائي في سننه، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام (٤٩٩١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٤٩٩١).

٥. ضَرْب من الرجال: وسط لا ناحل ولا غليظ مكتنز اللحم.

رأيت به شبهًا عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا صاحبكم - يعني نفسه - ورأيت جبريل، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا دِحية"[1].

وهذا التشكُّل من الملك بصورة الإنسان لا يعني بحال من الأحوال أنه انقلب عن طبيعته وخرج عن فطرته، ولا يعني أيضًا أنه صار له بدنان أو جسمان، ولا علاقة له بتنقل الأرواح في الأجساد.

والفرق بين صورة الوحي في صلصة الجرس وصورة الوحي في تشكل الملك بصورة البشر راجع إلى ضرورة المناسبة بين الملك والرسول بإيجاد العامل المشترك الذي يجمع بينهما؛ حتى يمكن التلقي والتعليم والوعي، ويكون ذلك إما بتقارب الرسول من الملك أو بتقارب الملك من الرسول، والحال الأولى هي الصلصة بحيث تغلب الأوضاع الروحية، وتعلو فوق المدارك الإنسانية، وينخلع الرسول من صورته البشرية في الوعي والإدراك، وهذا الوضع يجعل الرسول في شدة وتكلُّف ومجاهدة، والحال الثانية: هي تشكُّل الملك بصورة البشر، ويظل الرسول في مداركه الإنسانية المعتادة، فيسهل التلقي والحوار[2].

الخلاصة:

- كان النبي ﷺ يختلي بنفسه في غار حراء؛ ليتأمل في صنع الله ﷻ بعيدًا عما يعيشه قومه من فساد في العقيدة وفساد في الأخلاق، وتدهور في الحالة الاجتماعية، ثم إنه لم يكن بدعًا من الرسل في ذلك، فقد كان سيدنا زكريا عليه السلام يعتزل قومه ليتجنب مساوئهم، وكان سيدنا إبراهيم يعتزل قومه ليتأمل في خلق السماوات والأرض؛ حتى يتوصل إلى وحدانية الله ﷻ.
- إن الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وبين جبريل عليه السلام: "اقرأ"، "ما أنا بقارئ" يدل دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ قد تلقى الوحي عن ذات منفصلة أخرى تتمثل في جبريل عليه السلام؛ لذلك ارتجف فؤاد النبي ﷺ وارتعد وعاد إلى خديجة - رضي الله عنها - مذعورًا مما حدث له في الغار.
- القرآن الكريم لا يعكس بأي شكل من الأشكال شخصية النبي ﷺ، سواء في أفراحه أم في أحزانه، أم فيما مرَّ به من ظروف وأحوال، إذ توفي في عام واحد أبو طالب المدافع الأول عنه وعن دعوته، وخديجة - رضي الله عنها - التي كانت تواسيه بنفسها وما لها، ولم يظهر لذلك أثر في القرآن الكريم، فلو كان القرآن من تأليفه لرصد كل هذه الأحداث في كتابه كما يفعل الكُتَّاب والأدباء.
- ليس كل ما في الوحي المنزل على النبي ﷺ مما يستنبطه عقل الإنسان، ولا مما يدركه شعوره ووجدانه؛ لأنه رصد أشياء ما كانت تخطر ببال أحد من البشر في ذلك الوقت، كذلك هناك أمور غيبية لا يستطيع بشر التوصل إليها كالإخبار عن الملائكة والجنة والنار والنعيم والعذاب وكثير من أمور الغيب التي آمنا بها ولم نرها.
- إن قدرة الله ﷻ التي تمكِّن الملك من التشكل بالصورة البشرية محل اتفاق جميع أهل الأديان؛ إذ جاءت الملائكة سيدنا إبراهيم عليه السلام في صورة بشر وقدم لهم عجلًا حنيذًا، ولم يعرف أنهم ملائكة إلا عندما

---

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٤١).
2. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق، ص١٧٧: ١٨٤ بتصرف يسير.

أخبروه بذلك وبشروه بولده إسحاق، وكذلك جاءت الملائكة لسيدنا لوط ﷺ، وكان يظنهم بشرًا ممن كرمهم الله لولا أن أخبروه بذلك، وكذلك جاء جبريل ﷺ إلى السيدة مريم ليبشرها بسيدنا المسيح عيسى ﷺ، فكيف ينكرون إذن رؤية النبي ﷺ دون غيره من الرسل لسيدنا جبريل ﷺ على هيئته البشرية؟!

- إن الوحي المنزَّل على النبي ﷺ حقيقة لا جدال ولا مراء فيها، وهذا اصطفاء من الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ كما اصطفى غيره من الرسل قبله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ (الشورى).

الشبهة العاشرة

ادِّعاء أن ما كان يَعْتري النبي ﷺ أثناء تلقِّيه الوحي محض حالات مصطنعة من افتعاله ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المغرضين أن الحالات التي كانت تبدو على النبي ﷺ حال تلقيه الوحي من إصابته بالرِّعْدَة[1] وسماع غَطيط[2] له - هي حالات مُفتعلة؛ إذ إن هذه الحالات قد وُظِّفت لإضفاء أكبر قدر من القدسية على العلاقة بين الوحي والرسول ﷺ، كما أنها كانت ذات بُعد سياسي جعلها المدخل الأعظم في تشكيل دولة الإسلام المُعْتَمِدة على القرآن. هادفين من وراء ذلك إلى وَصْمه ﷺ بالافتعال والتصنُّع؛ ليوهم صحابته أن وحيًا من عند الله يتنزَّل عليه، وبذلك يتسنَّى لهم القول ببشرية القرآن.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الوحي المحمدي حدث إلزامي فجائي طارئ لا يمكن إحضاره أو اصطناعه، ولا يمكن دفعه، أو وصفه بالافتعال كما يدَّعي هؤلاء.

٢) ما حدث للنبي ﷺ من أمور أثناء تلقيه الوحي كان نتيجة الشدة التي تعرَّض لها ﷺ من ثقل الوحي، وذلك بشهادة القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (المزمل).

التفصيل:

أولا. إن الوحي المحمدي هو حدث إلزامي فجائي طارئ لا يمكن إحضاره أو افتعاله، ومن ثم لا يمكن دفعه أو رده، أو وصفه بالاصطناع وغيره:

دعونا نسأل بادئ ذي بَدْء: أيُّ شيء كان يدعو النبي ﷺ أن يصطنع؟! هل كان ﷺ محتاجًا إلى شاهد على صدقه؟! هل كان في كلامه الذي يتلقاه من ربه عن طريق الوحي مخالفةٌ للعقل أو الفطرة السليمة فلجأ إلى الافتعال حتى يصدقه الناس في أمر الوحي؟!

إن النبي ﷺ لم يكن في حاجة إلى الاصطناع حتى يؤكد للناس صدقه؛ فقد ثبت صدقه وشهد له الأعداء بذلك، فكان يُنعت بين قومه بـ "الصادق الأمين"، وهم لم يُجرِّبوا عليه كذبًا، فقد رُوي أنه ﷺ نادَى بطون قريش وعشائرهم وقال فيهم: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغِير عليكم، أكنتم مُصدِّقِيَّ"؟ قالوا:

(*) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، مرجع سابق.

١. الرِّعدة: اضطراب الجسم من فزع أو حُمَّى أو غير ذلك.

٢. الغطيط: صوت تردد النفس في الخياشيم.

نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا[1].

ولم يكن في كلامه ﷺ شيء يخالف العقل، فكلُّ آيات القرآن تخاطب العقل وتدعو إلى العلم، فالله تعالى حين يحاور الكافرين يفحمهم بالأدلة العقلية التي لا تدع مجالًا للشك أو التكذيب.

وهذه الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ نزلت بالعلم ودعت إليه، ويكفي أن أول أمر نزل من القرآن هو: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ (العلق).

فالنبي ﷺ لم يكن في حاجة إلى الاصطناع؛ فرسالته شاهدة على نفسها ولا تحتاج إلى اصطناع أو افتعال لبيان صدقها، وأنت لا تحتاج في إثبات ذلك إلا إلى أن تقرأ آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ قراءة عقلية واعية، فستجد كلَّ آية تكاد تنطق أنها من عند الله.

إن ما حدث له ﷺ من نزول الوحي إليه لم يكن بتدخله الشخصي حتى نقول إنها أحداث مصطنعة منه ﷺ، قدمها لإضفاء أكبر قدر من القدسية والرهبنة على العلاقة بينه وبين الوحي.

ومن أوضح الأدلة على ذلك ما يعتريه من أعراض جسدية لا سيطرة له عليها أثناء تلقيه الوحي، كاحمرار وجهه، وتتابع أنفاسه، وسماع غطيط منه، وما يتقاطر منه من عرق في اليوم الشديد البرد، وثقل جسمه، وما يسمعه الصحابة عند وجهه من صوت كدوي[2] النحل، كل هذه الأشياء لم تكن بتدخله الشخصي، ولا يستطيع أي إنسان أن يفعلها من نفسه، وليس في مقدور النبي ﷺ أن يدفع الوحي.

ومما يدل على ذلك أيضًا، ما انتابه ﷺ من أحوال نفسية تمثلت في خوفه من ملك الوحي - جبريل عليه السلام - في مبدأ أمره، كما جاء في قوله ﷺ: "لقد خشيت على نفسي"، وقوله: "زمِّلوني زملوني"، حتى ذهب عنه الرَّوع[3]. وفي رواية قال: "فإذا الذي جاءني بحراء جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، فجُئِثْتُ[4] منه رعبًا"[5].

وهذه الأعراض والشدائد لم تكن تعتريه ﷺ إلا في أوقات وجيزة، ولحظات متقطعة، وذلك عند نزول الوحي عليه.

والدليل على أنه ﷺ لا قدرة له على إحضار الوحي وجلبه، فتور الوحي، وانقطاعه عنه مدة من الزمن حتى شق ذلك عليه وأحزنه، وأقضَّ مضجعه، ثم جاءه جبريل بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ (الضحى).

ومن ذلك ما روي من أن جبريل عليه السلام أبطأ في النزول على رسول الله ﷺ ثم نزل فقال: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الشعراء، قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٥٢٩).

٢. الدَّويُّ: الصوت ليس بالعالي.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوحي، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٤. جُئِثْتُ: فُزِعْتُ.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٥).

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ (مريم).

ومن ذلك أيضًا فترة الوحي في قصة الإفك[1]، فلو كان بيده ﷺ كما يزعم المغرضون أن يفتعل الوحي أو يتمثله لإضفاء شيء من القدسية، لنزلت التبرئة منذ اللحظة الأولى لتدل على قوته ﷺ وقدسيته وقدسية بيته، ولكن هذا كله لم يحدث ليدلل على أن أمر الوحي من عند الله ﷻ وحده، وأن الأحداث التي كانت تعتريه هي من أثر الوحي، ولا دخل له ﷺ فيها.

كما أن تلقي الوحي ليس أمرًا كسبيًّا يناله المرء بسعيه وكسبه، ولا يخضع لجهد فكري، أو ترقٍّ روحي وأخلاقي، ولا يُنَال بالقيم الدنيوية، ولا الاعتبارات المادية، فليس بابًا مفتوحًا يلج من خلاله مَنْ سَمَتْ نفسُه، أو عظُم إشراقُه، بل هو اصطفاء إلهي يختص به الله من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، وقال الله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (البقرة)، قد حكى الله تعالى عن المشركين أنهم قالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزخرف)، فأجابهم رب العزة بقوله ﷻ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف).

وقد أوحى الله ﷻ للنبي ﷺ كما أوحى للرسل قبله، واصطفاه لذلك، فأية غرابة وأي عجب في ذلك[2]؟!

وهكذا ترى أن ما زعموه من اصطناع النبي لِمَا كان يعتريه أثناء الوحي إنما هو فرية تبطُل أمام هذا العرض وذاك الإيضاح.

ثانيًا. ما حدث للنبي ﷺ من أمور أثناء تلقيه الوحي كان نتيجة الشدة التي تَعَرَّض لها ﷺ من ثقل الوحي:

إن ما كان يعتري النبي ﷺ أثناء تلقيه الوحي سببه الشدة التي تعرَّض لها من ثقل الوحي، وليس ذلك من الرهبنة أو الافتعال في شيء، فلقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي ﷺ مرارًا حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يجد من الوحي شدة وتعبًا وثقلًا، كما قال ﷻ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (المزمل)، لكي تعلم الأمة أن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن والقوانين الطبيعية؛ إذ تلقى النبي ﷺ كلام الله "القرآن" بواسطة الملك جبريل عليه السلام، ومن ثم فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني، أو الاستشعار الداخلي، بل إن الوحي يتم من خارج ذات النبي ﷺ وتنحصر وظيفته بحفظ الموحَى به وتبليغه، وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي ﷺ كما يظهر في أحاديثه وأقواله ﷺ.

إن حقيقة الوحي هي الأساس الذي تترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته وأخلاقه، ولذلك اهتم المغرضون بالطعن والتشكيك في حقيقة الوحي، وحاولوا أن يأولوا ظاهرة الوحي ويحرفوها عن حقيقتها، وعما جاءنا في صحاح السنة الشريفة، وحدثنا به المؤرخون الثقات، والحقيقة تقول: إن

1. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٠٧، ٣٠٨ بتصرف يسير.

2. المرجع السابق، ص٣٠٩ بتصرف.

محمدًا ﷺ وهو في غار حراء فوجئ بجبريل عليه السلام أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتى يُتَبيَّنَ أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيا داخليًّا، مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هو استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وَضَمُّ الملكِ إياه، ثم إرْسَالُهُ ثلاثَ مرات قائلًا في كل مرة: اقرأ، يُعَدُّ تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو أن يكون خيالًا داخليًّا فقط.

ولقد أصيب النبي ﷺ بالرعب والخوف مما سمع ورأى، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده، وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يكن عالمًا بالرسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للناس، وقد قال تعالى تأكيدًا لهذا المعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ (الشورى).

وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس)[1].

فمما يجب أن يعلم: أن الوحي بالنسبة للأنبياء جميعًا واحد لا يختلف في شيء مطلقًا، فهو واحد في حقيقته، واحد في مصدره، واحد في هدفه ومقصده، ومصداق ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ (النساء)[2].

وعلى هذا، فلا يستطيع منصف التشكيك في الوحي المحمدي أو الزعم بافتعال ما كان يصيبه ﷺ من أمور أثناء تلقيه الوحي، ثم أي افتعال في مظاهر كان يراها الصحابة عيانًا على النبي ﷺ، وهو ينزل عليه الوحي، وكلها مظاهر لا تدل على الافتعال من قِبَله ﷺ؟ وكيف يتصنع العَرَق وصلصلة الجَرَس وصوتًا كدويِّ النحل حول وجهه ﷺ؟!

الخلاصة:

- إن تلقي الوحي ليس أمرًا كسبيًّا يناله المرء بسعيه وكسبه، ولا يخضع لجهد فكري، أو ترقٍّ روحي وأخلاقي، ولا يُنَال بالقيم الدنيوية، ولا الاعتبارات المادية، فليس بابًا مفتوحًا يلج من خلاله من سمت نفسه، أو عظم إشراقه، بل هو اصطفاء إلهي يختص به الله من يشاء من عباده. قال ﷻ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).
- إن ما كان يعتري النبي ﷺ من أعراض جسدية لا سيطرة له عليها، كاحمرار وجهه، وتتابع أنفاسه،

---

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص٩٩، ١٠٠ بتصرف يسير.

٢. الوحي والقرآن الكريم، محمد حسين الذهبي، مرجع سابق، ص١٢.

وسماع غطيط منه، وما يتقاطر منه من عرق في اليوم الشديد البرد، وثقل جسمه ﷺ، وما يسمعه الصحابة عند وجهه من صوت كدوي النحل - كل هذه الأشياء لم تكن بتدخله ﷺ الشخصي، ولا يستطيع أي إنسان أن يفعلها من نفسه، وليست هي بالأسطورة أيضًا.

- إن ما حدث للنبي ﷺ من الأمور السابقة كان نتيجة الشدة التي تعرض لها من ثقل الوحي، وليس في ذلك شيء من الرهبنة أو الاصطناع، فلقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي ﷺ مرارًا حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله ﷺ يلقى من الوحي شدة وتعبًا وثقلًا، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (المزمل).
- لم يكن النبي ﷺ في حاجة إلى الاصطناع لتأييد رسالته؛ لأن رسالته كانت واضحة لكل منصف عاقل، وكل آية تكاد تنطق أنها من عند الله، وما كان النبي ﷺ يحتاج إلى الاصطناع لبيان صدقه؛ فقد شهد له الأعداء قبل غيرهم بأنه صادق أمين قبل البعثة وبعدها.

الشبهة الحادية عشرة

ادعاء أن بعض السور القرآنية لا معنى لها لأنها جاءت عقب تدفُّق خطابي من النبي ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن بعض السور القرآنية جاءت عقب تدفق العبارات من فمه ﷺ كالسيل الجارف، ويقولون: إنه نتيجة لهذا التدفق، تضيق العبارات، حتى تنتهي إلى كلمات مفردة أو مزدوجة لا معنى لها، ويمثِّلون لذلك بسورة التكاثر؛ إذ إن كلماتها من وجهة نظرهم لا معنى لها ولا ترابط بين أفكارها.

هادفين من وراء ذلك إلى صرف الاهتمام إلى السؤال عن كون النبي مؤلفًا جيدًا أو لا، وفيه ما يدل صراحةً على كون القرآن من تأليفه هو ﷺ. طاعنين بذلك في مصدر الوحي، منكرين إلهيته.

وجها إبطال الشبهة:

1) إن الرسول ﷺ على الرغم من فصاحته، وما آتاه الله من جوامع الكلم - لا دخل له في الوحي القرآني، وهذا ما تثبته الأدلة القاطعة.

2) إن الألفاظ التي عبَّر بها مثيرو هذه الشبهة ألفاظ مبهمة، وليست محددة الدلالة، وما رواه المفسرون في تفسير سورة التكاثر يقطع بإعجازها وإلهية مصدرها، شأنها في ذلك، شأن سائر سور القرآن.

التفصيل:

أولا. على الرغم من فصاحة النبي ﷺ إلا أنه ما كان ليتدخل في ألفاظ الوحي القرآني أو تأليفه:

إن فصاحة النبي ﷺ وبلاغته أمر معترف به عند العرب منذ فجر صباه، وهو يعلم ذلك في نفسه، مثلما يعلمه الآخرون، ولذلك كان ﷺ يقول: "بعثت بجوامع الكلم"[1].

ولم يكن الرسول ﷺ يقول ذلك على سبيل الفخر

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر" (٢٨١٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١١٩٦).

والمباهاة، وإنما كان ذلك منه على سبيل الحقيقة والتقرير، فإن فصاحة لسانه ونقاء بيانه أمران مقرران عند الجمهرة فضلًا عن الخاصة.

ومن أجلِّ أوصاف فصاحة النبي ﷺ ما سطَّره قلم الجاحظ حين قال بعد أن وصف شيئًا من فصاحته ﷺ: وأنا ذاكر بعد هذا فنًّا آخر من كلامه ﷺ وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلُّف، وكان كما قال الله ﷻ: قل يا محمد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ (٨٦)﴾ (ص). فكيف وقد عاب التشديق[1]، وجانب أصحاب التقعيب[2]، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي[3][4]؟

وعلى غِرار ما ذُكر يتَّضح صدق النبوة المحمدية؛ تصديقًا لما جاءه من الوحي الصادق المنزل من الله ﷻ عن طريق جبريل ؑ، ويتضح ما للنبي ﷺ من الفصاحة والبلاغة.

ثم إن ثمة أدلة كثيرة تقطع بأن النبي ﷺ - وإن كان أفصح من نطق باللغة العربية - لا دخل له في ألفاظ الوحي القرآني، ومن هذه الأدلة:

١. إن أسلوب القرآن يخالف مخالفة تامة أسلوب كلام سيدنا محمد ﷺ، فلو رجعنا إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقواله ﷺ، وقارناها بالقرآن - لرأينا الفرق الواضح والتغاير الظاهر في كل شيء، في أسلوب التعبير، وفي الموضوعات، فحديثه ﷺ تتجلَّى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة، بخلاف أسلوب القرآن الذي لا يُعرف له شبيه في أساليب العرب.

ثم لو كان القرآن من كلامه ﷺ لكان من الأولى ألَّا ينسب ﷺ لنفسه حديثًا باسم السنة النبوية إلى جانب القرآن، وأن يجعل كل كلامه قرآنًا، فالتمايز بين القرآن والحديث النبوي على درجة من الشدة والوضوح، بحيث لا يَخفى على أحد، وعلى الأخص على فطاحل اللغة العربية.

٢. إن القرآن في أسلوبه ونمطه، وبيانه وتناسقه، وخصائصه الأخرى - كتاب فريد في نوعه، مميز عن كلام البشر، حيث جاء معجزًا، متحدى به، لم يستطع أحد أن يعارضه، أو يقلده، أو يضاهيه، أو يعيبه، أو يأتي بمثله، أو حتى يحرفه.

أما الحديث النبوي - وإن بلغ الذروة في فصاحته وبيانه قياسًا بكلام البشر - فقد تناولته ألسنة المعارضة، والتقليد، والتحريف، فهو لم يجئ معجزًا، ولم يُتَحَدَّ به؛ ولذا فقد مسَّته شواهد التحريف، فكان منه الحديث الصحيح، والحسن، والضعيف.

٣. إن القرآن الكريم لو كان من تأليفه ﷺ لنسبه لنفسه ولادَّعى الألوهية، فضلًا عن النبوة، فيحيطه بهالة أكثر قدسيَّة، فيكسب مزيدًا من ثقة الناس فيه، فتزيد قداسته فيهم، وبالتالي تتقوى زعامته فيهم، ويشتد تسلُّطه عليهم. والمؤكد تمامًا - حتى عند أدعياء الكفر - أن الرسول ﷺ لم يدَّع جاهًا، ولا زعامة، ولا دنيا، وهو الذي قال للأعرابي، عندما هالته عظمة النبوة: "هوِّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل

---

١. التَّشدِيق: تكلُّف الفصاحة في الحديث.

٢. التقعيب: التكلُّم بأقصى الحلق وفتح الفم.

٣. الغريب الوحشي من الكلام: ما لا يُستعمل ولا يعرفه الناس.

٤. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٥: ٥٧ بتصرف.

القَديد بمكة"[1].

ومن الثابت - أيضًا - أنه ﷺ لم يدَّع كتابًا، أو علمًا من عنده، وما هذه الشبهات إلا من قبيل الكفر، والكفر عناد، والرسول ﷺ هو الذي قال فيه ربه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت).

٤. إن القرآن الكريم لو كان من تأليفه ﷺ لاستطاع أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان من العرب أن يكتشفوا ذلك، فيدحضوا به زعمه ﷺ أن القرآن يوحَى به إليه من عند الله من جهة، ويقلِّدوه - وهم قد عجزوا عن ذلك - من جهة أخرى.

فالقرآن الكريم أعجزهم في لغتهم - وهم أهل الفصاحة والبيان - وغزاهم في عُقر بلاغتهم، وتحدَّاهم، وبأطلق لسان فيهم، وأعرب لغة بينهم، أن يجاروه، ولو بأقصر سورة منه، تتكون من ثلاث آيات، وهي سورة الكوثر، ولكن هل استطاعوا؟ قال ﷻ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس)، وقال الله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الطور).

ولكن هل استطاع هؤلاء العرب - وهم أصحاب الصناعة البيانية والبلاغية الفائقة - أن يُجاروا هذا القرآن، أو يعارضوه، أو يقلِّدوه؟! وهل قبلوا التحدي، وهم أهل النباهة والحس الأدبي والذوق الرفيع؟!

٥. القرآن الكريم لو كان من تأليفه ﷺ لكان أسرع الناس في الرد على من حاجَّه في ادعائه، أو افترى عليه، أو اعتدى على حرماته؛ فهذه قصة الإفك التي نالت من شرف زوجته عائشة، ومن كرم نبوته ﷺ، فقد تأخر نزول الوحي بتبرئتها حوالي شهر، ذاق فيه هو وزوجته الأمرَّين، فلو كان القرآن من تأليفه ﷺ، فما الذي يمنعه من الرد السريع القاطع لألسنة المتقوِّلين في شرفه؟! ولكن أنَّى لرسول الله ﷺ أن يتقوَّل على الله، أو يتقوَّل على الناس وإن فعل - وحاشا لله أن يفعل - فحُكْمه إلى الله، مصداق قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحاقة).

وهذه قصة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، حيث صلَّى الرسول ﷺ وصحابته حوالي ستة عشر شهرًا، نحو بيت المقدس، ولقد بقي طيلة هذه المدة يقلِّب وجهه في السماء راجيًا من الله تعالى أن يحوِّل القبلة إلى المسجد الحرام بمكة، فاستجاب له، مصداق قوله ﷻ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ (البقرة: ١٤٤)، فلو كان القرآن من تأليفه فما الذي منعه من تحويلها - أي القبلة - من أول الأمر؟!

وهذه قصة أصحاب الكهف، والذين سئل عنهم رسول الله ﷺ فأبطأ عليه الوحي حوالي أربعين يومًا بقي طيلتها في حرجٍ من اليهود حيث سألوه عنهم، فلو كان القرآن الكريم من عنده، فما الذي يمنعه من

---

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والطبراني في المعجم الأوسط، باب الألف، من اسمه أحمد (١٣١٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).

سرعة الرد عليهم؟!!

٦. إذا كان القرآن الكريم من تأليفه ﷺ فكيف نُفسِّر عتاب الله له في القرآن، وفي أكثر من موضع؟!! فهذا عتاب الله في قبوله لأعذار المنافقين، وإذنه لهم بالتخلُّف عن غزوة تبوك، مصداق قوله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (التوبة)، فمن خلل الرأي، وفساد العزيمة، ونقص الادعاء أن يعتب مُدَّعٍ، أو صاحب فرية على نفسه، وبقوله الذي يدعيه، ولو صحت دعوى نسبة القرآن لنفسه، لما عاتب نفسه، ولما خطَّأ رأيه؛ لأن هذا من قبيل التناقض الذي يتحاشاه أصحاب الافتراءات، ولكان الرسول ﷺ أحوج إلى ادعاء الصحة في أقواله وتصرفاته؛ جذبًا للناس حوله، ولاعتناق قرآنه[1] ®.

ثانيًا. ألفاظ مثيري الشبهة غير محددة، وتفسير سورة التكاثر يثبت إعجازها وإلهية قائلها:

إن الألفاظ التي استخدمها مثيرو هذه الشبهة، وعبَّروا بها عمَّا يرمون إليه، من طعن في إلهية مصدر الوحي القرآني - هي في مجملها ألفاظ مبهمة، وليست واضحة المعالم، وإلا فما معنى قولهم: "السيل الجارف، السيول الخطابية المتدفقة"؟ وأيَّ معنى يقصد هؤلاء بقولهم: "تدفق العبارات، الكلمات المفردة المزدوجة"؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنا نتوجه إلى هؤلاء بالسؤال التالي: لِمَ اخترتم (سورة التكاثر) لتمثلوا بها على ادعائكم دون ما عداها من سور القرآن الكريم، وادعيتم أن كلماتها لا معنى لها؟! وهل تَرَوْن أيَّ فارق بينها وبين سائر سور القرآن الكريم؟!

إن ما رواه المفسرون - في تفسيرهم لهذه السورة الكريمة - يقطع بإعجازها، وبإلهية قائلها، وينفي نفيًا قاطعًا أيَّ أثرٍ لبشرٍ فيها، ولا غرو في هذا؛ وذلك أنها واحدة من سور القرآن، وشأنها في الإعجاز شأن سائر السور.

إن الخطاب في سورة التكاثر لسادة المشركين وأهل الثراء منهم، والبلاغة تقتضي ألا يخرج الكلام عن مُقتضَى الحال وهذا ما نلمسه في السورة الكريمة؛ فقد اشتملت توبيخًا على اللهو عن النظر في دلائل القرآن، ودعوة الإسلام، بإيثار المال، والتكاثر به والتفاخر بالأسلاف، وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور، كما صار من كان قبلهم، وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبُّر فيما ينجيهم من الجحيم، وأنهم مبعوثون ومسئولون عن إهمال شكر المنعم العظيم.

والخطاب في السورة الكريمة للمشركين بقرينة غلظة الوعيد بقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ (التكاثر)، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ (التكاثر) إلى آخر السورة، ولأن هذا ليس من خلق المسلمين يومئذ.

والمراد بالخطاب: سادة قريش وأهل الثراء منهم لقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ (التكاثر)،

---

١. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٢٤: ٣١ بتصرف.

® في "فصاحة النبي ﷺ وبلاغته" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

ولأن سادة المشركين هم الذين آثَرُوا ما هم فيه من النعمة على الاهتمام بتلقي دعوة النبي ﷺ فتصدَّوا لتكذيبه وإغراء الدهماء بعدم الإصغاء له، فلم يذكر المُلْهَى عنه لظهور أنه القرآن والتدبر فيه، والإنصاف بتصديقه، وهذا الإلهاء حصل منهم، وتحقق كما دل عليه حكايته بالفعل الماضي وقوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ (التكاثر) غاية، فيحتمل أن يكون غاية للفعل: "ألهاكم" أي: دام إلهاء التكاثر إلى أن زرتم المقابر، أي استمر بكم طول حياتكم، فالغاية مستعملة في الإحاطة بأزمان المُغَيَّا لا في انتهائه وحصول ضده؛ لأنهم إذا صاروا إلى المقابر انقطعت أعمالهم كلها.

و"الزيارة" هي الحلول بالمكان حلولًا غير مستمر، فأطلق فعل الزيارة هنا تعريضًا بأن حلولهم في القبور يعقبه خروج منها. والتعبير بالفعل الماضي في "زرتم" لتنزيل المستقبل منزلة الماضي؛ لأنه محقق وقوعه، ويحتمل أن يكون الغاية للمتكاثَر به الدال عليه التكاثر، أي بكل شيء حتى بالقبور تعدونها. و "المقابر" جمع مقبرة بفتح الموحَّدة وبضمها، والمقبرة الأرض التي فيها قبور كثيرة.

والتوبيخ الذي استُعمل فيه الخبر أُتبع بالوعيد على ذلك بعد الموت، وبحروف الزجر والإبطال بقوله ﷻ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ (التكاثر)، فأفادت "كلا" زجرًا وإبطالًا لإلهاء التكاثر. و"سوف" لتحقيق حصول العلم، وحذف مفعول "تعلمون" لظهور أن المراد: تعلمون سوء مغبة لهوكم بالتكاثر عن قبول دعوة الإسلام.

وأكد الزجر والوعيد بقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ (التكاثر)، فعطف عطفا لفظيًّا بحرف التَّراخي أيضًا للإشارة إلى تراخي رتبة هذا الزجر والوعيد عن رتبة الزجر والوعيد الذي قبله، فهذا زجر ووعيد مماثل للأول، لكن عطفه بحرف "ثم" اقتضى كونه أقوى من الأول لأنه أفاد تحقيق الأول وتهويله.

فجملة "ثم كلا سوف تعلمون" توكيد لفظي لجملة "كلا سوف تعلمون"، وعن ابن عباس قال: "كلا سوف تعلمون" ما ينزل بكم من عذاب في القبر، "ثم كلا سوف تعلمون" عند البعث أَنَّ ما وعدتم به صدق، أي تُجعل كل جملة مرادًا بها تهديد بشيء خاص. وهذا من مستتبعات التراكيب والتعويل على معونة القرائن بتقدير مفعول خاص لكل من فِعْلَي: "تعلمون"، وليس تكرار الجملة بِمُقْتَضٍ ذلك في أصل الكلام، ومفاد التكرير حاصل على كل حال.

وفي قوله ﷻ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ أُعيد الزجر ثالث مرة؛ زيادة في إبطال ما هم عليه من اللهو عن التدبر في أقوال القرآن لعلهم يقلعون عن انكبابهم على التكاثر مما هم يتكاثرون فيه، ولهوهم به عن النظر في دعوة الحق والتوحيد. وحذف مفعول "تعلمون" للوجه الذي تقدم في: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾، وجواب لو محذوف.

وفي قوله ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ استئناف بياني؛ لأن ما سبقه من الزجر، والردع المكرر، ومن الوعيد المؤكد على إجماله يثير في نفس السامع سؤالًا عما يترتب من هذا الزجر والوعيد، فكان قوله ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾

جوابًا عما يجيش في نفس السامع.

والإخبار عن رؤيتهم الجحيم كناية عن الوقوع فيها، فإن الوقوع في الشيء يستلزم رؤيته فيُكنَى بالرؤية عن الحضور، كقول جَعْفر بن عُلْبة الحارثي:

ولَا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ[1] إلَّا ابنُ حُرَّةٍ

يَرَى غَمَراتِ[2] المَوتِ ثُمَّ يَزُورُها

وأكد الله ذلك بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ قصدًا لتحقيق الوعيد بمعناه الكنائي.

وأشار في الكشاف إلى أن هذه الآيات المفتتحة بقوله ﷻ: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ والمنتهية بقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾ اشتملت على وجوه من تقوية الإنذار والزجر، فافتتحت بحرف الردع والتنبيه، وجيء بعده بحرف "ثم" الدال على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول، وكرر حرف الردع والتنبيه، وحذف جواب "لو تعلمون" لما في حذفه من مبالغة التهويل، وأتى بلام القسم لتوكيد الوعيد، وأكد هذا القسم بقسم آخر، فهذه ستة وجوه. ثم إن في قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ تأكيدين للرؤية بأنها يقين وأن اليقين حقيقة.

وفي قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ أعقب التوبيخ والوعيد على لهوهم بالتكاثر عن النظر في دعوة الإسلام من حيث إن التكاثر صدَّهم عن قبول ما ينجيهم ـ بتهديد وتخويف عن مؤاخذتهم على ما في التكاثر من نعيم تمتعوا به في الدنيا، ولم يشكروا الله عليه بقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ أي: النعيم الذي خُوِّلْتُموه في الدنيا، فلم تشكروا الله عليه وكان به بطركم. وهذا السؤال عن النعيم الموجه إلى المشركين، هو غير السؤال الذي يُسْأله كُلُّ مُنْعَمٍ عليه، فيما صرف فيه النعمة، فإن النعمة لما لم تكن خاصة بالمشركين خلافًا للتكاثر كان السؤال عنها حقيقًا بكل منعم عليه، وإن اختلفت أحوال الجزاء المترتبة على هذا السؤال[3].

وإنه لمن العجب بمكان أن يمثِّل بتلك السورة على ضيق العبارات في القرآن الكريم، وهي تعبر بذاتها عن ذاتها، وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها، وتدع القلب مثقلًا مشغولًا بهَمِّ الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا، وصغائر اهتماماتها التي يهشُّ لها الفارغون!

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾، وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة.. ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء. فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد.

وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها.. حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض، ثم يحمل ما يحمل منها ويمضي به مثقلًا في الطريق، ثم ينشئ

---

١. الغَمَّاء: الشديدة من شدائد الدهر.

٢. غمرات الموت: شدائده ومكارهه.

٣. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٥، ج٣٠، ص٥١٨: ٥٢٤ بتصرف.

يحاسب نفسه على الصغير والزهيد[1]!

الخلاصة:

- إن الوحي القرآني منزَّل من قِبَل المولى تبارك وتعالى بواسطة جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ بألفاظ مخصوصة لم يتعدها النبي ﷺ، ولم يتدخل ﷺ في صياغته على الرغم من فصاحته وبلاغته؛ فالقرآن الكريم كلام الله تبارك وتعالى الذي لا يأتيه الباطل، ولو كان للنبي دخْل فيه أو في ألفاظه لظهر ذلك بين طياته، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ فقد جاء القرآن الكريم خاليًا مما يدلُّ على شخصية محمد ﷺ، وإن الفرق الواضح بين القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف مما يدحض ما زعموه.

- لم يكن الرسول ﷺ على الرغم مما آتاه الله ﷻ من جوامع الكلم ليتدخل ـ من عنده ـ في الوحي القرآني، وثمة أدلة قاطعة تثبت ذلك، منها اشتمال القرآن على آيات عوتب فيها ﷺ، فلو كان القرآن من عنده ﷺ لما وجدنا أيَّ ذكر لآيات العتاب تلك.

- إن الألفاظ التي عبَّر بها مثيرو هذه الشبهة عنها ألفاظ مبهمة، غير واضحة الدلالة. وإن ما رواه المفسرون في تفسيرهم سورة التكاثر يقطع بإعجازها وإلهية قائلها، شأنها في ذلك شأن سائر سور القرآن الكريم.

- إنَّه لمن العجب بمكان أن يمثَّل بهذه السورة (سورة التكاثر) على ضيق العبارات وإبهام المعنى وإفراد الكلمات وازدواجها، وهي قد بلغت من حسن النَّظم والأداء التعبيري الدقيق، واتساق الحقيقة مع النسق الإيحائي مبلغًا عظيمًا.

1. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٦، ص٣٩٦٣.

الشبهة الثانية عشرة

الطعن في أمانة النبي ﷺ في تبليغ الوحي(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المشككين في أمانة النبي ﷺ في تبليغ الوحي، مستدلين على ذلك بأنه ﷺ بطبيعته البشرية خاف من عدم قبول الكفار للقرآن، فكتم منه ما يثيرهم، وأنه ﷺ لم يذكر أن دينه مُكمِّل ومتمِّم للأديان الأخرى من اليهودية والنصرانية إلا بعدما شعر بحاجته إلى مُجاراة اليهود والنصارى ومُداراتهم. وذلك بغية التشكيك في أمانته ﷺ، في تبليغ الوحي؛ إيذانًا لترك ما نزل به ما دام غير كامل، أُثبت بعضه وكُتم بعضه الآخر.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن أمانة النبي ﷺ في تبليغ الوحي من الأمور الثابتة المقررة بشهادة القرآن الكريم، وسيرته العطرة، وإجماع الأمة. ولقد كان ﷺ صادقًا في أقواله وأفعاله قبل البعثة وبعدها، بشهادة أعدائه فضلًا عن أتباعه.

٢) إن اشتمال بعض آيات القرآن الكريم على ما يثير الكفار، ويسفِّه أحلامهم وأوثانهم، ويتوعدهم

(*) موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق. منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل: دراسة مقارنة، د. عزية علي طه، دار البحوث العلمية للنشر، مصر، ١٩٨٧م. اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، إدوارد جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت.

بالعذاب الأليم يوم القيامة ـ دليل واضح على أنه ﷺ لم يكن يخشى هؤلاء الكفار، ولا يتحاشى ما يثيرهم.

٣) لو افترضنا أن النبي ﷺ تقرَّب لليهود والنصارى، فلماذا لم يكتم الآيات التي تلعن اليهود صراحة وتَذْكر عبادتهم المخزية للعجل؟ ولماذا لم يكتم الآيات التي تخالف اعتقاد النصارى في المسيح عليه السلام؟!

التفصيل:

أولا. أمانة النبي ﷺ وصدقه في تبليغ الوحي:

لو افترضنا جدلًا أن النبي ﷺ لم يكن أمينًا في تبليغ الوحي، فلماذا شهدت له قريش بالصدق، حتى بعد أن ناصبهم العداء، وأعلن بطلان معتقداتهم؟

ونحن نعلم أن النبي ﷺ مبلِّغ عن ربه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة).

وروي عن عائشة في تفسير هذه الآية: "من حدَّث أن محمدًا كتم شيئًا مما أنزل الله عليه فقد كذب"[1].

وعن وهب بن عبد الله قال: قلت لعلي بن أبي طالب: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ قال: "لا والذي خلق الحبَّة، وبرأ النسمة إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن"[2]. ويتبين من هذا أنه ﷺ لم يخص عليًّا ـ ولا غيره ـ بشيء من أحاديثه دون الصحابة.

والرسول ﷺ قد منَّ الله عليه بالرسالة، وعليه البلاغ، وعلينا التسليم، والأمة الإسلامية قد شهدت للرسول ﷺ أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقد استنطقهم هو نفسه بذلك في أعظم المحافل، وهو خطبته يوم حجة الوداع، وكان هناك من أصحابه نحو الأربعين ألفًا، رُوي عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم النحر: "أتدرون أي يوم هذا"؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، قال: "أليس يوم النَّحر"؟ قلنا: بلى، قال: "أيُّ شهر هذا"؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: "أليس ذا الحجة"؟ قلنا: بلى، قال: "أي بلد هذا"؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليست بالبلدة الحرام"؟ قلنا: بلى، قال: "فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحُرمَة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألَا هل بلَّغت"، قالوا: نعم، قال: "اللهم اشهد، فليبلِّغ الشاهد الغائب، فرُبَّ مُبلَّغ أوعَى من سامع"[3].

هذه شهادة الصحابة رضي الله عنهم يوم خُطبة الوداع أنه أكمل الرسالة وبلغها على خير وجه، قال ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة:٣)[4].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة المائدة، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (٤٣٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ (النجم) (٤٥٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير (٢٨٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان (٢٤٩).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١٦٥٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (٤٤٧٨).

٤. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٦.

وقد كان النبي ﷺ صادقًا في أقواله وأفعاله قبل البعثة وبعدها، وشهد له كثير من أعدائه بذلك، وفيما يأتي نذكر بعضًا من تلك الشهادات:

١. أرسل هِرَقل إلى أبي سفيان في رَكب من قريش - وكانوا تجارًا بالشام - في المدَّة التي كان رسول الله ﷺ هادَن فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بتُرجُمانه، فقال: أيُّكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربهم به نسبًا. فقال هرقل: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَبَنِي فَكَذِّبُوه. فقال له هرقل: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. فقال له: هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قال: لا. ثم قال: هل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا. ثم قال: فأشراف الناس يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. ثم قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون. ثم قال: هل يرتدُّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. ثم قال: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. ثم قال: هل يَغدِر؟ قال: لا، ونحن منه في المدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: كيف كان قتالكم إياه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سِجال[1]، ينال منا وننال منه. قال: بماذا يأمركم؟ قال: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

ثم قال هرقل: وكذا الرسل تُبعَث في نسب أقوامها، لو أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسِي بقولٍ قيل قبله. ثم لو كان من آبائه مَلَك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه، ثم قال: الضعفاء أتباع الرسل، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، فلم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله"[2][3].

٢. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصَّفا، فهتف: "يا صباحاه"[4]، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغِير عليكم أكنتم مُصَدِّقيَّ"؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا!! قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[5].

هكذا يعترف له قومه أجمعون بالصدق، وعدم عثورهم على ما يناقض هذا الخلق منه، وهم وإن لم يكونوا قد ناصبوه العداء آنذاك، إلا أن هذه الشهادة وغيرها ظلت قائمة لا ينازعون فيها، ولم ينفوها حينما جاهرهم بالدعوة وناصبوه العداء، وقد حرصوا بعد ذلك على صد الناس عن الإيمان به وبدعوته كل

---

١. سِجال: مرة ينتصرون ومرة ينهزمون.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٣. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق، ص٤٥: ٤٧.

٤. يا صباحاه: كلمة كان العرب يقولونها لجمع الناس.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة المسد (٤٦٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء) (٥٢٩).

الحرص، وبذلوا في ذلك كل جهدهم، غير أنهم لم يقدروا أن ينالوا من صدقه وأمانته.

حتى لقد قال أبو طالب في لاميَّته المشهورة إبَّان المقاطعة التي ضربوها على النبي ﷺ وعلى بني هاشم:

لَقَد عَلِمُوا أَنَّ ابنَنَا لَا مُكَذَّبٌ

لَدَينا وَلَا يُعْنَى بِقَولِ الأَباطِلِ

فهم يعلمون هذه الحقيقة، ولكنهم تعاموا عنها، أعماهم الباطل والكبر والعناد، كما قال ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام).

٣. سأل الأخنس بن شريق أبا جهل، وقد خلا كل منهما بالآخر يوم بدر، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة، والسقاية، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام)[1].

٤. ومن شهادات الأعداء لرسول الله ﷺ شهادة أُميَّة بن خلف، عندما قال له سعد بن معاذ: "إني سمعت محمدًا ﷺ يزعم أنه قاتلك؟ قال: إياي؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذب محمد إذا حدَّث"[2]. وقد تحقق ذلك يوم بدر، حيث اشترك في الغزوة، وقتله النبي ﷺ.

٥. ومن ذلك أيضًا شهادة النَّضر بن الحارث في قوله: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما ابتُليتم بمثله، ولقد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا، أرضاكم عقلًا، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونَفْثهم وعُقَدهم، وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وحالهم وسمعنا سَجْعهم، وقلتم: شاعر! لا والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هَزَجه ورَجَزه وقَرِيضه، وقلتم: مجنون! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخَنْقه ولا وسوسته، ولا تخليطه، ثم قال لهم: يا معشر قريش، انظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

فهذا كلام النَّضر بن الحارث الذي كان شيطانًا من شياطين قريش. وكذا قال غيره كلامًا نحو ذلك من إثبات صدق النبي ﷺ[3].

ثم لو كان النبي ﷺ متهمًا في أمانته في تبليغ الوحي، لأخفى من القرآن الآيات التي عاتبه فيها ربه ﷻ؛ كقوله ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ (عبس).

وقد رُوي عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ

---

١. أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٣٣٣).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٣٣).

٣. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٩٢: ٢٩٤ بتصرف.

﴿ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ (الأحزاب: ٣٧)[1].

نزلت هذه الآية في حق زيد بن حارثة الذي أعتقه رسول الله ﷺ ورباه، ثم زوجه من بنت عمته زينب بنت جحش التي قبلت الزواج منه طاعة لرسول الله ﷺ وتنفيذًا لأوامره، ولم يحدث وفاق بينهما، فأمر الله الرسول ﷺ بطلاقها من زيد، وأن يتزوجها، فشق ذلك عليه ﷺ؛ حيث كانت العرب في تلك الأيام تنظر إلى الابن المتبنَّى نظرتهم إلى الابن الحقيقي، ولكن ما كان على النبي ﷺ إلا أن ينفذ ذلك الأمر؛ لأنه صادر إليه من السماء.

وهناك حادثة أخرى وقعت في معركة بدر تبين مدى أمانته ﷺ، فقد تم أَسْر بعض كفار قريش، فاستشار النبي ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ، وعمر بن الخطاب ﷺ في أمرهم. فكان رأي أبي بكر ﷺ إطلاق سراحهم بعد أخذ الفِديَة منهم، أما عمر بن الخطاب ﷺ فكان رأيه أن يُقْتَلوا جميعًا، وأن يقوم كل واحد من المسلمين بقتل قريبه بيده، ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر وأطلق سراح الأسرى بعد أخذ الفدية منهم.

ولندع سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يروي بقية هذه القصة بنفسه، يقول: فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: "أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرِض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة" - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنفال)، فأحلَّ الله الغنيمة لهم[2].

فلو كان النبي ﷺ غير أمين في تبليغ الوحي، لأخفى منه ما خالف هواه[3].

وقد شهد الله ﷻ لنبيه ﷺ في القرآن الكريم بالأمانة في تبليغ الوحي، ونفى عنه ﷺ الكذب والخيانة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (الأحزاب: ٢٢)، وقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الزمر). والذي جاء بالصدق كما يدل عليه سياق الآية هو نبينا محمد ﷺ، وقد شهد لما جاء به من عنده ﷻ - قرآنًا وسنة - فسماه صدقًا، ويلزم من صدق ما أتى به، صدقه هو في نفسه، إذ لا يأتي بالصدق إلا كامل الصدق.

وقال ﷻ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحاقة). فهذه الآيات دليل صدقه ﷺ وعصمته في تبليغه الوحي بدليل التمانع، فقد امتنع

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ (النجم) (٤٥٨).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (٤٦٨٧).

٣. من صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٨٣: ٨٥ بتصرف.

أخذه سبحانه لنبيه ﷺ بتلك الصفة، لامتناع تقوُّله عليه، وامتناع تقوُّله عليه يعني الصدق والعصمة، فيما يقول ويبلغ عن ربه.

وقال ﷻ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم)، فكلمة "ينطق" في لسان العرب، تشمل كل ما يخرج من الشفتين من قول أو لفظ؛ أي: ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو بوحي من الله ﷻ.

وقال ﷻ: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥ ﴾ (الإسراء).

فهذه الآيات من جملة الآيات المادحة للمصطفى ﷺ والشاهدة بعصمته في كل ما يبلغ عن ربه ﷻ، وحكم "كاد" في الآيات حكم سائر الأفعال، فمعناها منفي إذا صحبها حرف نفي، وثابت إذا لم يصحبها.. والمعنى: لولا وجود تثبيتنا إياك، لقد قاربت أن تميل إليهم شيئًا يسيرًا من أدنى الميل، ولكن امتنع قرب ميلك وهواك لوجود تثبيتنا إياك.

وبعدُ.. فهذه شهادات من الله ﷻ لرسوله ﷺ بعصمته في أداء واجب البلاغ على أكمل وجه ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩ ﴾ (النساء)، ولم يكتفِ ﷻ لحبيبه بهذه الشهادات، بل لقد أضاف إليها شهادات أخرى بأسلوب آخر؛ حيث قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣).

فإن كمال الدين لا يكون إلا بالتبليغ لجميع أحكامه، وما أوحى الله إليه ﷺ من كتاب وسنة، وعصمته في هذا البلاغ[1].

ونود أن نقول لهؤلاء الذين يدَّعون أن النبي ﷺ قد كتم بعض ما أمره به ربه ﷻ من الوحي: ما الوحي الذي كتمه ﷺ؟ وما دليلكم على هذا الكتمان؟ وأين نجد ما كتمه النبي ﷺ من الوحي[®]؟!

ثانيًا. اشتمال بعض آيات القرآن الكريم على ما يثير الكفار، ويسفه أحلامهم وأوثانهم ويتوعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة دليل واضح على أنه ﷺ لم يكن يخشاهم:

لقد حوى القرآن بين آياته آياتٍ كثيرة تتوعَّد الكفار بالويل والعذاب في الآخرة، فلو كان النبي ﷺ قد خاف من هؤلاء الكفار لما أظهر ما يثيرهم وينغص عليهم حياتهم.

وقد كان ﷺ يدعو ويحذر ويستعطف ثم يوعد ويهدد، لا يخاف في الحق لومة لائم، فهذا عمه أبو لهب، الذي برز لمناداته، وراح يفسد عليه عمله، ويؤلِّب الناس عليه، فإنه بلسان القرآن لعنه ولعن امرأته، قال ﷻ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ (المسد).

ولم يخش سادة مكة وأغنياءها، بل قذفهم في

---

١. انظر: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٢٨٥: ٢٩٠.

® في "صدق النبي ﷺ وأمانته" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

وجوههم بالجشع والتهافت على حطام الدنيا، والتكالب على جمع المال بمختلف الوسائل[1].

ولقد سفَّه القرآن آلهة قريش أيضًا كما في قوله ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ (النجم).

وفي هذه الآيات يذكر الله ﷻ وثنية قريش بأنها قسمة ضيزى، وأن آلهتها ما هي إلا أسماء سموها، ما أنزل الله بها من سلطان، تبعًا لهواهم، وما هذا بالحق الذي يريده الله ﷻ.

وقد توعَّد القرآن الكريم بعض الكفار، وذمهم على ما فعلوا، وعلى إنكارهم وحدانية الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (المدثر)، فقد ذمَّ القرآن الوليد بن المغيرة بعدما سمع القرآن وأعرض عنه، ولم يؤمن به، فتوعده الله ﷻ بالعذاب الأليم في النار يوم القيامة.

إن القرآن الكريم قد أعلن ذمه لقريش صراحة، بل أمر تعالى النبي ﷺ بأن يقول لهم ذلك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الكافرون)، بلا مداهنة، ولا ترقيع، ولا أنصاف حلول، فأين ما كان يخفيه النبي ﷺ من الوحي خوفًا من إثارة كفار قريش؟ ثم لماذا آذاه قومه حتى أدموا عقبيه، وحاولوا قتله، وألجئوه إلى الهجرة بعيدًا عن موطنه الذي يحبه؟!

ما زعمه هؤلاء إذن من أنه ﷺ قد كتم بعض ما يوحَى إليه خوفًا من قومه ومجاملة لهم - لا أساس له من الصحة، ولا يوجد ما يشهد له من سيرته ﷺ.

ثالثًا. نفْي كتمان النبي ﷺ بعضَ الوحي؛ مداراة منه لليهود والنصارى:

حفل القرآن الكريم بآيات كثيرة تذم اليهود وعقيدتهم المحرفة التي تصف المولى ﷻ بصفات لا تليق ببشر فضلًا عن الله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ (المائدة: ٦٤).

ولم يكن النبي ﷺ أول من لعن هؤلاء اليهود، بل إنهم لُعِنوا على لسان أنبيائهم، قال ﷻ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (المائدة).

على أن النبي ﷺ لم يكن في حاجة إلى التقرُّب من اليهود، فما كانوا حُكَّامًا ولا أصحاب نفوذ، وإنما كانوا - ولا يزالون - أصحاب دسائس ونفاق، وقد دَأَبوا على التفاخر بادعاء العلم والمعرفة، حتى كره العرب الأميُّون اليهودَ وعلمَهم.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (فاطر)، فكان محمد ﷺ هو الرسول الذي أقسموا بالله على الإيمان به، ولكنهم نقضوا أيمانهم.

١. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، دار المحبة، دمشق، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ص٦٩، ٧٠.

روى ابن إسحاق عن صفية بنت حُيَي - رضي الله عنها - قالت: "لم يكن أحدٌ من ولد أبي وعمي أحبَّ إليهما مني، ولم ألقهما في ولد لهما ولم أهشَّ إليهما إلا أخذاني دونه. فلما قدم رسول الله ﷺ قُباء - قرية عمرو بن عوف - غدا إليه أبي وعمي - أبو ياسر بن أخطب - مُغلِّسين[1]، فوالله، ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَينَى، فهششتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله، ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله!! قال: تعرفه بنعته وصفته؟ قال: نعم والله!! قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته ما بقيت"[2].

فهؤلاء هم اليهود يقسمون إذا جاءهم نبي ليؤمنُنَّ به، فلما جاء النبي ﷺ وعلموا أنه من العرب - وليس منهم - اتحدوا على معاداته.

والمتأمل يجد القرآن كثيرًا ما يكشف المستور من تاريخ اليهود كعبادتهم العجل وتكذيبهم موسى عليه السلام.. إلخ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (البقرة).

إن الرسول ﷺ لم يكن يحاول التقرب من اليهود، فلو كان الأمر كما يصوره هؤلاء لكتم هذه الآية وغيرها من الآيات التي تذم اليهود وأفعالهم، أو على الأقل أخفاها مدة طمعه في استجابتهم، ولكنه مضى على درب داود وعيسى في لعنهم وكشف حقدهم.

إنهم يتوهمون أن النبي ﷺ حينما وجَّه المسلمين لاستقبال بيت المقدس في الصلاة كان يرغب في التقرب إلى اليهود.

والحق أن توجه الرسول ﷺ إلى بيت المقدس في البداية إنما هو وسيلة أرادها الله ليبرهن بها على بعض صفاته ﷺ فهو وارث لأنبياء بني إسرائيل، وإليه يعود رصيد النبوة السابقة، إن هذا الأمر واضح في المزامير والأناجيل، ولكن اليهود بدلًا من الإقرار به ازدادوا عنادًا، وأصروا على الكفر به واستكبروا استكبارًا، وبهذا عُلِم من يتبع الرسول ممن ينقلب على وجهه، وفي كل الأحوال لم يتقرب الرسول إلى اليهود قتلة الأنبياء.

أما النصارى فلم تكن لهم شوكة - يومئذ - مثل اليهود، حتى يتقرب إليهم النبي ﷺ، يدل على هذا ما جاء في القرآن الكريم من بيان فساد عقيدتهم في المسيح عليه السلام: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (المائدة:٧٣)، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(المائدة: ١٧).

فأين ما يزعمه هؤلاء من تودد النبي ﷺ لليهود والنصارى، ليكتم بعض آيات القرآن في ذمهم؟!

الخلاصة:

- إن أمانة النبي ﷺ في تبليغ الوحي من الأمور الثابتة بشهادة القرآن الكريم، وسيرته العطرة، وإجماع الأمة، فمن الآيات الكريمة التي تثبت عصمة النبي ﷺ في تبليغه الوحي قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ

---

١. مُغلِّسين: في وقت الغَلَس، وهو آخر الليل.

٢. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٤٧، ٤٨ بتصرف يسير.

﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم)، والمتأمل في سيرته العطرة يجد الكثير من الدلائل على صدقه وأمانته ﷺ، وقد شهد له بهذا أعداؤه الألداء، كما شهد له أصحابه بالتبليغ وأداء الرسالة. ومن كان هذا حاله مع البشر لا يعقل أن كذب على الله تبارك وتعالى، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحاقة).

- إن ما ذكره هؤلاء - من أن النبي ﷺ قد كتم من الوحي ما يثير الكفار - زعم لا أساس له من الصحة؛ لأن المتأمل في القرآن الكريم يجد أنه يحتوي على كثير من الآيات التي تتوعد الكفار بالويل وبالعذاب في الآخرة، وما كان النبي ﷺ يخاف في الله تبارك وتعالى لومة لائم.

- لم يكن اليهود أصحاب وجاهة ولا سلطان، ولم يكن بهم نفع ولا فضل، وكل ما عُرِف عنهم أنهم أصحاب خيانة وغدر وقتل ودسائس، فلم يكن هناك شيء يجعل النبي ﷺ يتقرَّب إليهم ويحابيهم على حساب القرآن، بل إن القرآن قد لعنهم وذم أفعالهم من أكل السحت والربا وعبادة العجل. وكذلك النصارى؛ إذ جاء في القرآن ما يخالف معتقدهم في المسيح عليه السلام، ولو كان النبي ﷺ أخفى شيئًا من القرآن فلماذا لم يُخْفِ هذه الآيات؟!

الشبهة الثالثة عشرة

الزعم أن كتبة الوحي كانوا يتزيَّدون فيه وأنه ﷺ كان يُقِرُّ أقوالهم (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقولين أن النبي ﷺ كان يستحسن أقوال كتبة الوحي فيقرها؛ فيدونونها في القرآن على أنها وحي إلهي، ويستدلون على ذلك بأن عبد الله بن أبي السَّرح كان يكتب للنبي ﷺ فلما نزل قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، قال: "فتبارك الله أحسن الخالقين". فقال ﷺ: اكتبها فكذلك نزلت. ثم إن ابن أبي السرح لما ارتدَّ وذهب إلى مكة كان يقول: كنت أصرف محمدًا حيث أريد؛ فكان يملي عليَّ: عزيز حكيم، فأكتب: عليم حكيم، فيقول: نعم، كلٌّ سواء. ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن فيما بين أيدي المسلمين من الوحي، وتشكيكهم في إلهية بعضه؛ تمهيدًا للتشكيك فيه كله.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم يكن النبي ﷺ ليقرَّ قول أحد من كتبته، على أنه وحي وهو ليس كذلك، وما كان من قول عبد الله بن أبي السَّرح، فقد جاء موافقًا لإكمال الآية، فقال ﷺ: اكتبها فهكذا نزلت، ولو فعل النبي غير ذلك لحرَّف الوحي وحاشاه ﷺ من ذلك، ولـمَّا سمع الرسول ﷺ بما يدَّعيه كذبًا وبهتانًا أمر بقتله، ثم عفا عنه يوم الفتح، وحسن إسلامه.

(*) هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات عبد الله الفادي.
www.Islameyat.com

٢) إن شدة حرص النبي ﷺ على سلامة الوحي من التغيير والتحريف أثناء كتابته، وضبطه لكل ما يكتبون، وجمعه بطريقتين مختلفتين (الحفظ والكتابة) كل ذلك يعضِّد ما كان من حرصه ﷺ على سلامته من التدخل البشري فيه، فكيف يُتَّهم ﷺ بنسبة ما ليس منه له؟!!

التفصيل:

أولا. لم يكن النبي ليملي على كتبة الوحي إلا ما نزل عليه من السماء:

قال القرطبي في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾(الأنعام: ٩٣): "مَنْ" في موضع خفض، أي: ومن أظلم ممن قال سأنزل، والمراد عبد الله بن أبي السَّرْح الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدَّ ولحق بالمشركين، وسبب ذلك - فيما ذكر المفسرون - أنه لما نزل قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (المؤمنون) دعاه النبي ﷺ فأملاها عليه؛ فلما انتهى إلى قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ (المؤمنون: ١٤) عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾(المؤمنون)، فقال رسول الله ﷺ: "هكذا أُنزلت عليَّ"، فشك عبد الله حينئذ، وقال: لئن كان محمد صادقًا لقد أُوحِي إليَّ، ولئن كان كاذبًا لقد قلت كما قال. فارتدَّ عن الإسلام ولحق بالمشركين.

وقال ابن اسحاق في هذه الآية ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: إنها نزلت في عبد الله بن أبي السَّرح، إذ ارتد عن الإسلام، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة؛ أمر ﷺ بقتله واثنين معه، ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، ففرَّ عبد الله بن أبي السرح إلى عثمان ﷺ، وكان أخاه من الرضاعة - أرضعت أمه عثمان - فغيَّبه عثمان، حتى أُتِي به إلى رسول الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكة، فاستأمنه له؛ فصمت رسول الله ﷺ طويلًا ثم قال: "نعم"، فلما انصرف عثمان قال رسول الله ﷺ: "ما صمتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه"، فقال رجل من الأنصار: فهلَّا أومَأت[١] إليَّ يا رسول الله؟ فقال: "إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين"[٢].

وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح أيام الفتح فحَسُن إسلامه، ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك، وهو أحد النُّجباء العقلاء الكُرَماء من قريش[٣].

فلو كان عبد الله يعلم أن النبي ﷺ كاذب، لما أسلم ثانية ولما حسُن إسلامه، وربما يقول قائل: إنه أسلم خوفًا من القتل. نقول: لو كان ما تقوله حقًّا لارتدَّ بعد موت النبي ﷺ! ولكننا لم نسمع عن شيء من ذلك، بل سمعنا عن بطولاته وفتوحاته، فهو الذي فتح الله على يديه إفريقيَّة، وهو الذي غَزَا الصَّواري من أرض الروم، وإنما كان ذلك ليقينه بصدق النبي ﷺ.

أما ما قيل من أنه كان يُملي عليه الرسول ﷺ: عزيز حكيم، فيكتب هو من تلقاء نفسه: عليم حكيم، فيقر ﷺ صنيعه - فهذه رواية كاذبة، وليس لها أساس من الصحة حتى ولو فرضنا صحتها، فهي لا تعني ما

---

١. أومَأ: أشار.

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب المغازي، حديث فتح مكة (٣٦٩١٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد (٤٣١٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٣).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٧، ص٤٠.

يكتبه من قرآن، وإنما ما كان يكتبه للنبي ﷺ من رسائل وغيرها®.

ثانيًا. شدة حرص النبي ﷺ على سلامة الوحي:

خلال فترة امتدت ثلاثة وعشرين عامًا، كان الوحي ينزل على محمد ﷺ بطرق مختلفة؛ ولذلك كان النبي ﷺ يعرف ما ينزل عليه، أهو قرآن، أو حديث قدسي، أو إعلام بالغيب؟

وفيما يخص وحي القرآن فإن القرآن عبارة عن ١١٤ سورة، تختلف سوره في عدد آياتها، وتختلف الآيات في طولها، فمنها القصير، ومنها الطويل، وكذلك السور التي كان لكل منها اسم مأخوذ من فاتحتها أو من مضمونها.

ولما كان محمد ﷺ أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة بأية لغة؛ كان يحفظ الوحي عن ظهر قلب، ومن ثم يقوم بإبلاغ أتباعه ما أنزل عليه من القرآن، وكان النبي ﷺ أثناء نزول الوحي عليه، يردده بسرعة لكي يحفظه، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (القيامة)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حرص النبي ﷺ على حفظ ما يُوحَى إليه؛ حتى لا يتبدَّل القول لديه، ولكن الله ﷻ أعلمه أنه هو المتكفِّل بحفظه.

وكان أتباع النبي ﷺ على نوعين:

- **نوع يعتمد على حفظ ما سمع من النبي ﷺ عن ظهر قلب:** وكان هؤلاء على نوعين:

الأول: يحفظ كل ما يسمع من القرآن من النبي ﷺ.

والثاني: متفرغ لملازمة النبي ﷺ وحفظ القرآن عن ظهر قلب منه.

وكان أغلب الصحابة من النوع الأول الذي يحفظ من النبي ﷺ ما تيسر له حفظه، كلما سمحت ظروفه بذلك. أما النوع الثاني فقد كان متفرِّغًا لحفظ القرآن عن ظهر قلب؛ لذلك حفظ هؤلاء القرآن كله من نبيهم محمد ﷺ، ومن هؤلاء: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولَى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت... وغيرهم.

- **أما النوع الآخر فكان الكتبة:** وكانوا ينقسمون إلى نوعين: كتبة متفرغون، وكتبة غير متفرغين، فالكتبة المتفرغون من الذين كانوا يلازمون النبي ﷺ لكتابة الوحي، دون أن يمارسوا أي عملٍ، فعملهم الوحيد هو كتابة الوحي من محمد ﷺ، وكان من هؤلاء الكتبة: معاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت.

أما صنف الكتبة غير المتفرغين للكتابة، فيندرج تحته كل المسلمين الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة، ولا يستطيعون التفرغ لكتابة الوحي، إلا أنهم كانوا يكتبون الوحي كلما سنحت لهم الفرصة لذلك، ومن هؤلاء: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ويزيد بن أبي سفيان، والزبير بن العوام... إلخ.

وعندما كان ينزل الوحي على النبي ﷺ كان يقول للموجودين: اكتبوا ما نزل عليَّ من القرآن، فيكتب الكتبة الموجودون، ويحفظ الحفظة عند نزول الوحي، فربما كتب البعض على عَسِيب، أو كتب على لَخْف، أو على رقعة من الجلود، وما أن ينتهي الكتبة من كتابة ما

® في "حرص النبي ﷺ على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء.

نزل من القرآن في ذلك الوقت، حتى يأمرهم رسول الله ﷺ بأن يقرءوا عليه ما كتبوا، فإن تأكد من صحته، أمرهم أن يكتبوا نسخة له ليأخذ تلك النسخة ويضعها في بيته، وبهذا تتَّضح عناية الرسول ﷺ في حفظ القرآن من الدخلاء[1].

ومن هنا نتساءل: كيف يُغَيِّر عبد الله بن أبي السَّرح بعض الألفاظ؟ ولم يكن وحده يكتب ما ينزل من القرآن؟! ثم إن النبي ﷺ كان يراجع عليهم ما كتبوا خوفًا من التحريف أو التغيير، ثم يحتفظ بنسخة مما أقره في بيته.

هذا فضلًا عن أن جبريل عليه السلام كان يدارس النبي ﷺ القرآن كل عام مرة في شهر رمضان، وفي العام الذي قُبض فيه رسول الله ﷺ دارسه القرآن مرتين، فلو كان فيه تغيير أو تحريف كما يزعمون، فكيف كان يقره جبريل عليه السلام عندما كان يراجعه كل عام؟!

وذلك معلوم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل شهر رمضان عشرة أيام، فلما كان من العام الذي تُوفِّي فيه اعتكف عشرين يومًا، قال: وكان يُعرَض عليه القرآن كل رمضان، فلما كان العام الذي تُوفي فيه، عُرِض عليه مرتين[2][3].

فإذا كان جبريل يُراجع القرآن سنويًّا حتى توفي رسول الله ﷺ، فكيف - إذن - يسمح بإبقاء الكلمات التي كان يغيِّرها عبد الله بن أبي السَّرح كما يدعون؟!

الخلاصة:

- لم يحدث أن دوَّن رسول الله ﷺ أقوال كَتَبة الوحي قط ولا أقرَّ شيئًا منها دوَّنوه هم؛ وذلك لأن القرآن هو كلام الله الموحَى به إلى نبيه الحريص على سلامة تبليغه ﷺ.
- الرسول ﷺ لم يأمر كاتبه عبد الله بن أبي السَّرح، بكتابة قوله ﷺ: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون) إلا لأن الآية قد نزلت عليه هكذا فعلًا، وقد أمر الرسول ﷺ بقتله عندما قال: ﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (الأنعام: ٩٣)، ثم عفا عنه الرسول فرجع ابن أبي السرح إلى الإسلام وحسن إسلامه، وما قيل من أن الرسول ﷺ كان يملي عليه عزيز حكيم، ويكتب هو عليم حكيم، فتلك رواية مكذوبة.
- لو فعل النبي ﷺ مع ابن أبي السرح شيئًا غير إقراره إياه على ما قال؛ لموافقته الوحي، لكان ﷺ بذلك محرِّفًا للقرآن لمجرد مخالفة كاتبه ابن أبي السرح ولجاز لهم في هذه الحال مطعنهم، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وحاشاه ﷺ أن يفعل ذلك.
- كان النبي ﷺ حريصًا على سلامة الوحي من التغيير والتحريف أثناء كتابته وجمعه بطريقتين مختلفتين - الحفظ، والكتابة - لضمان سلامته من التزيُّد، وكان جبريل يُدارسه ﷺ القرآن كل عام مرة في شهر رمضان، وكل ذلك ينفي اتهام النبي ﷺ بنسبة ما ليس منه له.



---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٥٥٤: ٥٥٦ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ (٤٧١٢).

٣. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي، مرجع سابق، ج٧، ص١٤٦.

الشبهة الرابعة عشرة

إنكار إلهيَّة القرآن لتعارضه مع الكتاب المقدَّس(*)

مضمون الشبهة:

يحاكم بعض المنكرين الطاعنين حقائق القرآن الكريم بمقررات الكتب المقدسة لغير المسلمين، وينتهي بهم ذلك إلى الطعن في إلهية القرآن لما يجدونه من تعارض بينه وبين الأناجيل المتداولة حول شخصية المسيح عليه السلام. وأصل ذلك عندهم أن وَحْي الله عز وجل لا يختلف في الأصول الاعتقادية الكبيرة، حتى إذا أتى القرآن بما تقرر الأناجيل خلافه فقد دل بنفسه على أنه ليس وحيًا سماويًّا، ويكون ذلك بمجرده طعنًا فيه.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم تزل في الأناجيل - على ما نالها من تبديل واضطراب - شذرات ترشد إلى حقيقة المسيح كما يقررها القرآن الكريم.

٢) القول بتحريف الكتاب المقدس قول علمي له شواهده المعتبرة، وليس بفرية اختلقها المسلمون.

التفصيل:

أولا. فكرة القرآن الكريم عن المسيح تؤيدها نصوص من الإنجيل:

لقد ورد في الأناجيل أقوال كثيرة على لسان المسيح تؤكد أنه كان يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، منها: "إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى". (مرقس ١٢: ٢٩، ٣٠)، وأقر المسيح عليه السلام أيضًا بأنه رسول من عند الله، فقال: "أجابهم يسوع وقال: تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم، هل هو من الله، أم أتكلم أنا من نفسي". (يوحنا ٧: ١٦، ١٧)، فإذا كان المسيح عليه السلام يعترف بأن الله واحد، وهو الذي أرسله، فكيف نقبل أن يكون إلهًا أرسل نفسه؟!

ثم إن اعتراف المسيح بأنه نبي وشهادة بعض أتباعه له بالنبوة ينفي عنه صفة الألوهية:

ورد في الإنجيل اعتراف صريح من المسيح بأنه نبي مُرْسَل، يقول عليه السلام: "بل ينبغي أن أسير اليوم وغدًا وما يليه، لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج عن أورشليم". (لوقا ١٣: ٣٣)، وقد اعترف بعض أتباعه أنه نبي، كما جاء في إنجيل لوقا: "يسوع الناصري، الذي كان إنسانًا نبيًّا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب". (لوقا ٢٤: ١٩)[1].

وهكذا يتبين لنا أن المسيح في بعض نصوص الأناجيل المتداولة في عصرنا الحديث ما هو إلا عبد الله ورسوله، أرسله الله ليرشد بني إسرائيل إلى الطريق المستقيم بعدما ضلوا عنه.

أما صورة المسيح في القرآن فلم تبعُد عن تلك الحقيقة في كل المواضع التي ذُكر فيها، ومنها قوله عز وجل في سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٦٣٣، ٦٣٤.

مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الزخرف)، أي: ليس المسيح كما يدعي النصارى إلهًا أو ابن إله، وما هو إلا عبد الله ورسوله.

إن القرآن العظيم قد وصف كيفية خلق عيسى، وولادته من أم دون أب؛ تقريرًا للمعجزة الدالة على قدرة الله ﷻ وتنوُّع الخليقة؛ فقد خلق آدم من غير ذكر (أب) ولا أنثى (أم)، وخلق حواء من ذكر (آدم) دون أنثى، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى، وخلق عيسى من أنثى دون ذكر.

فتمت الآية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رَبَّ سواه، وليجعله كذلك رحمة من الله نبيًّا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله ﷻ وتوحيده، كما قال ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (آل عمران).

والمعنى أنه ﷺ يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته. أي أن عيسى ابن مريم ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، فكان من الأنبياء المقرَّبين الصالحين؛ لذلك نجد في الآيات قول بني إسرائيل لمريم: ﴿ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ (مريم)، ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ (مريم: ٣٠)؛ أي أن أول كلام نطق به عيسى ابن مريم أن نزّه جناب ربه تعالى، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لله تعالى الذي لا إله إلا هو.

بل إن قول القرآن على لسانه ﷺ: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ (مريم) إثبات منه لعبوديته لله ﷻ، وأنه مخلوق من خلق الله؛ يولد ويموت ويُبعث حيًّا كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (مريم: ٣٤)، يقول الله ﷻ لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى ﷺ: ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (مريم)؛ أي: الذي يختلف فيه المبطلون والمُحِقُّون ممن آمن به وكفر به.

ولما ذكر الله ﷻ أنه خلق عيسى عبدًا نبيًّا نزّه نفسه المقدسة فقال ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ (مريم: ٣٥)؛ أي: تعالى الله عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ (مريم)؛ أي: إذا أراد شيئًا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (مريم)؛ أي: ومما أمر به عيسى قومه - وهو في مهده - أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته.

وفي سورة المائدة بيَّن الله أن عيسى ما هو إلا عبد الله ورسوله يصنع المعجزات بإذن الله؛ إذ إن الله تعالى وحده هو القادر على كل شيء، فقال ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (110)﴾ (المائدة)[1].

ومن جملة ما سلف يَتبيَّن لنا أن الطبيعة البشرية لعيسى عليه السلام قد أقرت بها أناجيلهم، ثم جاء القرآن الكريم وأكَّدها على نحو ما رأينا، ولا تعارض بينهما، فإن المصدر واحد وهو الله عز وجل الذي أنزل كل الكتب المقدسة، وهنا نتساءل: هَل في اتساق القرآن واتفاقه مع ما سبقه ـ مما لم تنله يدُ البشر بالتحريف ـ يشككون؟! أو في وحدة أقوال الله منزلِ هذه وتلك يطعنون؟!

ثانيًا. الشواهد على وقوع التبديل في الكتب المقدسة:

يحسن بنا بادئ ذي بدء أن نشير إلى أننا لا نختلف مع مثيري هذه الشبهة في أن ثمَّة اختلافًا وتعارضًا واضحين بين القرآن الكريم وبين الكتاب المقدس ـ التوراة والإنجيل الذي بين أيدينا الآن ـ في كثير من أمور العقيدة والشريعة، إلا أننا نختلف معهم فيما رتبوه على هذا الاختلاف وذلك التعارض من أن القرآن وهو آخر وحي السماء إلى الأرض ليس إلهيَّ المصدر، لاختلافه مع ما سبقه من كتب سماوية؛ وذلك في كثير من آيات القرآن لأن يد التحريف قد نالت من الكتب السماوية التي سبقته، وهاك الأدلة على ذلك التحريف:

- **من دلائل تحريف التوراة:**

1. **الكذب على الله وأنبيائه:** يؤمن اليهود بالله الواحد الحيِّ القدير الجبار القادر على كل شيء، ومع ذلك فإنهم نسبوا إليه ما يتنافَى مع إيمانهم هذا؛ إذ نسبوا إليه التعب عندما خلق السماوات والأرض، وزعموا أنه استراح في اليوم السابع. وعلى الرغم من أنهم يؤمنون بأن الله يعلم كل شيء فقد نسبوا إليه الجهل بتصرفات آدم، فكتبوا أن الله لم يعلم لماذا أخطأ آدم. وعلى الرغم من أنهم يؤمنون بأن الله قدير نسبوا إليه الندم على خلق الإنسان. ليس ذلك فحسب، بل جعلوا الله ينسَى، ويغضب بلا سبب، بل تمادوا إلى درجة أن جعلوا الله آمرًا بسرقة النساء المصريات قبل خروجهم من مصر!!

وكل ذلك يتنافى مع صفات الله وأفعاله التي حدَّدتها التوراة نفسها لله تعالى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التوراة قد شنَّت أبشع حملة على الأنبياء، فلا يكاد يخلو نبي من أنبيائهم من وَصمَة عار ألحقها به كتبة التوراة؛ فقد نسبوا إليهم الزنا تارة، وزنا المحارم تارة أخرى، والسرقة تارة، وعبادة الأوثان تارة أخرى، حتى إن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ لم ينْجُوَا من تلفيق أمثال تلك التُّهم، ونسبة أبشع الأقوال والأفعال إليهما.

2. **الأسفار المفقودة:** تشير أسفار التوراة إلى أن هناك أسفارًا مهمة مفقودة، لكن المدافعين عن التوراة يعلِّلون فُقْدانها بأنها أسفار غير قانونية استُبعدت عند كتابة التوراة. لكن الحقائق تشير إلى أن الأسفار المفقودة كان معترفًا بها من قِبَلِ أنبياء بني إسرائيل أمثال يشوع، حين تلا المقاطع المفقودة من سفر ياشر عندما كلم الرب بعد انتصاره على الأموريين.

كذلك منسي الذي كان ملتزمًا بتعاليم موسى، وكثير الصلاة، ومستجاب الدعاء، لدرجة أن بني

---

1. حرب الغرب على الإسلام والنبي ﷺ، محمد بن عبد الملك الزغبي، دار الحكمة، القاهرة، ط1، 1427هـ/ 2006م، ص24: 27.

إسرائيل دوَّنوا له سفرًا خاصًّا به تضمَّن صلاته، وأدعيته، ومراثيه في سفر "أخبار الراثين" الذي فُقِدَ تمامًا.

هناك أيضًا سفر "ملوك إسرائيل" الذي فُقِد جزئيًّا، ثم كليًّا، والذي كان يتضمن وصفًا لتوبة منسي، وكيفية تطهيره للهيكل من الأوثان، وتقديم الذبائح لها، وكيفية صلاته، وعبادته، وأفعاله، وخطبه. وكذلك سفر "حروب الرب" الذي تضمن معجزات موسى عليه السلام على شكل أناشيد لم يبق منها إلا بعض المقاطع، علمًا بأن موسى عليه السلام قد كتب هذا الكتاب بأمر الرب. ويبدو أن هذه الأسفار قد أُبيدت كليًّا عن قصد، أو ما تبقى منها عندما بدءوا بكتابة التوراة بهدف إضاعة كافة الأدلة التي تبين تلاعب الكتبة بالتوراة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا سلمنا أن هذه الأسفار قد فُقدت فعلًا دون قصد؛ فإن ذلك يعني أن جزءًا غير قليل من أقوال موسى عليه السلام قد فُقِد، وهذا يُشَكِّل نقصًا خطيرًا في دين أتباع موسى عليه السلام وتلك مشكلة أخرى تضاف إلى مشاكل التوراة!!!

٣. ورود قصص ليس لها معنى: ومن الصعب على عاقل أن يقتنع أن كتابًا من المفترَض أن يكون مقدَّسًا يحوي قصصًا ليس لها معنى، والحقيقة أن هناك الكثير من القصص لا تحوي أي معنى، مثل ما ورد في التوراة: "وحدث في الطريق في المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله، فأخذت صفُّورةُ صوَّانةً وقطعت غُرْلَة ابنها ومسَّت رجليه، فقالت: إنك عريسُ دمٍ لي، فانفك عنه. حينئذ قالت: عريس دم من أجل الختان". (الخروج ٤: ٢٤ ـ ٢٦). وقصة كهذه القصة ليست جديرة أن تُذْكَر في كتاب من المفترض أن يكون وحيًا، أو كتبه مُلْهَمٌ بوحيٍ من روح القدس!!

٤. تناقض بعض النصوص مع العلوم والمعارف: إن كلامًا يصدر عن الله لا بد أن يكون كلامًا علميًّا صحيحًا؛ لأن قائله لا بد وأن يكون عالمًا كلَّ شيء؛ وبناءً على هذه القاعدة قام د. موريس بوكاي بدراسة الكتب السماوية الثلاثة، فتوصل إلى النتيجة التالية حول التوراة: "بنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل؛ أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول. أي: سفر التكوين. فقد وُجِدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا"[1].

وأخيرًا فإن كتابًا يحوي كل هذه الثغرات والمآخذ لا يمكن أن يكون كتابًا موحًى به من الله؛ لأن الله لا يخطئ حسب إيمان جميع المؤمنين به عز وجل.

الأناجيل وإنجيل المسيح عليه السلام الحقيقي:

يعترف المسيحيون بأن إنجيل المسيح عليه السلام الحقيقي مفقود، لكنهم يؤمنون بأن الذين كتبوا الأناجيل بشر قدِّيسون مُلهَمون من الروح القدس، كما يقول د. القس عبد المسيح أسطفانوس: "فالمسيحيون لا يؤمنون بأن الكتاب المقدس كتاب نزل من السماء بكل كلماته وحروفه، ولكنهم يؤمنون بالوحي؛ فقد دوَّن أناس الله القديسون كلمات الكتاب المقدس، كل بأسلوبه المتميز ومفرداته الخاصة. إلا أنهم جميعًا كانوا مسوقين من الروح القدس؛ أي: محمولين أو مدفوعين بعمل الروح

---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٤٨٦: ٥٠٤ باختصار.

القدس فيهم تمامًا، كما تدفع الرياح السفن".

إن مقولة كمقولة د. أسطفانوس جيدة، لكن ينقصها تقديم البراهين التي تثبت أن كتبة الأناجيل قد كتبوها بوحي من الروح القدس فعلًا. وهذا أمر صعب للغاية؛ لأن مضامين الأناجيل لا تدل على أن كُتَّابها قد ألهمتهم روح القدس عندما كتبوا الأناجيل، بل على العكس من ذلك فإن غالبية نصوص الأناجيل تثبت أن كتبة الأناجيل لم يكونوا ملهمين من الروح القدس، كما أن الكتبة لم يكونوا يومًا تلاميذ للمسيح، بل لم يشاهدوا المسيح ﷺ أصلًا، وإن دراسة لشخصية كل كاتب وحياته من كتبة الأناجيل الأربعة - والذين يروق للكنيسة دعوتهم خدَّام الكلمة - تظهر تلك الدراسة أنهم ما عاشوا مع المسيح ولا عاصروه ولا شاهدوا ما جرى معه من أحداث.

وبالطبع فإن إنكارنا لتدخل روح القدس في كتابة الأناجيل الحالية لا يعني رفض كافة نصوص الأناجيل، بل إننا نعني أن هناك نصوصًا صحيحة قد وردت في الأناجيل، وهذا يعني أن هناك شيئًا من الحقيقة في الأناجيل على الرغم من أن الأناجيل لا تحوي كل الحقيقة أو ليس كل ما فيها حقيقة.

ونظرًا لأننا نفترض هذا الاعتراض على صحة الأناجيل، فإنه يتوجب علينا إثبات عدم صحة الأناجيل، أو تقديم الأدلة على أن الأناجيل الحالية محرفة عن الإنجيل الحقيقي للمسيح ﷺ، وهذا ما نفصِّله فيما يأتي من الأدلة:

١. **اندثار نصوص الإنجيل الأصلية:** فمن المعروف والثابت عند الجميع أن المسيح ﷺ كان يتحدَّث اللغة الآرامية - التي كان يتكلمها أبناء منطقته - ومن الطبيعي أن يكون ما يقوله من الكلام المقدس منطوقًا بها، وبالتالي فإن تلاميذه لا بد أن يكتبوا تعاليمه بها على الأقل لتثبت حرفية الكلام الذي كان يقوله المسيح ﷺ.

فخلاصة القول إذن أن الحدود الدنيا لقبول قداسة كتاب تقتضي أن يكون هذا الكتاب مكتوبًا بلغة الوحي التي أُنزل بها على الأقل للمحافظة على حرفية الوحي، في حين أن ثلاثة أناجيل كُتبت باليونانية وواحد باللاتينية، نقول إن هذا من شأنه أن يقلل من شأن الأناجيل الأربعة لكونها فقدت جزءًا من دقتها.

٢. **كُتَّاب الأناجيل لم يكونوا تلاميذ للمسيح:** فالأناجيل الأربعة التي تعتمدها الكنيسة على أنها موثقة كتبها تلاميذ المسيح ليست بقدر الثقة التي منحوها إياها؛ ذلك أن دراسة لشخصية كل كاتب وحياته تظهر أن الكتبة الأربعة ليسوا - من ملازمة المسيح ﷺ - كما تصفهم الكنيسة.

هذا فضلًا عن أن الحَواريِّين: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا - ليس لهم علاقة بالأناجيل المنسوبة إليهم ولم تكن يومًا من تأليفهم، بل هناك من ألفها ونسبها إليهم.

٣. **تناقض الأناجيل الأربعة:** وإذا تجاوزنا تضارب نصوص الأناجيل تضاربًا واضحًا، لدرجة أن القارئ لا يحتاج إلى مزيد جهد ليكتشف هذا التناقض، إذا تجاوزنا التناقض الجزئي لنقف على تناقض الأناجيل الأربعة في الأمور الأساسية التي يقوم عليها الإيمان المسيحي، نجد أن الأناجيل الأربعة تعطي روايات متضاربة تصل إلى مرحلة التعارض التام في بعض الأحيان في مسائل لا ينبغي أن تكون محل ذلك التعارض مثل:

الولادة العذراوية للمسيح: حيث يهمل كل من إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا ذكر الولادة العذراوية الإعجازية للمسيح، لكن متى يكتفي بالإشارة إلى أن مريم حملت بالمسيح من الروح القدس فقط (١، ١٨)، أما لوقا فذكر بعض التفصيلات عن ولادة المسيح العذراوية (١: ٢٦-٣٨).

وما كان المسيحيون ليختلفوا لو أن الأناجيل الأربعة ذكرت تفاصيل الولادة الإعجازية للمسيح، وإن عدم ذكر هذه الولادة الإعجازية هو ما يدعو إلى الشك والريبة في صحة الأناجيل الأربعة، أو على الأقل عدم دقتها وموضوعيتها.

ومثل هذا التضارب والتناقض الفج نجده في بعض أصولهم الإيمانية الأخرى مثل صلب المسيح وقيامته وصعوده السماء، مما يبرهن بوضوح على أن آباء الكنيسة قد بنوا آراءهم دون أصول إنجيلية ثابتة؛ وذلك أن كتبة الأناجيل أنفسهم لم يكونوا تلاميذَ أو شهودًا للمسيح، كما أنهم لم يكونوا مُلْهَمين من الروح القدس عندما كتبوا أناجيلهم؛ لسبب بسيط وهو أنه من غير المعقول أن يملي الروح القدس إملاءات متناقضة على أربعة كان من المفترض أن مصدر إلهامهم واحد.

٤. **التلاعبات اللفظية:** ومعلوم أنه لا تستطيع لغة استيعاب لغة أخرى عند تحويل نص من لغة معينة إلى لغة أخرى، وهذا متفق عليه، أما أن تستخدم كلمة استخدامًا خاطئًا مقصودًا لإعطاء كلمة في لغة معينة معنى لا يقترب من الأصل أبدًا عند تحويلها إلى اللغة الأخرى - فهذا غير المتفق عليه، وقد وقعوا فيه حين راحت الترجمات تميِّع المعاني إلى درجة عكس المقصود منها والتضليل أحيانًا، مثلما حدث في كلمات: (الآب - إنجيل - باراكليتوس) وغيرها.

على أن التلاعب اللفظي في الترجمة يظهر فيه أنه كان مقصودًا، ولم يكن خطأً وقع فيه المترجمون عفوًا، وهو ما ألحق بالأناجيل مصيبة كبرى، بل وبالمسيح نفسه.

٥. **ضياع أصول الأناجيل تمامًا:** ومن غير المعقول أن نقبل بقداسة هذه الكتب بعدما ثبت أن مُؤَلِّفيها بشر، تصرَّفوا فيها كلٌّ حسب وجهة نظره التي أراد أن يقنع بها قراءه، مع ملاحظة أن الأصول الأساسية لهذه الأناجيل غير موجودة حاليًّا.

٦. **اختلاف الطبعات المتلاحقة للأناجيل:** تختلف طبعات الأناجيل وفقًا للمذهب المسيحي، إذ إن لكل مذهب مسيحي طبعة خاصة، وبالرغم من ذلك فإن الطبعة الواحدة للمذهب نفسه تختلف عن التي تليها. إن هذا الاختلاف يدل على أن المسيحية أعطت لنفسها الحق في تعديل كل نص لا يتوافق مع توجهاتها الإيمانية؛ الأمر الذي يضعف الثقة بالأناجيل إلى درجة كبيرة[1].

والآن بعد أن وقفنا على حقيقة ما في التوارة والإنجيل - على حد سواء - من تحريف أدت إليه أسباب معينة في مناخ معين لا يهمنا نحن استكناه مكنونه، ولا استبطان مجهوله، كل ما يعنينا - في هذا الصدد - جملة من الأدلة المنطقية التي لا يكاد ينكرها منصف تعضد ما هو واقع فيهما - على الحقيقة - من تحريف.

وإن ثبوت تلك الأدلة وحجيتها من جهة، وإقرار بعض منصفيهم بمؤدى تلك الأدلة من جهة ثانية، لمن

١. المرجع السابق، ص٥٠٩: ٥٣٧ باختصار.

شأنه أن يعضد موقف المسلمين وينزههم عن اتهام الكتاب المقدس بما ليس فيه، وينزه القرآن ــ أيضًا وبشكل ضمني ـ فليس أهله بحاجة للطعن في غيره إثباتًا لعصمته؛ فالعصمة قائمة فيه بذاته.

وإذ ثبت في ذهننا أن التحريف الواقع في الكتاب المقدس حقيقة، وأيقنا أن المسلمين ليسوا بحاجة لتنزيه القرآن بذمهم غيره من الكتب، فلا يعنينا في نهاية المطاف على لسان مَنْ ظهرَ الحقُّ: أَعَلَى لسانِ المسلمين أَمْ على لسان غيرهم؟ ما دام حقًّا واقعًا بالفعل®.

الخلاصة:

- إن الصورة التي رسمها القرآن للسيد المسيح لا تختلف كثيرًا عن صورته التي تستمد من عدة نصوص في الإنجيل؛ إذ المسيح عليه السلام في القرآن عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وهو في الأناجيل ـ فيما لم يُحَرّف ـ نبي كما جاء على لسانه، وكما شهد بذلك أمامه معاصروه، وهو يصلي لله ويسجد، ويأكل ويشرب كما هي حال سائر المرسلين، ومن عجب أن الذين يغلون فيه فيجعلونه إلهًا هم من ينفردون باعتقاد محاكمته وصلبه!!

- إن ما يؤمن به المسلمون من تحريف الكتاب المقدس ليس افتراء منهم؛ بل هو الحقيقة المؤكدة التي يعترف بها كثير من علماء اللاهوت.

- إن في التوراة من الكذب على الله وأنبيائه، ومن أسفار مفقودة، وقصص لا معنى لها، وتناقض صريح مع العلوم والمعارف وغير ذلك ــ ما يثبت أن كتابًا به كل تلك المثالب لا يمكن أن يكون وحيًا على الإطلاق.

- لا يبعد الإنجيل عن التوراة في مظنة التحريف بما فيه من اندثار نصوص أصلية، وتناقض بعضه مع بعض، وتلاعبات لفظية، وضياع أصوله تمامًا، واختلاف طبعاته، وفي هذا كله ما يبرهن على الحقيقة ذاتها وهي إلهية مصدر القرآن الكريم وعصمته من الخطأ والتحريف.

® في "اعتراف التوراة وعلماء اللاهوت بتحريف الكتاب المقدس" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الأولى، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

الشبهة الخامسة عشرة

إنكار ربانية الوحي المحمدي لما فيه من نَسْخ(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين إلهية الوحي المحمدي وربانيته، ويستدلون على ذلك بوجود النَّسخ في أقواله ﷺ وأفعاله، لا سيما في الأمور التعبُّدية، ويرتبون على ذلك وقوع التناقض في تشريعات القرآن على لسانه ﷺ، ويمثِّلون لذلك بحدث "تحويل القبلة". هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في مصدر الوحي الإلهي؛ لوجود النسخ فيه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن أقوال النبي ﷺ وأفعاله كلها مستندة إلى وحي إلهي، فليست الأحكام المنسوخة والناسخة إلا

(*) شغب اليهود على الأنبياء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، د. ت..

جزءًا من تعاليم الإسلام التي بلَّغها النبي ﷺ كلها عن ربه ﷻ، ولو كان النسخ من اختراعه ﷺ لما أبقى ﷺ على بعض الآيات المنسوخة تُتلى جنبًا إلى جنب مع الآيات الناسخة.

٢) ليس في حدث تحويل القبلة أيّ تناقض، ثم إنه كان بوحي من الله ﷻ، ولعل إحساس اليهود بنكسة دينية كبرى عندما خالفهم النبي ﷺ في قبلتهم، هو ما دفعهم إلى اختلاق الافتراءات الكاذبة على النبي ﷺ.

٣) ليس الإسلام بدعًا من الشرائع في أمر النسخ؛ وذلك أنه كان موجودًا في الشرائع السماوية السابقة. ثم إن ثمة حِكَمًا إلهية جليلة تقف وراء النسخ في الشريعة الإسلامية.

التفصيل:

أولا. النبي ﷺ لا ينطق عن الهوَى:

لا ينكر أحد من المنصفين أن النبي ﷺ لا يخرج نطقه إلا بوحي من الله ﷻ؛ فأقواله ﷺ وأفعاله كلها مستندة إلى وحي رباني، وهو ﷺ بريء كلَّ البراءة من نسبة أمر النسخ لبعض أحكام التعاليم الإسلامية إليه ﷺ، يقول الله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)، يقول الإمام القرطبي في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة: "هذه آية عظمى في الأحكام، وسببها أن اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجه إلى الكعبة، وطعنوا في الإسلام بذلك، وقالوا: إن محمدًا يأمر أصحابه بشيء، ثم ينهاهم عنه، فما كان هذا القرآن إلا من جهته، ولهذا يناقض بعضه بعضًا، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)، فمعرفة هذا الباب - النسخ - أكيدة وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء، لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام ومعرفة الحلال من الحرام"[1].

وواضح من الآية السابقة أن وقوع النسخ في أقوال النبي ﷺ وأفعاله لم يكن من عند نفسه ﷺ، ولكنه من عند الله ﷻ، وليس النبي ﷺ إلا مبلِّغًا عن ربه ﷻ، فكل تصرفاته ﷺ مستندة إلى وحي إلهي.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم)، "يقول قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه، إن هو إلا وحي يوحى"؛ أي: ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو بوحي من الله ﷻ، وفي هذه الآية دلالة على أن السنة كالوحي المنزَّل في العمل[2]؛ لأن كليهما وحي من عند الله ﷻ.

وإنا نخاطب مثيري هذه الشبهة قائلين لهم: هلَّا درستم علم "الناسخ والمنسوخ" - وهو أحد علوم القرآن الهامة - وتعلمتموه، قبل أن تفتروا على القرآن الكريم، وعلى مَنْ أُنزل إليه!!

ونخاطبهم مرة ثانية قائلين لهم: لو سلمنا جدلًا بأن محمدًا ﷺ هو مخترع مبدأ النسخ لإزالة ما يخالف هواه، أما كان من الأولى - والحال هكذا - أن يقوم بحذف الآيات المنسوخة وإزالتها من المصاحف المكتوبة؟! أليس من الغريب أن تترك بعض الآيات المنسوخة جنبًا إلى جنب مع الآيات الناسخة؟!

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢، ص٦١، ٦٢.
٢. المرجع السابق، ج١٧، ص٨٤، ٨٥.

والحق أن ذلك ليس من الأمور الغريبة كما نظن؛ لأن الأمر ببساطة، غير متعلق بإرادة محمد ﷺ بل هي إرادة الله ﷻ فهو الذي ينسخ ويُبقي، وهو الذي يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، يقول ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)، ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (النحل).

والمتأمل في القرآن الكريم يجد الكثير من الآيات التي نُسخت في الحكم، ولكنها بقيت تُتْلَى مع سائر الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢)، فقد نسخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: ١٣)، وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤) نسخ بقوله ﷻ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، نسخ بقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، منسوخ بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ (الأنفال: ٦٥) نسخ بقوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ (الأنفال: ٦٦).

وغير ذلك من الآيات الكثير الذي نسخ حكمه، وبقيت تلاوته[1].

وما ذكرناه كاف للتدليل على بطلان دعوى المشككين الذين يزعمون أن النبي ﷺ هو مخترع النسخ؛ ليغير ما شاء أن يغيره، ويزيل ما لا يوافق هواه؛ لأن الأمر - كما سبق أن قلنا - لو كان بيده ﷺ لحذف الآيات المنسوخة من القرآن الكريم ولما أبقى عليها، وقد صدق الله ﷻ إذ يقول عن نبيه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس:١٥).

ثانيًا. إلهية الأمر بتحويل القبلة:

لقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "بينما الناس بقُبَاء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنزِل عليه الليلة قرآن، وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة"[2].

١. انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٢٣٥: ٢٣٧.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب القبلة، باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها (٣٩٥)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (١٢٠٦).

وعن البراء أن النبي ﷺ صلَّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلَّى أول صلاة صلَّاها العصر وصلَّى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلَّى معه ﷺ فمرَّ على أهل المسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله، لقد صلَّيت مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت[1].

فأنزل الله ﷻ في حديثه عن هذا الحدث التاريخي (حدث تحويل القبلة) قوله ﷻ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (البقرة).

والمراد من "السفهاء" جميع من قال "ما ولاهم". و"السفهاء" جمع، واحده "سفيه"، وهو الخفيف العقل، من قولهم: ثوب سفيه، إذا كان خفيف النسج، وقيل: السفيه البهَّات والكذَّاب المتعمِّد خلاف ما يعلم، وقيل: الظلوم الجهول.

وقد اختلف المفسرون في بيان المقصود من قوله ﷻ: ﴿ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ في هذه الآية؛ فقال بعضهم: اليهود الذين بالمدينة، وقال بعضهم: المنافقون، وقال الزجَّاج: كفار قريش لما أنكروا تحويل القبلة قالوا: قد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم، وقالت اليهود: قد التبس عليه أمره وتحيَّر، وقال المنافقون: ما ولاهم عن قبلتهم، واستهزءوا بالمسلمين[2].

ونوضح ما ذكره المفسرون بما ذكره د. أحمد شلبي في موسوعته "التاريخ الإسلامي" مختصرًا، يقول: أما المكان الذي اتجه له المسلمون في صلاتهم قبل الهجرة، فهو الكعبة؛ لأنها بيت الله العتيق، وبناء إبراهيم، وموضع فخار العرب. ويقول في الهامش: الصلاة قبل الهجرة كانت اجتهادًا من الرسول ﷺ واستمرارًا لتعظيم الكعبة.

غير أن بعض المسلمين الأُول ظنوا في اتجاههم للكعبة أن المكان نفسه معظَّم، فأراد الله ﷻ أن يعلمهم أن اتجاههم إنما هو في الحقيقة لوجهه تعالى، وليس فضل الكعبة إلا لأن هذا المكان شهد دين سيدنا إبراهيم عليه السلام، وشهد عبادة الله منذ آلاف السنين، ولكن إذا تعلَّق بعض العرب بالكعبة تعلقًا ذاتيًّا، وغفلوا عن أن الاتجاه إنما هو لله ﷻ، فقد اتجهت حكمة الله أن يختار مكانًا آخر؛ ليختبر عمق إيمان المسلمين وطاعتهم، وليثبت في نفوسهم هذه الحقيقة الهامة، وهي أن الاتجاه يجب أن يكون لله ﷻ.

ولهذا اختار الله ﷻ للمسلمين قبلة جديدة عقب الهجرة، وهي الاتجاه لبيت المقدس، ثم ظهرت عوامل أخرى، فقد كان بيت المقدس قبلة اليهود، فإذا بهؤلاء يأخذون من اتجاه المسلمين إلى قبلتهم وسيلة للسخرية منهم، وانطلقوا يقولون: محمد لا يتبع ديننا، ويتبع قبلتنا، وشقَّ على المسلمين أن يتجهوا إلى قبلة اليهود، ولكنهم استجابوا بكل قوة وإيمان لأمر ربهم، متحملين سخرية اليهود.

وقد توقع الرسول ﷺ ووقع في روعه أن الله ﷻ سيحوله إلى الكعبة مرة أخرى، وكان ﷺ يتطلع إليه تعالى في صمت ودون دعاء، آملًا أن يحقق له ذلك؛

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان (٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (١٢٠٤).
2. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٨ بتصرف.

إرضاء للمسلمين وردًّا على سخرية اليهود، وقد عبرَّ الله تعالى عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وكان ذلك إذنًا للمسلمين بالعودة إلى قبلتهم الأولى. وكان تحول القبلة إلى بيت المقدس بعد الهجرة بقليل، وصرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة[1].

إذن فليس تحويل القبلة إلى الكعبة الشريفة تبعًا لهوى النبي ﷺ، وإنما هو بأمر الله له ولأصحابه، ولا بد للجميع أن ينقاد لأمر الله ﷻ حتى ينال الأجر والثواب.

ثالثًا. ليس الإسلام بدعًا من الشرائع في أمر النسخ، وقد شرعه الله ﷻ لحِكَمٍ تشريعية سامية:

النسخ في اللغة: يطلق بمعنى الإزالة، ومنه يقال: نسخت الشمس الظلَّ: أي أزالته.

وفي الاصطلاح: رفْع الحكم الشرعي بخطاب شرعي.

وقد تنزلت التشريعات السماوية من الله ﷻ على رسله لإصلاح الناس في العقيدة والعبادة والمعاملة، وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية، فقد اتفقت دعوة الرسل جميعًا إليها: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ (الأنبياء).

أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق في الأسس العامة التي تهدف إلى تهذيب النفس، والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها، وما يلائم قومًا في عصر قد لا يلائمهم في آخر، ومسلك الدعوة في طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء، فحكمة التشريع في هذه غيرها في تلك، ولا شك أن المشرِّع ﷻ يسع كل شيء رحمة وعلمًا، ولله الأمر والنهي: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾ (الأنبياء). فلا غرابة في أن يُرفع تشريع بآخر؛ مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر. ومن هنا يُعلم أن النسخ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي، سواء أكانت صريحة في الطلب، أم كانت بلفظ الخبر الذي بمعنى الأمر والنهي[2].

والمتأمل يجد أن النسخ بالمعنى السابق موجود في الشرائع السماوية السابقة على الإسلام، كاليهودية، والنصرانية، فنجد أن اليهود يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها، وجاء في نصوص التوراة النسخ، كتحريم كثير من الحيوانات على بني إسرائيل بعد حِلِّه، قال ﷻ في إخباره عنهم: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ﴾ (آل عمران: ٩٣). وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ (الأنعام: ١٤٦)،

١. موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٨٩م، ج١، ص٢٩٤: ٢٩٦ بتصرف يسير.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٢٢٣: ٢٢٥ بتصرف.

وثبت في التوراة أن آدم كان يزوِّج أبناءه من الأخت، وقد حرَّم الله ذلك على موسى، وأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم.

أما بالنسبة للنصرانية، فقد أقرت أيضًا بوجود النسخ، وكَلَّمَ الربُّ موسى قائلًا: "كَلِّم بني إسرائيل قائلًا: إذا حبلت امرأة وولدت ذكرًا تكون نَجِسة سبعة أيام، كما في أيام طَمْث عِلَّتها تكون نجسة، وفي اليوم الثامن يُختَن لحم غُرْلَته، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يومًا في دم تطهيرها، كل شيء مقدَّسٍ لا تَمَسَّ، وإلى المقدِس لا تجيء حتى تَكمُل أيام تطهيرها، وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طَمثها، ثم تقيم ستة وستين يومًا في دم تطهيرها". (اللاويين ١٢: ١ـ ٥). وربما كان اليهود يأخذون بهذا إلى اليوم، لكن من الذي نسخ هذا وعدله للمسيحيين الذين لا يفرقون بين من ولدت ذكرًا ومن ولدت أنثى[1]؟!

فمبدأ النسخ إذن لم يكن بدعة محمدية كما يزعمون، بل كان من الأمور التي أقرتها الأديان السماوية السابقة، فهل يقال: إن موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ هما اللذان اخترعا مبدأ النسخ لإزالة ما يخالف إرادتهما؟!

الحِكَم التشريعية التي تقف وراء النسخ:

وقع النسخ بالشريعة الإسلامية ووقع فيها؛ بمعنى أن الله ﷻ نسخ بالإسلام كل دين سبقه، ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض، وإن لكلا النَّسْخَيْن حكمًا ومقاصد إلهية:

أما حكمته ﷻ في أنه نسخ به الأديان كلها، فترجع إلى أن تشريعه أكمل تشريع يفي بحاجات الإنسانية في مرحلتها التي انتهت إليها، بعد أن بلغت أَشُدَّها واستوت. أما حكمة الله في أنه نسخ بعض أحكام الإسلام ببعض؛ فترجع إلى سياسة الأمة وتعهدها بما يرقِّيها ويمحِّصها.

وتلك الحكمة على هذا الوجه، تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ، كموقف الإسلام في سموه ونبله من مشكلة الخمر في عرب الجاهلية بالأمس، وقد كانت مشكلة معقدة كل التعقيد، يحتسونها بصورة تكاد تكون إجماعية، ويأتونها لا على أنها عادة مجردة، بل على أنها أمارة القوة، ومظهر الفتوة وعنوان الشهامة! فهل كان معقولًا أن ينجح الإسلام في فطامهم عنها، لو لم يتألفهم ويتلطَّف بهم إلى درجة أن يمتنَّ عليهم بها أول الأمر، كأنه يشاركهم في شعورهم، وإلى حد أنه أبى أن يحرِّمها عليهم في وقت استعدت فيه بعض الأفكار لتسمع كلمة تحريمه، حين سألوه ﷺ عن الخمر والميسر.

أما الحكمة في نسخ الحكم الأصعب لما هو أسهل منه، فالتخفيف على الناس ترفيهًا عنهم، وإظهارًا لفضل الله عليهم ورحمته بهم، وفي ذلك إغراء لهم على المبالغة في شكره وتمجيده، وتحبيب لهم فيه وفي دينه. وأما الحكمة في نسخ الحكم بمساويه في صعوبته، أو سهولته، فالابتلاء والاختبار؛ ليظهر المؤمن فيفوز، والمنافق فيهلك، ليميز الخبيث من الطيب[2].

---

١. محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار المريخ، الرياض، ط٢، ٢٠٠٤م، ص٧١ مقدمة المترجم.

٢. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٢، ص١٥٤، ١٥٥ بتصرف.

ويبين لنا د. أحمد بن منصور آل سبالك حكمة النسخ فيقول: بعد أن تكاثر أبناء آدم وتوزعوا في الأرض جرت حكمة الله ﷻ ألا يدعهم وشأنهم، وإنما كان يتعهدهم بالأنبياء والرسالات التي ـ وإن اتفقت في الأصول ـ تنوعت في الشرائع، والأحكام والفروع، ذلك أن الشرائع قد روعي فيها طبيعة كل قوم، والمرحلة التي يمرون فيها والمصالح التي تخصهم، ومن ثم كان لا بد من اختلاف الشرائع باختلاف الزمان، والمكان، والأقوام.

يقول الله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: ٤٨)، وبناءً على ذلك كانت الشرائع اللاحقة تنسخ بعض أحكام الشرائع السابقة كما نسخت شريعة عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام والمشار إليها في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ (آل عمران: ٥٠).

أما شريعة محمد ﷺ فقد جاءت للناس كافة وللبشرية عامة، ومن هنا كانت ناسخة لكل ما تقدمها من الشرائع؛ لأنها الشريعة المتوافقة مع الفطرة. يقول الله ﷻ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: ٣٠).

ولما كان الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لا يمكن أن يتم طفرة، وبين عشية وضحاها، كان لا بد أيضًا من بعض الأحكام الانتقالية المؤقتة في الشريعة الخاتمة، ومن هنا كانت حكمة النسخ في الشريعة الإسلامية.

فعلى الرغم من أن الشريعة الإسلامية نسخت الشرائع السابقة لها، ومع أنها باقية خالدة إلى يوم القيامة، ولا يصح نسخها بشريعة أخرى، فإن مدة نزول القرآن، وهي مدة التحول من الجاهلية إلى الإسلام كان لا بد لها من أحكام خاصة، حتى إذا انتهت هذه المدة انتهى النسخ، ومن هنا كان النسخ خاصًّا بتلك المدة الزمنية التي كان يتنزل فيها الوحي. وبانقطاع الوحي، انقطع النسخ.

وأما الأحكام التي نُسخت في الشريعة الإسلامية، فقد كانت الحكمة في بعضها التدرج في التشريع، وذلك في الأحكام الشاقة على النفوس، سواء أكانت منهيات، كتحريم الخمر والزنا، أم مأمورات كتشريع الصوم والجهاد، وكانت الحكمة في بعضها مراعاة مرحلة الانطلاق والتأسيس التي تحتاج إلى جهد كبير، ومن هنا كان فرض قيام الليل، ووجوب الثبات أمام المشركين، ثم خففت ذلك بعد أن كثر عدد المسلمين، وازدادت قوتهم، فعاد الأمر إلى طبيعته المعتادة، فأصبح قيام الليل سُنة، والوقوف أمام اثنين من المشركين هو الواجب.

وراعى بعضٌ ثالثٌ أمورًا تربوية كنسخ القبلة، ونسخ الصدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ، فقد كان ذلك اختبارًا لثبات المؤمن وعدم ثبات المنافق، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وراعى بعضٌ رابعٌ ظروفًا مكانية أو زمانية، كالقتال في الحرم، أو في الأشهر الحرم، وأمثال ذلك[1].

---

١. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك، معهد علوم القرآن والحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٩٤، ١٩٥.

ومما لا شك فيه أن الصحابة الكرام ﷺ والتابعين من بعدهم كانوا على دراية تامة بالناسخ والمنسوخ، حتى يمكنهم العمل بما هو متأخر، سواء كان في القرآن الكريم، أو في السنة النبوية الشريفة، ولم يكن ذلك إلا ضمن قضايا تفسير القرآن الكريم، ولذلك ورد النهي عن أن يتحدث في تفسير القرآن الكريم من لا يعرف ناسخه من منسوخه، على أن كل من تعرض لتفسير القرآن الكريم كان يتعرض لقضية النسخ، وكذلك الذين كتبوا في أصول الفقه كانوا يتعرضون لذلك أيضًا[1].

مما سبق يتضح لنا أن من أهم حِكَم النسخ:

- مراعاة مصالح العباد.
- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس.
- ابتلاء المكلَّف واختباره بالامتثال وعدمه.
- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها؛ لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر[2].

وبهذا يتبين لنا أن القرآن الكريم وحي من عند الله ﷻ، وليس للنبي ﷺ دَخْل فيه، وأن النسخ كما وقع في الشريعة الإسلامية فقد وقع في الشرائع السابقة للإسلام، فليس الإسلام بدعًا في ذلك، وكان تحويل القبلة بأمر من الله ﷻ، إلا أن اليهود لحقدهم وغيظهم أخذوا يروجون الادعاءات والأباطيل حول هذا الحادث العام في تاريخ الإسلام®.

الخلاصة:

- لا ينطق النبي ﷺ عن هواه؛ فأقواله وأفعاله كلها مستندة إلى وحي إلهي، وليست الأحكام المنسوخة والناسخة التي جاء بها - إلا جزءًا من تعاليم الإسلام التي بلَّغها ﷺ كلها عن ربه ﷻ، ولو كان النسخ من اختراعه ﷺ كما يزعم الزاعمون لما أبقى على بعض الآيات المنسوخة تُتْلى جنبًا إلى جنب مع الآيات الناسخة.
- لا دخل للنبي ﷺ في حدث تحويل القبلة، وما كان هذا التحويل إلا بوحي منه ﷻ إليه ﷺ، وغاية ما هنالك أنه ﷻ أمر، فامتثل النبي ﷺ له، ثم إن ثمة حكمًا إلهية كثيرة وقفت وراء هذا الحدث.
- ليس الإسلام بِدعًا من الشرائع في أمر النسخ، وذلك أنه كان موجودًا في الشرائع السماوية السابقة، فهل يقال: إن موسى وعيسى - عليهما السلام - هما اللذان اخترعا مبدأ النسخ؛ بُغية إزالة ما يخالف إرادتهما؟!



1. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، د. شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط1، 1408هـ/ 1988م، ص162.
2. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص232.

® في "تحويل القبلة كان امتثالا لأمر الله ﷻ" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي "الحكمة من وقوع النسخ في الشريعة الإسلامية" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

الشبهة السادسة عشرة

الزعم أن محمدًا ﷺ كان داعيًا اشتراكيًّا لا رجل دين(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن النبي ﷺ كان داعيًا اشتراكيًّا يهدف إلى تحقيق العدالة في المجتمع العربي، وليس رجل دين. ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ تشدَّد في الزكاة التي هي في حقيقتها ضريبة إلزامية بهدف توزيع الثروات على أفراد المجتمع. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في حقيقة دعوته، ونسبتها إلى الإصلاح الاجتماعي دون الوحي السماوي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إذا لم يَصِحَّ أن يوصَف محمد ﷺ بأنه رجل دين، فمن ذا الذي يستحق أن يوصف بالتدين؟! فالبشرية قاطبة لم تشهد - ولن تشهد - رجلا أخلص في عبادة الله والدعوة لتوحيده مثل محمد ﷺ.

٢) لقد أقر الإسلام الملكية الفردية، وحماها إلى أقصى الحدود، وأعلن النبي ﷺ أنه: "لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه"، بعكس النظام الاشتراكي الذي لم يعترف إلا بالملكية العامة "ملكية الدولة".

٣) إن حقيقة الزكاة تختلف تمامًا عن حقيقة الضرائب الإلزامية، فهي أساس العدالة الاجتماعية في الإسلام، وهي فرض على الأغنياء؛ مواساة لإخوانهم الفقراء، وقضاءً لحق الأخوة، وهي أعظم دليل على تكافل المجتمع الإسلامي وتضامنه.

التفصيل:

أولا. النبي ﷺ أعظم متدين عرفته البشرية:

إن المرء ليعجب أشد العجب من هؤلاء الذين ينفون عن محمد ﷺ صفة التدين ويصفونه بغيرها من الصفات التي يتساوى فيها الكثير من البشر؛ لأن البشرية قاطبة منذ آدم ﷺ إلى أن تقوم الساعة لم تشهد ولن تشهد رجلًا أخلص في عبادة الله والدعوة لتوحيده مثل محمد ﷺ؛ فالمتأمل في سيرته العطرة يجدها مثالًا جليًّا لعبادة الله ﷻ وطلب مرضاته، فقد كان النبي ﷺ لا يفعل شيئًا إلا لله، فكان يحب إذا أحب لله ويكره إذا كره لله، ولم يغضب ﷺ لنفسه قط، بل كان يغضب إذا غضب لله ﷻ، فكانت حياته كما أمره ربه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ (الأنعام).

ومن أكبر الدلائل على إخلاصه ﷺ في عبادة الله:

١. **ثباته على الدعوة لله رغم الإيذاء والإغراء:**

أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالدعوة إليه بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية، وأمره أن يبدأ أولًا بدعوة أهله وعشيرته والقوم الذين بُعث فيهم، فامتثل ﷺ أمر ربه وجمع قومه وأخبرهم بأنه رسول الله إليهم بشيرًا ونذيرًا، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، ونهاهم عن اتباع الآباء والأجداد وتقليدهم في معتقداتهم الباطلة.

فلما سمعوا ما جاء به ﷺ طار صوابهم، واستعظموا عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وأجدادهم، فناصبوه العداء الشديد، وتنكَّروا لدعوته،

(*) محمد رسول الله ﷺ، إتيين دينيه، سليمان بن إبراهيم، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٥م.

وسعوا جاهدين لصدِّه وصرفه عنها بكل الطرق وشتى الوسائل، ومن هذه الطرق التي سلكوها لصده ﷺ السخرية والاستهزاء باللفظ، والإيذاء البدني له ﷺ ولأصحابه، فقد ألقوا عليه سَلَا[1] الجَزور، وأدموا عَقِبَيْه[2] واتفقوا على قتله، وحاربوه في مدينته، وشجُّوا رأسه، وكسروا رَباعيته[3]، وعلى الرغم من كل ذلك تحمَّل النبي ﷺ ابتغاء لمرضاة ربه ﷻ، ولم يتراجع أبدًا عن هذه الدعوة التي أَلَّبَتْ عليه الأعداء من كل جانب، ولم يهادن فيها، ولم يساوم عليها، مثلما يفعل غيره من طلاب الدنيا.

٢. عبادته لله في السر والعلن قبل البعثة وبعدها:

لقد كان ﷺ قوَّامًا لله تعالى طالبًا مرضاته، فلم يك يعرف قبل البعثة إلا دين إبراهيم - وإن كان ناله التحريف - فقد عرف ما يكفيه لأن يكون عابدًا يطلب رضا الله تعالى، وقد صَفَتْ نفسه فأدركت، وخلص قلبه فَأُلْهِم، وعلم أن ملة إبراهيم كانت الفطرة المستقيمة والحنيفية السمحة فاختارها وسلك سبيلها.

فالعبادة المتجهة إلى الله ﷻ كانت في قلبه ونفسه وكيانه وخلقه، قبل أن ينزل عليه كتاب هادٍ قد أذهب حيرته، ووجد الكتاب ينير له السبيل، ويفصل في الأحكام، ولا شك أن العبادة تكون أهدى بعد هذا التنزيل، وأنها في الجاهلية قبل البعثة كانت في قلبه بذرة صالحة نمت؛ لأنها كانت في أرض طاهرة خصبة، ولم يكن لها سقي ولا رعي، ومع ذلك آتت أكلها؛ فبعد البعثة المحمدية جاءها السقي والرعي فَرَبَتْ ونمت، وازدهرت في قلب مخلص مدرك، وصار قريبًا من الله تعالى بقلبه الطيب المخلص، وبمعرفة شرعه تعالى، وباتصال الوحي به دومًا من غير انقطاع، فكان بذلك أعبد خلق الله تعالى، وكلما ازداد علمًا بالله وشرعه ازداد عبادة وخوفًا من الله وإرضاءً له، ولقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت[4] السماء، وحق لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربعة أصابع إلا عليه مَلَكٌ واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا"[5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه شيئًا، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئًا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مُصلِّيًا إلا رأيته، ولا نائمًا إلا رأيته[6].

وقد جاء عنه ﷺ: أنه قام حتى تَوَرَّمَتْ قدماه، فقيل له: أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: "أفلا أكون عبدًا شكورًا"[7].

---

١. السَّلا: غشاء رقيق يحيط بالجنين، ويخرج معه من بطن أمه، أو ما يسمَّى "المَشِيمة".

٢. العَقِب: العظمة مؤخرة القدم.

٣. الرَّباعية: مقدمة الأسنان.

٤. أَطَّت السماء: صاحت وأَنَّت من كثرة ازدحام الملائكة والساجدين منهم.

٥. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب رضي الله عنه (٢١٥٥٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

٦. أخرج البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل ونومه (١٠٩٠).

٧. أخرج البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الفتح: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ ﴾ (٤٥٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٧٣٠٢).

ولقد ثبت عن أبي الدرداء أنه قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديد، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة"[1].

وعن علقمة قال: سألت أم المؤمنين عائشة قلت: كيف كان عمل النبي ﷺ؟ هل كان يخصُّ شيئًا من الأيام؟! قالت: "لا، كان عمله دِيمَة[2]، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع"[3].

وهكذا نرى عبادته ﷺ فيها ذكر دائم، وتلاوة للقرآن دائمة، وكان يُحرِّضُ أصحابه على أن يقرءوا وهو يسمع، فإذا ذكَّروه بأن القرآن نزل على قلبه، قال لهم إنه يحب أن يسمعه من غيره.

ومع دوامه على العبادة التي وصفها القرآن الكريم ودعا إليها وبيَّنها، كان إذا سكت عن القيام بصلاة أو إرشاد عام، يتفكَّرُ في آلاء الله، ويتأمَّلُ في خلقه؛ ليدرك عظمته وكمال سلطانه، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التي ابتدأ بها قبل أن يُوْحَى إليه، وكان كثير الاستغفار؛ لأن الاستغفار عبادة في ذاته؛ لأنه إحساس بوجوب الالتجاء إلى الله، وفيه إحساس بقصور ما يؤدي العبد من العبادة، واستصغار العمل إحساس بالحاجة إلى الله والقرب منه، وإلى عظمته وجلاله، وشعور بأن عمله - مهما يكن كبيرًا - صغير بالنسبة لله تعالى، ومن يستكثر حسناته كأنه يَمُنُّ على الله تعالى في هذه العبادة، وإن الشعور بالاستغفار والالتجاء إليه بُعدٌ عن المنِّ؛ لذا كان سيد العابدين ﷺ يحصِّن عبادته بالاستغفار، حتى لا يكون منه منَّ الاستكثار ﷺ[4].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[5].

هكذا كان حال النبي ﷺ في علاقته بربه عز وجل، فكيف يقال بعد ذلك: إنه لم يكن رجل دين، وإنه مجرد داعٍ اشتراكي لتوزيع الثروات؟! هذا ما لا يمكن أن يقوله عاقل أو يقرُّ به منصف.

ثانيًا. مفهوم التملُّك في النظامين الإسلامي والاشتراكي:

قبل الحديث عن النظام المالي الذي جاء به محمد ﷺ يحسن بنا أن نتكلم بشكل عابر عن أنظمة التملُّك السائدة في العالم؛ ليتبين الفرق العظيم بين نظام إلهي وهو نظام الإسلام، وبين الأنظمة الوضعية التي هي من صنع البشر.

فمن المعلوم بداهة أن هناك نظامين عالميين لمفهوم التملُّك، وهما يختلفان كل الاختلاف من ناحية النظرية والمبدأ والتطبيق، بل يتناقضان كل التناقض:

الأول: نظام الملكية الفردية أو المذهب الحر: وهذا النظام طابعه الأساسي هو الفردية التامة والحرية

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب إذا صام أيامًا من رمضان ثم سافر (١٨٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر (٢٦٨٦).
2. الدِّيمة: الدائم المستمر.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (١٨٨٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١٨٦٥).
4. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٦: ٢٠٨ بتصرف يسير.
5. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٥٩٤٨).

الواسعة في اقتناء المال وإنفاقه وتوزيعه حيث يشاء الفرد وحيث يريد.

الآخر: نظام الملكية الجماعية أو المذهب المقيَّد: وطابعه الأساسي طمس معالم الفردية، وتضييق الحرية الشخصية في كل مجالاتها، فما الفرد في هذا النظام إلا آلة مسخَّرة ليس لها أية حرية أو إرادة أو اختيار إلا في بعض المجالات[1].

وإن المتأمل يجد أن النظام الأول ـ الملكية الخاصة ـ هو الأصل في النظام الرأسمالي، بينما يجد أن النظام الثاني ـ الملكية العامة ـ هو الأصل في النظام الاشتراكي.

ومن ثم فإننا لو أردنا أن ننسب النظام الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ نجده لا ينتمي بحال إلى أحد هذين النظامين؛ وذلك لأن الملكية الخاصة والعامة في الإسلام كلاهما أصل يكمِّل الآخر، وكلاهما ليس مطلقًا، بل مقيدًا بالصالح العام.

وعلى هذا، فلا يصح بحال من الأحوال عَدُّ النبي ﷺ داعيًا اشتراكيًّا؛ لأن ما جاء به ﷺ يخالف ما يدعو إليه الاشتراكيون الذين بَنَوا أفكارهم على أساس الملكية العامة، سواء ملكية الدولة أم ملكية الجماعة، والذين صادروا الملكيات الخاصة ولم يعترفوا بوجودها.

بينما أقر الإسلام الملكية الخاصة ـ ملكية الأفراد ـ وحماها إلى أقصى الحدود؛ لتكون جنبًا إلى جنب مع الملكية العامة ـ ملكية الدولة أو الجماعة ـ، فقد أعلن النبي ﷺ أن: "كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعِرضه".[2] وكذلك قال: "لا يحلُّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه".[3] بل قال: "من قُتل دون ماله فهو شهيد"[4].

وقد كانت آخر كلماته ﷺ في خطبة الوداع: "إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم.."[5].

ولعل من أبرز صور حماية الإسلام للملكية الخاصة قطع يد السارق وتنظيم الميراث، سواء في صورة أموال استهلاك أم أموال إنتاج. ولكن ننبه إلى أن الإسلام لم يطلق الملكية الخاصة، بل وضع عليها قيودًا عديدة للصالح العام، أحالها إلى مجرد وظيفة اجتماعية أو شرعية يؤديها المالك. وفيما عدا هذه القيود فإن الإسلام يطلق الملكية الخاصة دون أن يضع أي حد أعلى لاكتسابها؛ تشجيعًا وضمانًا للباعث والحافز الشخصي، ولقد وُجِد في عهد الرسول ﷺ أثرياء للغاية كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ﷺ، ممن يمكن أن نُسمِّيهم بلغة اليوم "مليونير" أو "بليونير"، ولكنه مليونير أو بليونير مقيَّد، أي ملتزم بحدود

---

١. التكافل الاجتماعي في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ط٧، ٢٠٠٧م، ص٢٠، ٢١.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٦٧٠٦).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث عم أبي حرة الرقاشي عن عمه رضي الله عنهما (٢٠٧١٤)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٤٠)، برقم (١٥٧٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٤٥٩).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب من قتل دون ماله (٢٣٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم (٣٧٨).

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي (٣٠٠٩).

الشرع، لقوله ﷺ: "لا بأس بالغِنَى لمن اتقى"[1][2].

فلكل مواطن أن يسعى في الأرض دون أي قيد، أو حد أعلى للملكية أو الثروة والاغتناء، فالله ﷻ يقول: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ (النساء: ٣٢)، ويقول ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ (النحل: ٧١)، فاغتناء الناس وتفاوتهم في أرزاقهم ومعيشتهم، ورفع بعضهم فوق بعض درجات وتفضيل بعضهم على بعض ليس اعتباطًا، وإنما هو بقدر ما يبذلونه من جهد وعمل صالح، وصدق الله العظيم الذي يقول: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (النجم).

كما أن الأفراد في ظل النظام الإسلامي لهم مطلق الحرية في ممارسة نشاطهم الاقتصادي ـ بعكس النظام الاشتراكي ـ طالما كان هذا النشاط مشروعًا بحسب المفهوم الإسلامي، كما أنه لا يجوز للدولة في الإسلام أن تتدخل في النشاط الاقتصادي كتاجرة أو منافسة للأفراد إلا إذا ثبت فعلًا مغالاة الأفراد واتجاهاتهم نحو الاستغلال، فيكون تدخلها بالقدر الضروري الذي يلزم لتصحيح مسار النشاط الاقتصادي[3].

وهكذا يتبين لنا سَعَة الفروق بين النظام الإسلامي الإلهي، وبين النظام الاشتراكي الوضعي الذي لا يعترف بأي حقوق، عدا حقوق الدولة والجماعة.

وهذا يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ ليس له أية علاقة من قريب ولا بعيد بالاشتراكية أو غيرها من الأنظمة الوضعية؛ لأن كل ما جاء به هو من عند الله العليم الحكيم.

ثالثًا. أوجه الاتفاق والاختلاف بين الزكاة والضريبة الإلزامية:

إن الغرض من تشريع الزكاة في الإسلام هو إشراك الفقراء والمساكين ومن على شاكلتهم في أموال الأغنياء، ولما بعث النبي ﷺ سيدنا معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن قاضيًا أو واليًا قال له: "أخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تُؤخَذ من أغنيائهم، وتُرَدُّ إلى فقرائهم"[4].

والزكاة هي أساس العدالة الاجتماعية في المجتمع المسلم؛ ففيها اشتراك في المنفعة والثمرة لا في أصل المال، فقد ترك الشارع ﷻ لأهل الأموال أموالهم لينمُّوها، ثم فرض فيها حقًّا لازمًا لا يجوز التساهل فيه، قال ﷻ في صفة عباده المتقين: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ (الذاريات)، وقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (المعارج).

لهذا نجد أن الصديق رضي الله عنه قاتل مانعي الزكاة، وجادله في هذا عمر رضي الله عنه حتى اقتنع برأيه، وصار أمرًا

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٢٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب طيب النفس (٣٠١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٢٩٠).

٢. المذهب الاقتصادي في الإسلام، د. محمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م، ص١٣٩: ١٤٣ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص١٤٥ وما بعدها.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (١٤٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٣٢).

مُجْمَعًا عليه من الصحابة، ولا عجب؛ فالزكاة ركن أصيل في بناء المجتمع على أساس من التعاون والتكافل والمشاركة في الخير والنعماء، وقد جعلها الإسلام حقًّا في الذهب والفضة، والإبل والبقر والغنم، والزروع والثمار، وعروض التجارة، بل ذهب بعض الفقهاء إلى وجوبها في البقول والخضر والفواكه وحُلِي النساء.

تُرى لو أن الزكاة أُخْرِجت من كل هذه الأنواع الحولية وغير الحولية، ووزعت في مصارفها المشروعة، هل كان هناك جائع لا يجد ما يسد جَوْعَتَه، أو عارٍ لا يجد ما يستر عورته؟ أو متشرد لا يجد مسكنًا يؤويه، أو مريض لا يجد مستشفى يستشفي فيه، أو طالب علم لا يجد ما يعينه على طلب العلم؟!

ترى لو أن الناس أخرجوا زكاة أموالهم بأمانة وإخلاص، من غير تهرُّب أو تحايل، ووزعت في مصارفها، هل كنت تجد بين المسلمين من يدعو إلى الشيوعية أو يعتنقها مذهبًا؟ وهل كنت تجد بينهم في كثير من أقطار المسلمين هذا الفقر والضنك، وهذه الفوارق الشاسعة بين الناس؟ فهناك قلة تتمتع بمُتَع الحياة وزخارفها، بما يصل إلى حد الإسراف، وتبعثر الأموال هنا وهناك في الحانات وبيوت اللهو والفجور، وحلبات الرقص والسباق والقمار!! وهناك الكثرة الكاثرة لا تتمتع بالطيبات التي أحلَّها الله، بل ولا تجد الضروريات.

إن الزكاة حينما كانت تُجمع من كلِّ مَنْ تجب عليه، وتنفق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام، كان المجتمع الإسلامي على خير ما يكون رخاءً ورغدًا وتمتعًا بالطيبات، وتآلفًا وتآخيًا، فقد روى الرواة أنه في عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب الناس، واغتنوا حتى إنهم بحثوا عن مستحق للصدقة فلم يجدوا، فما كان منهم إلا أن اشتروا بها عبيدًا وأعتقوهم لوجه الله. وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى ـ بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم ـ حدًّا لم تبلغه إلا أمم قليلة اليوم، وذلك بفضل تشريع الزكاة[1].

وعلى هذا تختلف حقيقة الزكاة في الإسلام عن الضريبة الإلزامية، ويمكننا أن نحدد هذه الفروق بين الزكاة والضرائب، كما حددها د. يوسف القرضاوي على النحو الآتي:

الضريبة ـ كما عرَّفها علماء المالية ـ: فريضة إلزامية يلتزم المموِّل بأدائها إلى الدولة تبعًا لمقدرته على الدفع، بغض النظر عن المنافع التي تعود عليه من وراء الخدمات التي تؤديها السلطات العامة، وتستخدم حصيلتها في تغطية النفقات العامة من ناحية، وتحقيق بعض الأهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها من الأغراض التي تنشد الدولة تحقيقها من ناحية أخرى.

والزكاة ـ كما عرَّفها فقهاء الشريعة ـ: حق مُقَدَّرٌ فرضه الله في أموال المسلمين لمن سماهم في كتابه من الفقراء والمساكين وسائر المستحقين؛ شكرًا لنعمته تعالى، وتقرُّبًا إليه، وتزكية للنفس والمال.

أوجه الاتفاق بين الزكاة والضريبة:

ومن خلال التعريفين يتضح لنا أن هناك أوجه اختلاف وأوجه اتفاق بين الضريبة والزكاة، وسنبدأ ببيان أوجه الاتفاق:

---

1. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١١٤، ١١٥ بتصرف.

١. فعنصر الإلزام الذي لا تتحقق الضريبة إلا بـه، موجود في الزكـاة إذا تـأخر المسلم عـن أدائها بـدافع الإيمان ومقتضى الإسلام، وأي إلزام أكثر مـن أخـذها بقوة السلاح ممن منعها، ومن سَلَّ السيف لقتـال مـن جحدها ولو كان ذا شوكة؟

٢. كما أن من شأن الضريبة أن تُدفع إلى هيئة عامـة مثل السلطة المركزية والـسلطات المحليـة[1]. وكـذلك الزكاة؛ إذ الأصل فيها أن تـدفع إلى الحكومـة بواسـطة الجهاز الذي سماه القرآن "العاملين عليها".

٣. ومن مقومات الضريبة: انعدام المقابل الخـاص، فالمموِّل يدفع الضريبة بصفته عضوًا في مجتمـع خـاص، يستفيد من أوجه نـشاطه المختلفـة، والزكـاة كـذلك لا يدفعها المسلم مقابل نفع خاص، وإنما يـدفعها بوصـفه عضوًا في مجتمع مسلم يتمتع بحمايته وكفالته وأُخُوتـه، فعليه أن يسهم في معونة أبنائـه، وتـأمينهم ضـد الفقـر والعجز وكـوارث الحيـاة، وأن يقـوم بواجبـه في إقامـة المصالح العامة للأمة المسلمة التـي بهـا تعلـو كلمـة الله وتنشر دعوة الحق في الأرض، بغـض النظـر عـما يعـود عليه من المنافع الخاصة من وراء إيتاء الزكاة.

٤. وإذا كان للضريبة ـ في الاتجاه الحديث ـ أهداف اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة فوق هـدفها المـالي؛ فإن الزكاة لها أيضًا أهداف أبعد مـدًى، وأوسـع أفقًـا، وأعمق جذورًا في هذه النواحي المذكورة وفي غيرها، مما له عظيم الأثر في حياة الفرد والجماعة.

---

١. إنما ذكروا هذا القيد في معنى الضريبة احترازًا مما كـان يحـدث في أوربا في العصور الوسطى، عنـدما كـان الفلاحـون يـدفعون الضرائب إلى صاحب الأرض!

أوجه الخلاف بين الزكاة والضريبة:

أمّا أوجه الخلاف بين الزكاة والضريبة فهـي كثـيرة، أهمها:

١. في الاسم والعنوان:

إن الاختلاف بين الزكـاة والـضريبة يظهـر للوهلـة الأولى في الاسم والعنوان لكل منهما وما له مـن دلالـة وإيحاء، فكلمـة "الزكـاة" تـدل في اللغـة عـلى الطهـارة والنماء والبركة، يقال: زَكَت نفسه: إذا طهـرت، وزكـا الزرع: إذا نما، وزكت البقعة: إذا بورك فيها.

واختيار الشرع الإسلامي هذه الكلمة ليعبر بها عـن الحصة التي فرض إخراجها مـن المـال للفقـراء وسـائر المصارف الشرعية ـ له في النفس إيحاء جميل، يخالف مـا توحي به كلمة "الضريبة"؛ فإن "الضريبة" لفظة مـشتقة من: ضرب عليه الغرامة أو الخراج أو الجزية ونحوهـا، أي ألزمـه بهـا، وكلَّفـه تحمـل عبئهـا، ومنـه قولـه ﷻ: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ (البقرة: ٦١). ومن هنـا ينظـر النـاس عـادة إلى الـضريبة بوصـفها مغرمًـا وإضرارًا ثقيلًا.

أما كلمة "الزكاة" وما تحملـه مـن دلالات التطهـير والتنمية والبركة، فهي تـوحي بـأن المـال الـذي يكنـزه صاحبه، أو يستمتع به لنفسه، ولا يخرج منـه حـق الله الذي فرضه يظـل خبيثًـا نجسًا حتـى تطهـره الزكـاة، وتغسله من أدران الشح والبخل.

وهي توحي كـذلك بـأن هـذا المـال الـذي يـنقص ـ في الظاهر ـ لمن ينظر ببصره يزكـو وينمـو ويزيـد ـ في حقيقة الأمر ـ لمن يتأمـل ببـصيرته، كـما قـال ﷻ: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ

أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ (البقرة)، وقال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ (سبأ: ٣٩). وقال الرسول ﷺ: "وما نقص مال من صدقة"[1].

وهي توحي كذلك أن الطهارة والنماء والبركة ليست للمال وحده، بل للإنسان أيضا: لآخذ الزكاة ولمعطي الزكاة، فآخذ الزكاة ومستحقها تتطهر بها نفسه من الحسد والبغضاء وتنمو بها معيشته، إذ تحقق له ولأسرته تمام الكفاية.

أما مُعطِي الزكاة فيتطهَّر بها من رجس الشح والبخل، وتزكو نفسه بالبذل والعطاء، ويبارك له في نفسه وأهله وماله، وفي هذا يقول القرآن: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

٢. في الماهية والوجهة:

ومن أوجه الاختلاف بين الزكاة والضريبة: أن الزكاة عبادة فُرِضَت على المسلم؛ شكرًا لله تعالى وتقربًا إليه. أما الضريبة فهي التزام مدني محض خالٍ من كل معنى للعبادة والقربة، ولهذا كانت النية شرطًا لأداء الزكاة وقبولها عند الله؛ إذ لا عبادة إلا بنية، قال رسول الله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات."[2]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة: ٥).

ولهذا أيضا تُذْكَر الزكاة في قسم "العبادات" في الفقه الإسلامي؛ اقتداء بالقرآن والسنة اللذين قرنا الزكاة بالصلاة، أما القرآن فقد قرن بينهما في نيف وعشرين موضعًا من سوره المكية والمدنية، وأما السنة ففي مواضع لا حصر لها، منها حديث: "بني الإسلام على خمس"[3]. وغيره

ولما كانت الزكاة عبادة وشعيرة وركنًا دينيًّا من أركان الإسلام، لم تُفرَض إلا على المسلمين، فلم تقبل الشريعة السمحة أن توجِب على غير المسلمين فريضة مالية فيها طابع العبادة والشريعة الدينية، وهذا بخلاف الضريبة، فهي تجب على المسلم وغير المسلم؛ تبعًا لمقدرته على الدفع.

٣. في تحديد الأنصبة والمقادير:

إن الزكاة حق مقدَّر بتقدير الشارع، فهو الذي حدَّد الأنصبة لكل مال، وعفا عما دونها، وحدد المقادير الواجبة من الخُمْس إلى العُشْر، إلى نصف العشر، إلى ربع العشر، فليس لأحد أن يغير فيما نص عليه الشرع أو يبدل، ولا أن يزيد أو ينقص، ولهذا خطَّأْنا المتهورين الذين نادوا بزيادة المقادير الواجبة في الزكاة؛ نظرًا للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي تمخض عنها العصر الحديث. بخلاف الضريبة، فهي تخضع - في وعائها، وفي أنصبتها، وفي سعرها ومقاديرها - لاجتهاد السلطة وتقدير أولي الأمر، بل إن بقاءها وعدمه مرهون بتقدير السلطة لمدى الحاجة إليها.

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث عبد الرحمن بن عوف الزهري ﷺ (١٦٧٤)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨١٤).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنية" (٥٠٣٦)، واللفظ للبخاري.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: "بني الإسلام على خمس" (٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي: "بني الإسلام على خمس" (١٢٢).

٤. في الثبات والدوام:

يترتب على هذا: أن الزكاة فريضة ثابتة دائمة ما دام في الأرض إسلام ومسلمون، لا يبطلها جور جائر، ولا عدل عادل، شأنها شأن الصلاة. أما الضريبة فليس لها صفة الثبات والدوام، لا في نوعها ولا في أنصبتها ولا في مقاديرها، ولكل حكومة أن تحوِّر فيها وتعدِّل حسبما ترى، أو يرى أهل الحل والعقد من ورائها، بل بقاؤها نفسه ـ كما ذكرنا ـ غير مُؤبَّد، فهي تجب حسب الحاجة وتزول بزوالها.

٥. في المصرف:

وللزكاة مصارف خاصة، عيَّنها الله في كتابه، وبيَّنها رسوله ﷺ بقوله وفعله، وهي مصارف محددة واضحة، يستطيع الفرد المسلم أن يعرفها وأن يوزع عليها ـ أو على معظمها ـ زكاته بنفسه إذا لزم الأمر، وهي مصارف ذات طابع إنساني وإسلامي. أما الضريبة فتصرف لتغطية النفقات العامة للدولة، كما تحددها السلطات المختصة.

ميزانية الزكاة إذن مستقلة عن الميزانية العامة للدولة، واجبة الصرف إلى الأبواب المنصوص عليها، والتي جعل القرآن الصرف لها وفيها ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾(التوبة: ٦٠).

٦. في العلاقة بالسلطة:

مما سبق يُعلم أن أداء الضريبة علاقة بين المكلَّف أو المموِّل وبين السلطة الحاكمة، وهي التي تسنُّها، وهي التي تطالب بها، وهي التي تحدد النسبة الواجبة، وهي التي تملك أن تنقصها، أو تتنازل عن جزء منها لظرف معين ولسبب خاص، أو على الدوام، بل تملك إلغاء ضريبة ما، أو الضرائب كلها إن شاءت، فإذا أهملت السلطة أو تأخرت في المطالبة بالضريبة فلا لوم على المكلَّف، ولا يطلب منه شيء. أما الزكاة فهي ـ قبل كل اعتبار ـ علاقة بين المكلَّف وربه، فالله ﷻ هو الذي آتاه المال، وهو الذي كلفه أن يؤتي منه الزكاة؛ امتثالًا لأمره وابتغاء مرضاته، وعرَّفه مقاديرها، وبيَّن له مصارفها.. فإذا لم توجد الحكومة المسلمة التي تجمع الزكاة من أربابها، وتصرفها على مستحقيها، فالمسلم يفرض عليه دينه أن يقوم هو بتوزيعها على أهلها ولا تسقط عنه بحال، مثلها في ذلك مثل الصلاة، لو كان المسلم في مكان لا يجد فيه مسجدًا ولا إمامًا يَأْتَمُّ به، وجب عليه أن يصلي حيث تيسر له، في بيته أو غيره؛ فالأرض كلها مسجد للمسلم ولا يترك الصلاة أبدًا، والزكاة أخت الصلاة.

ولذلك يجب على المسلم أن يدفع الزكاة وهو طيب النفس بها، راجيًا أن يتقبلها الله منه ولا يردها عليه.

ومن هنا يحرص المسلم على إيتاء الزكاة ولا يتهرب من دفعها، كما يتهرب جمهور الناس من دفع الضرائب، فإن لم يتهربوا دفعوها مكرهين أو كارهين، بل نجد من المسلمين من يدفع من ماله أكثر مما توجبه الزكاة؛ رغبة فيما عند الله، وطلبًا لمثوبته ورضوانه، كما حدث ذلك في عهد النبي ﷺ وفيما بعده من العهود.

٧. في الأهداف والمقاصد:

وللزكاة أهداف روحية وخُلُقية تحلِّق في أفق عال، تقصر الضريبة عن الارتقاء إليه، وقد أشرنا إلى هذه الأهداف السامية في حديثنا عن كلمة "الزكاة" وما لها من دلالة وما تنطوي عليه من إيحاء، وحسبنا من هذه الأهداف ما صرح به كتاب الله في شأن أصحاب المال

المكلَّفين بالزكاة؛ إذ قال ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (التوبة)، ومعنى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، وكان ﷺ يدعو لدافع الزكاة بالبركة في نفسه وفي ماله، وهو أمر مندوب لكل عامل على الزكاة أن يدعو لمعطي الزكاة؛ اقتداء بالنبي ﷺ، بل قال بعض الفقهاء: هو واجب؛ لأن الآية أمرت به وظاهر الأمر الوجوب.

أما الضريبة فهي بمعزل عن التطلع إلى مثل هذه الأهداف، وقد ظل رجال المالية قرونًا يرفضون أن يكون للضريبة هدف غير تحصيل المال للخزانة، وسُمِّي هذا "مذهب الحياد الضريبي"، فلما تطورت الأفكار وتغيرت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية انهزم مذهب الحياديين، وظهر الذين ينادون باستخدام الضرائب أداة لتحقيق أهداف اقتصادية واجتماعية معينة، كالتشجيع على الإنفاق، أو على الادخار، أو التقليل من الإنفاق في الكماليات، أو تقريب الفوارق وغير ذلك، وهذا إلى جوار هدفها المالي، وهو الهدف الأول.

ولكن لم يستطع مُشرِّعو الضرائب ولا علماء المالية العامة ومفكروها أن يخرجوا من دائرة الأهداف المادية إلى دائرة أرحب وأبعد مدى، وهي دائرة الأهداف الروحية والخلقية التي عُنِيت بها فريضة الزكاة.

٨. في الأساس النظري لفرض كل منهما:

ومن أبرز أوجه الاختلاف بين الزكاة والضريبة اختلاف الأساس الذي بني عليه فَرْض كل منهما؛ فالأساس القانوني أو النظري لفرض الضريبة قد اختلف في تحديده على نظريات متباينة. أما الزكاة فإن أساسها واضح؛ لأن موجبها هو الله ﷻ.

٩. الزكاة عبادة وضريبة معًا:

ومن هنا، نستطيع أن نقول: إن الزكاة ضريبة وعبادة معًا، هي ضريبة؛ لأنها حق مالي معلوم تشرف عليه الدولة، وتأخذها كرهًا إن لم تُؤَدَّ طوعًا، وتنفق حصيلتها في تحقيق أهداف تعود على المجتمع بالخير.

وهي قبل ذلك عبادة وشعيرة يتقرب بأدائها المسلم إلى الله، ويشعر حين يؤديها أنه يحقق ركنًا من أركان الإسلام، وشعبة من شعب الإيمان، وأنه يعين بها من يعطيه على طاعة الله تعالى، ومن هنا كان إيتاؤها طاعة وصلاحًا، ومنعها فسقًا صُراحًا، وجحودها كفرًا بواحًا، فهي حق الله الذي لا يسقط بتأخر الجابي، ولا بإهمال الحاكم، ولا بمرور السنين، وليست كالضريبة تجب بطلب الحكومة لها، وتسقط بعدمه.

والذي يهمنا أن نذكره هنا: أن علماءنا ـ رحمهم الله ـ قد تَنَبَّهُوا وَنَبَّهُوا على أن الزكاة تشتمل على هذين المعنيين: معنى الضريبة، ومعنى العبادة، وإن لم يعبِّروا عن الضريبة بهذا اللفظ نفسه؛ لأنه اصطلاح متأخر، وقد يعبِّرون عن هذا المفهوم بأنها حق واجب للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء، أو يعبرون عنه بأنها صلة للرحم؛ أي الإنسانية أو الإسلامية، بجانب ما فيها من شائبة العبادة.

ومن أوضح ما يدل على هذا المعنى، ما نقله صاحب "الروض النضير" عن بعض المحققين من العلماء في بيان حقيقة الزكاة وحكمتها؛ حيث قال: "إنما فرض الله الزكاة في أموال الأغنياء؛ مواساة لإخوانهم الفقراء، وقضاء لحق الأخوة وعملًا بما يوجب تأكيد الألفة، وما

أمر الله به من المعونة والمعاضدة على ما فيها من ابتلاء أرباب الأموال التي هي شقائق النفوس، كما ابتلاهم في الأبدان بالعبادات البدنية، فهي صلة للرحم، وفيها شائبة عبادة، فلأجل شائبة العبادة وجبت فيها النية، ولم يصح فيها مشاركة معصية ونحو ذلك، لكونها صلة، صحت فيها الاستنابة، وصح فيها الإجبار عليها، وناب الإمام عن المالك في النية عند أخذها كرهًا، وأخذت من مال الميت وإن لم يوص، ولأجل كون الصلة غالبًا عليها، وجب فيها رعاية الأنفع للفقراء، ووجبت في مال الصغير ونحوه، ولما كان المقصود بها المواساة لم يوجبها الله تعالى إلا في مال الذي بلغ النصاب، ولم يجعلها إلا في الأموال النامية، وهي العين ـ النقود ـ وأموال التجارة والمواشي وما أخرجت الأرض، وحدد الشرع نصاب كل جنس بما يحتمل المواساة، ورتب مقدار الواجب على حسب التعب والمؤنة، فجعل فيما سقت السماء ونحوها العُشْر، وفيما سقي بالسواقي ـ الدواب ونحوها ـ نصفه"[1].

وبعد هذا البيان الشافي تتضح لنا حقيقة الزكاة في الإسلام، وحقيقة الضرائب الإلزامية، كما يتبين لنا بطلان دعوى أن النبي ﷺ كان داعيًا للاشتراكية وليس نبيًّا؛ لأن ما جاء به ﷺ من الدعوة إلى الزكاة بوصفها ركنًا من أركان الإسلام يختلف تمامًا عما ينادي به الاشتراكيون، وهو أسمى بكثير مما وضعه البشر القاصرون، فما جاء به ﷺ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

١. فقه الزكاة، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٦، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٩٩٧: ١٠٠٥.

الخلاصة:

إن البشرية قاطبة منذ آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لم تشهد، ولن تشهد رجلًا أخلص لله مثل محمد ﷺ؛ فالمتأمل في سيرته العطرة يجد أن حياته كلها كانت لله ﷺ كما أمره ربه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (الأنعام)، ولعل من أكبر الدلائل على إخلاصه ﷺ في عبادة ربه ثباته على الدعوة لله وتوحيده ﷺ ع يرقِّيها ويمحِّصها.

- لى الرغم مما تعرض له من أذى واضطهاد من أعدائه، وكذلك كان ﷺ حريصًا على طاعة الله، فقد كان ﷺ دائم الخشية له، وكان يُحمِّل نفسه من المشقة في العبادة ما لا يطلب من المؤمنين فعله، فهل يُعقل أن يقال بعد ذلك: إنه لم يكن رجل دين؟!
- إن النظام الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ يختلف تمام الاختلاف عن النظام الاشتراكي الذي لا يعترف إلا بملكية الدولة والجماعة، والأفراد فيه مجرد آلات مسخرة ليس لها أية حرية أو إرادة، في حين أقر الإسلام ملكية الأفراد بجوار ملكية الجماعة، وحماها إلى أقصى الحدود، ولم يضع حدًّا أعلى لاغتناء الأفراد ما داموا ملتزمين بتعاليم الإسلام، كما أعطى الأفراد مطلق الحرية في ممارسة نشاطهم الاقتصادي طالما كان هذا النشاط مشروعًا حسب المفهوم الإسلامي، وهذا ما يرفضه تمامًا النظام الاشتراكي، وهذا يدل على أن محمدًا ﷺ لم يكن أبدًا داعيًا اشتراكيًّا كما يزعم المغرضون.
- هناك فروق كثيرة بين حقيقة الزكاة في الإسلام وبين حقيقة الضرائب الإلزامية، فالغرض من تشريع

الزكاة في الإسلام هو إشراك الفقراء والمساكين ومن على شاكلتهم في أموال الأغنياء، وهي أساس العدالة الاجتماعية في المجتمع المسلم، في حين أن الضريبة فريضة إلزامية يلتزم المموِّل بأدائها إلى الدولة تبعًا لمقدرته على الدفع، بغض النظر عن المنافع التي تعود عليه من وراء الخدمات التي تؤديها السلطات العامة، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فالزكاة عبادة فرضت على المسلم؛ شكرًا لله وتقربًا إليه، بينما الضريبة التزام مدني محض خالٍ من كل معنى للعبادة، وكل هذه الفروق تبطل دعوى أن النبي ﷺ قد فرض الزكاة لأنه كان يدعو إلى الاشتراكية؛ لأن ما جاء به ﷺ أسمى بكثير مما وضعه البشر القاصرون.

الشبهة السابعة عشرة

الزعم أن النبي ﷺ لم يكن حريصًا على هداية قومه (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن النبي ﷺ لم يكن حريصًا على هداية قومه، ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ دعا على بعضهم، ويمثلون لهؤلاء بعُقبة بن أبي مُعَيْط وأبي جهل وأمية بن خلف، وقد قُتلوا جميعًا كفارًا يوم بدر. وهم بذلك يطعنون في منطلَقات دعوته ﷺ ويشككون في حرصه ﷺ على هداية قومه أثناء دعوته إياهم.

وجها إبطال الشبهة:

1) كان النبي ﷺ أحرص الناس على هداية قومه أجمعين، فقد كان ﷺ رحمة للعالمين، أنقذ من آمن بدعوته من النار، ودعا لمن لم يُؤمن بالهداية؛ امتثالًا لقوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (الأنبياء).

2) دعا الأنبياء السابقون على أقوامهم عامة، ولكن النبي ﷺ لم يدع على قومه عامة، وإنما خصَّ بعضهم ممن لا يُرْجَى منهم إيمان ولا خير.

التفصيل:

أولا. مظاهر حِرْص النبي ﷺ على هداية قومه أجمعين:

إن من أشرف ميزات النبي ﷺ امتلاء قلبه الشريف بالشفقة والرحمة والرأفة بجميع الخلائق، المسلم وغير المسلم؛ ليتعلق الناس كلهم بهذا النبي ﷺ وبرسالته العالمية التي هي إنقاذ ونجاة، وسعادة في الدنيا والآخرة، فلو عقل كل إنسان مصلحته لبادر إلى الإيمان برسالة هذا الرسول ﷺ، وانضم إلى مظلة القرآن، ودوحة الإيمان الحق، والإسلام الحنيف.

قال الله ﷻ مبينًا هذه الصفة: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾ (التوبة)؛ أي: شديد شاقٌّ عليه وقوعكم في الحرج، ولقاؤكم المكروهَ، بالمؤمنين - منكم ومن غيركم - رءوف رحيم في الدنيا والآخرة، وقال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (الأنبياء)، ذكر بعض العلماء أن من

(*) ردود على أباطيل وشبهات حول الجهاد، عبد الله البراك، النور للإعلام الإسلامي، عمان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

فضله ﷺ أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة).

ومن أمثلة هذه الرحمة: أنه ﷺ كان يعطي بعض المؤلفة قلوبهم المال الكثير غير المألوف لدى العرب، وينعم عليهم بأفضاله حتى ينقذهم الله ويعافيهم من نقمة الكفر، ويظفروا بنعمة الإسلام.

وعن ابن شهاب الزهري قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بحُنَين فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أُميَّة مائة من النعم ثم مائة ثم مائة[1].

ورُوي عن أنس أن رجلًا سأل النبي ﷺ غنمًا بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم، أسلموا، فوالله، إن محمدًا ليعطي عطاء ما يخاف الفقر، فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[2].

ومن شفقته على أمته ﷺ: تخفيفه وتسهيله عليهم في أحكام الشريعة، وتركه أشياء مخافة أن تُفرض عليهم، مثل: سنة السواك، حيث قال ﷺ: "لولا أن أشق على أمتي أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة"[3].

ومثل: صلاة الليل فقد قال: "خذوا من العمل ما تطيقون، إذا نعس أحدكم وهو يصلي، فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس، لا يدري لعله يريد أن يستغفر الله، فيسب نفسه"[4].

ومثل: نهي النبي ﷺ عن صوم الوصال، وهو ألا يصوم أيامًا متوالية، وكذلك: كراهته دخول الكعبة لئلا يتعب أمته، وكان النبي ﷺ يسمع بكاء الصبي، فيتجوز في صلاته، أي يخففها.

ومن شفقته ﷺ: أنه دعا ربه وعاهده فقال: "أيما رجل سببته ولعنته، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة، وصلاة وطهورًا، وقربة تقربه بها".[5] وما رُوي عن عائشة أنها قالت: "ما خُيِّر رسول الله بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما"[6][7].

إن ما ذكرناه الآن هو غيض من فيض، ولكنه يدل دلالة قاطعة على رحمته ﷺ ورأفته بأمته ورغبته في هداية الناس أجمعين.

وعليه فإننا لا نبالغ حينما نقول: إننا لا نعلم رسولًا من الرسل - عليهم السلام - كان حريصًا على هداية

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط فقال لا (٦١٦٢).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئًا قط فقال لا (٦١٦١).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٨٤٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب السواك (٦١٢).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءًا (٢٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن بأن يرقد (١٨٧١).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: "من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة" (٦٠٠٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلًا (٦٧٨١).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله (٦٤٠٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته للآثام واختياره من المباح أسهله (٦١٩٣)، واللفظ له.

٧. انظر: شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٣٣: ١٣٥ بتصرف.

الناس مثل رسول الله محمد ﷺ، ومن حرصه ﷺ ما كان عليه من الرحمة والرأفة بأمته، والحرص على نجاتها.

فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفَراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحُجَزِكم[1]، وأنتم تَقَحَّمون[2] فيه"[3].

فهو ﷺ آخذ بحجزهم حتى لا يقعوا في النار، وهم يتفلتون من بين يديه ليقعوا فيها، هو يريد نجاتهم، وهم يريدون هلاك أنفسهم، هو ﷺ يريد سعادتهم في الدارين، وهم يريدون شقاوتهم في الدارين.

ومن حرصه ﷺ على أمته تأخير دعوته المستجابة لتكون شفاعة لهم؛ فعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة"[4].

ومن حرصه ﷺ على أمته ما أكرمه الله ﷻ به من أنه سيرضيه فيها يوم القيامة ولا يسوءه. قال الله ﷻ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ (الضحى).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦ ﴾ (إبراهيم)، وقول عيسى ؑ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨ ﴾ (المائدة). فرفع يديه وقال: "اللهم أمتي أمتي"، وبكى، فقال الله ﷻ: "يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسَلْه: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل ؑ، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله تبارك وتعالى: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنُرضِيك في أمَّتك ولا نسوؤك"[5][6].

فمن كان هذا حاله وحرصه وشفقته ورحمته، كيف يُقال: إنه لم يكن حريصًا على هداية قومه أجمعين؟!

إننا لنعجب أشد العجب من زعم هؤلاء! ألا يعلمون ما كان يكنُّ ﷺ في نفسه من حرص على هداية الناس ونجاتهم وخلاصهم مما هم فيه من غمِّ الدنيا وهمِّ الآخرة، وما يتلجلج في صدره الشريف في ليله ونهاره، وما يشغل فكره ﷺ تجاههم، وما يأخذه من الخوف عليهم في دنياهم وآخرتهم، ومن كثرة بكائه وحزنه عليهم، وما يتقطع قلبه ﷺ أسًى وحزنًا وجزعًا وفزعًا على تقصيرهم أو عدم اتباعهم، وتأسُّفه الطويل على إعراضهم، فكان يعز عليه ما يشق عليهم... حتى إن الله ﷻ واساه أكثر من مرة بألا يُرهِق نفسه ويهلكها

١. الحُجَز: جمع حجزة، وهي مَعقِد الإزار والسراويل.

٢. تقحَّم: تقع.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦١١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب شفقته على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٦٠٩٥)، واللفظ له.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته (٥١٣)، واللفظ له.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي لأمته وبكائه شفقة عليهم (٥٢٠).

٦. محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجهاد، د. خليل إبراهيم ملا خاطر، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ط٣، ١٤٢٠هـ، ص١١٤: ١١٦.

حزنًا وأسى وحسرة وجزعًا عليهم.

قال الله عز وجل: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف)؛ أي: فلعلك قاتل نفسك أو مهلكها حزنًا وأسفًا على إعراضهم عنك، وقال عز وجل: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الشعراء)، وقال عز وجل: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (فاطر). هكذا يواسيه الله عز وجل، حتى لا يُهلك نفسه عليهم أسى وحزنًا وجزعًا[١].

فأيّ قلب كريم! وأي رجل رحيم! هذا الذي يواسيه ربه عز وجل حتى لا يهلك أسى وحزنًا على بوار الكافرين من قومه، الذين آذوه أشد الإيذاء، بل كان يقول في أشد لحظات إيذائهم له: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[٢]!

أما يعلم المدَّعون أن النبي ﷺ لو كان يريد إهلاك قومه لفعل، وقد واتته الفرصة لذلك؛ إذ إنه لما كذبه قومه، أتاه جبريل عليه السلام فقال له: "إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم"، فناداه ملك الجبال وسلَّم عليه وقال: "مُرني بما شئت، إن شئت أن أُطبِق عليهم الأخشبين"[٣]! فقال النبي ﷺ: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا"[٤][٥].

تلك هي الرحمة التي منعته أن يدعو على قومه "أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده". وقد تحقق ما كان يطمح إليه ﷺ؛ فقد آمن بعضهم، ومات بعضهم وترك أولادًا دخلوا في دين الله أفواجًا بعد فتح مكة، من أمثال عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص... وغيرهم كثير®.

ثانيًا. لم يكن النبي ﷺ بدعًا من الأنبياء في الدعاء على بعض قومه:

إذا كان النبي ﷺ رحمة للعالمين، وإذا كان ﷺ أبى إنزال العقاب على قومه لما جاءه جبريلُ عليه السلام ومعه ملك الجبال فإن ذلك لا يمنع أنه ﷺ دعا على من اشتد به إيذاؤه، ويئس من إيمانه بإخبار ربه له.

ومن تلك الإيذاءات ما جاء في صحيح البخاري من أنه ﷺ كان يصلي في حجر إسماعيل عند الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكب عقبة، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: "أتقتلون رجلًا أن يقول:

١. المرجع السابق، ص١١٩، ١٢٠ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧).

٣. الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكة.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى (٣٠٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٤).

٥. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٣٥.

® في **"تألم النبي ﷺ لعدم إيمان قومه رحمة بهم"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة التاسعة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم"[1]؟!

وفي مرة ثانية جاء عقبة هذا والنبي ﷺ يصلي عند الكعبة، فوضع رجله على عنق رسول الله ﷺ حتى كادت عيناه تَنْدُران[2].

وفي مرة ثالثة كان النبي ﷺ يُصلِّي عند الكعبة، وصناديد قريش جلوس، فقال بعضهم: من ينطلق إلى سَلَا جَزور بني فلان، فيأتي به فيضعه على ظهر محمد وهو ساجد؟ فذهب أشقى القوم عقبة بن أبي مُعيط، فجاء به ووضعه على ظهر رسول الله ﷺ، وهم يتضاحكون ويميل بعضهم على بعض، فلم يزل ساجدًا حتى جاءت فاطمة ـ وهي فتاة صغيرة ـ فأخذته عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبَّتهم ووبَّختهم، فدعا عليهم رسول الله ﷺ قائلًا: "اللهم عليك بهذا الملأ من قريش، اللهم عليك بعُتبة بن ربيعة، اللهم عليك بشَيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة بن أبي مُعيط، اللهم عليك بأُميَّة بن خلف"[3].

وقد استجاب الله دعاءه ﷺ فقتلوا جميعًا يوم بدر[4].

فهذا النبي ﷺ وجد ما وجد من هؤلاء الأشقياء، وقد علم أن الله ختم على قلوبهم فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولم يكن النبي ﷺ بدعًا من الرسل في هذا، فقد دعا على هؤلاء المعاندين كما دعا نوح عليه السلام على قومه، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ (نوح).

وكما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ (يونس).

يقول الأستاذ سيد قطب تعليقًا على دعاء موسى عليه السلام ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (يونس: ٨٨): "ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم، ووجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيرًا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنها كذلك ليست شيئًا ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة، وموسى عليه السلام يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس، ويطلب لوقف هذا الإضلال، ولتجريد القوة الباغية المضلة من وسائل البغي والإغراء ـ أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها، بحيث لا ينتفع بها أصحابها، أما دعاؤه بأن يشد الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فهو دعاء من يئس من صلاح هذه القلوب، ومن أن يكون لها توبة أو إنابة، دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاقًا حتى

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة غافر (٤٥٣٧).

٢. تَنْدُر: تخرج.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (٢٣٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥١).

٤. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٦، ٢٩٧ بتصرف.

يأتيهم العذاب، وعندئذ لن يقبل منهم الإيمان؛ لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يُقبل، ولا يدل على توبة حقيقية باختيار الإنسان"[1].

لكن هناك أمرًا تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، ويتمثل هذا الأمر في أن النبي ﷺ لم يدعُ على قومه عامة، ولكنه خصَّ أناسًا منهم بالدعاء عليهم، وقد نصَّت كتب السير والتاريخ على أسمائهم، أما من سواه من بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فقد دَعَوا على أقوامهم عامة، وقد ذكرنا منذ قليل دعاء نوح وموسى عليهما السلام.

فهل يُعْقل بعد هذا كله أن يُنْسَب إلى النبي ﷺ عدمُ حرصه على هداية قومه®؟!

الخلاصة:

- بُعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، فكان رءوفًا رحيمًا بمن بعث إليهم، فقد أنقذ الله ﷻ من آمن به من النار، وكان النبي ﷺ يدعو لمن لم يؤمن به أن يهدي الله قلبه للإسلام، وتتجلَّى رحمة النبي ﷺ حينما أدمَى الكفار قدميه في الطائف وأغروا به صبيانهم، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يَدْعُ عليهم، بل قال: "عسى أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده".[2] وقد حدث ما تمناه فأسلم من أسلم منهم قبل الفتح، وعند الفتح الأكبر لمكة أسلم معظمهم ودخلوا في دين الله أفواجًا.

- مع هذه الرحمة من النبي ﷺ، إلا أنه دعا على بعض الكفار، منهم: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، وعقبة بن أبي مُعيط، وأمية بن خلف، وهؤلاء من صناديد الكفر الذين آذوه ﷺ أشد الإيذاء، ولم ير خيرًا فيهم، وقد استجاب الله ﷻ دعاءه فقتلوا جميعًا في غزوة بدر الكبرى.

- لم يكن النبي ﷺ بدعًا من الرسل في الدعاء على قومه، فقد دعا نوح عليه السلام على قومه، يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (نوح)، كما دعا موسى عليه السلام على قوم فرعون كما يقول القرآن حاكيًا عنه: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (يونس: ٨٨)؛ بل إنه ﷺ لم يدع على قومه عامة وإنما خص بعضهم ممن لا يُرْجَى فيهم خير.

الشبهة الثامنة عشرة

ادعاء أن رغبة العرب في العودة لدين إبراهيم عليه السلام هي سر نجاح الدعوة المحمدية (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن سر نجاح دعوة محمد ﷺ يتمثل في كون دينه مجدِّدًا وامتدادًا لدين إبراهيم عليه السلام الذي كان العرب يجلُّونه ويعظِّمونه لبنائه البيت الحرام،

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٣، ص١٨١٧.

® في "إيذاء قريش للنبي ﷺ وأصحابه في مكة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة والعشرين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى (٣٠٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٤).

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

وقد كانوا ـ على حد زعمهم ـ يميلون للعودة إلى دينه قبيل بعثة محمد ﷺ. وهم بذلك يشككون في دعوته ﷺ وفي الأسباب الحقيقية لنجاحها.

وجها إبطال الشبهة:

١) الإسلام لا يضره أن يكون امتدادًا للحنيفية السمحة، خاصة في الجانب العقدي، وقد بعث الله بها أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فدين الله واحد.

٢) إن العهد الذي بُعِثَ فيه محمد ﷺ كان أبعد العصور الجاهلية عن معالم الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ومبادئها.

التفصيل:

أولا. الإسلام لا يضره أن يكون امتدادًا للحنيفية السمحة، فدين الله واحد:

في البداية نود أن نشير إلى أن النبي ﷺ ليس أول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل قبله، فما هو بالرجل الذي لا نظير له فيما جاء به للناس من عقائد، وخصوصًا عقيدة التوحيد، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ (الأحقاف)، وقال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (فصلت).

"أي: إنه وحي واحد ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة، وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد واعتراضات واحدة، ثم هي بعد ذلك وشيجة واحدة وشجرة واحدة، وأسرة واحدة، وآلام واحدة، وهدف واحد في نهاية الأمر وطريق واصل ممدود"[1].

وعلى الرغم من أن محمدًا ﷺ هو آخر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وخاتمهم، وهذا ما أجمع عليه المسلمون وعُرِفَ من الدين بالضرورة ـ إلا أن هذا لا يعني بحال من الأحوال أن ما يأتي به لا بد أن يكون جديدًا كل الجدة، ومختلفًا كل الاختلاف عما جاء به الأنبياء قبله، فدين الله واحد، وهو دين الأنبياء جميعًا، وإنما بُعِثَ ﷺ ليتمم البناء الذي ابتدأه الأنبياء، قال ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[2].

فدعوته ﷺ وعلاقتها بدعوات الأنبياء السابقين، قائمة على أساس التأكيد والتتميم، كما يدل عليه الحديث المذكور.

وبيان ذلك أن دعوة كل نبي تقوم على أساسين اثنين: **الأول**: العقيدة، **والآخر**: التشريع والأخلاق، فأما العقيدة فلم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه السلام إلى بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ، إنما هي الإيمان بوحدانية الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من الصفات، والإيمان باليوم الآخر، والحساب، والجنة والنار، فكان كل نبي يدعو قومه إلى الإيمان بهذه

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٥، ص٣١٢٧ بتصرف. شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٥٢.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٣٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠١)، واللفظ له.

الأمور، وكان كل منهم يأتي مصدقًا لدعوة من قبله ومبشرًا ببعثة من سيأتي بعده، وهكذا فقد تلاحقت بعثتهم إلى مختلف الأقوام والأمم ليؤكد الجميع حقيقة واحدة أُمِروا بتبليغها وحَمْل الناسِ على الإذعان لها، ألا وهي الدينونة لله ﷻ وحده، وهذا ما بيّنه الله ﷻ بقوله في كتابه الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ (الشورى: ١٣).

بل إنه لا يُتَصَور أن تختلف دعوات الأنبياء الصادقين في شأن العقيدة؛ لأن أمور العقيدة من نوع الإخبار، والإخبار عن شيء لا يمكن أن يختلف ما بين مخبِر وآخر إذا فرضنا الصدق في خبر كل منهما[1].

ويتضح مما سبق أنه لا توجد أديان سماوية متعددة، وإنما توجد شرائع سماوية متعددة، وقد استقرت كل هذه الشرائع السماوية بمجيء خاتم الأنبياء والرسل أجمعين محمد ﷺ.

فالدين الحق واحد، بُعِث الأنبياء كلهم للدعوة إليه، وأُمِرَ الناس بالدينونة له منذ آدم ؑ إلى محمد ﷺ، ألا وهو الإسلام الذي بعث الله به إبراهيم، وإسماعيل، ويعقوب... وسائر الأنبياء، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة). فالأنبياء كلهم بُعِثوا بالإسلام الذي هو الدين عند الله، فهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥).

وخلاصة هذه الحقيقة أن الإسلام لا يضره أن يكون امتدادًا للحنيفية السَّمحة التي بعث الله بها أبا الأنبياء إبراهيم ؑ، فدين الله واحد، وهذه حقيقة لا ننكرها، وقد صرح كتاب الله ﷻ بذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ (الحج: ٧٨)، وقوله ﷻ: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (آل عمران)، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ (النحل: ١٢٣).

ولا عجب في ذلك؛ فإبراهيم ؑ هو أبو الأنبياء، وقد جعله الله للناس إمامًا، يقول ﷻ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ (البقرة: ١٢٤). وقد ادعى كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم ؑ ينتمي إلى أديانهم، وقد نفى الله ذلك في قوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ (آل عمران:٦٧).

وإبراهيم ؑ هو من دعا الله ﷻ أن يبعث نبيًّا من نسله الذين يسكنون بجوار البيت الحرام، يقول ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ

---

١. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٣٦، ٣٧ بتصرف.

ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وقد استجاب الله لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام فأرسل محمدًا ﷺ ليخرج قومه من الظلمات إلى النور، ويتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأنار شعلة الدين الحنيف من جديد، وأقبل الوحي الإلهي إلى كل ما قد تكثف من ضلال وظلمات فمحاه، وأنار مكانه بقبس الإيمان والتوحيد ومبادئ العدالة والحق، وأقبل إلى تلك البقايا التي امتدت بها الحياة إلى مشرق النور الجديد، مما كان قد بعث به إبراهيم عليه السلام وأقرته الشرائع الإلهية، فأقرها وجدد الدعوة إليها[1].

وعليه فكون الإسلام امتدادًا للحنيفية دين إبراهيم عليه السلام هو شيء معروف بالبداهة، لمن اطلع على التاريخ، وهو شيء ثابت بداهة، لمن درس شيئًا من الإسلام، غير أننا في عصر نضطر فيه إلى أن نضيع كثيرًا من الوقت في تأكيد البدهيات، ويجدر في النهاية أن نؤكد أن هذه الحقيقة لا تنقص من قيمة الإسلام شيئًا، ولكنها تؤكد أنه الدين الحق الذي ارتضاه الله لكل عباده من لدن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة®.

ثانيًا. بُعْد العصر الذي بُعِثَ فيه النبي ﷺ عن معالم الحنيفية:

لا يجهل أحد أن العرب هم أولاد إسماعيل عليه السلام بن إبراهيم عليه السلام وقد توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه الذي بُعِثَ به من توحيد الله وعبادته، وتقديس حرماته، وفي مقدمة ذلك تعظيم البيت الحرام وتقديسه، واحترام شعائره والذود عنه والقيام بخدمته[2]، فقد كانت قريش ومن يتبعونها على الدين الذي جاء به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فكانوا في أصلهم موحدين لا يعبدون غير الله تعالى، فلا يعبدون صنمًا، ولا حجرًا، ولا حيوانًا، وليس فيهم ألوهية لمخلوق إلا ما كان ممن وفدوا إليهم من النصارى، كنصارى نجران ونصارى تغلب وغيرهم، وقد كان يُقَوِّي توحيدهم صلتهم بإبراهيم عليه السلام وشرفهم في الانتساب إليه عن طريق ولده إسماعيل عليه السلام[3].

فلما امتدت بهم القرون، وطال عليهم الأمد، أخذوا يخلطون الحق الذي توارثوه بكثير من الباطل الذي تسلل إليهم، شأنهم شأن سائر الأمم والشعوب، عندما يغشاها الجهل، ويبعد بها العهد ويندسُّ بين صفوفها المشعوذون والمبطلون، فدخل فيهم الشرك واعتادوا عبادة الأصنام، وتسللت إليهم التقاليد الباطلة، والأخلاق الفاحشة، فابتعدوا بذلك عن ضياء التوحيد، وعن منهج الحنيفية، وعمت بينهم الجاهلية التي رانت عليهم أمدًا من الدهر، ثم انقشعت عنهم ببعثة محمد ﷺ[4].

---

١. المرجع السابق، ص٣٨: ٤١ بتصرف.

® في **"دعوة النبي ﷺ والأنبياء جميعا للتوحيد"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

٢. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٣٩: ٤١ بتصرف.

٣. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦.

٤. للمزيد انظر: فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٤٠ وما بعدها. السيرة النبوية، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٢٢ وما بعدها.

وعليه فليس صحيحًا أن المجتمع الجاهلي قبيل بعثة النبي ﷺ كان يتجه للعودة إلى دين إبراهيم عليه السلام. وأن هذا الاتجاه كوَّن لديهم رغبة ملحة للعودة إليه، وأن هذه الرغبة الشديدة هي السرُّ الذي يقف وراء نجاح الدعوة المحمدية.

إن كل وقائع التاريخ الصادقة تؤكد أن هذا العصر الذي بُعِث فيه النبي ﷺ كان أبعد العصور عن الحنيفية السَّمحة دين إبراهيم عليه السلام، وليس العكس كما يزعمون، ولعل في هذا ما يفسر استنكار أهل مكة والعرب لهذه الدعوة المحمدية، وتصدِّيهم لها بكل الوسائل والحِيَل، ويكفي ما عرضه القرآن من أقوالهم عند دعوتهم لعبادة الله عز وجل، في قوله ﷻ: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ (ص)، وقوله ﷻ: ﴿ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (المؤمنون). فأين العرب ورغبتهم في العودة إلى دين إبراهيم عليه السلام؟!

إن هذا الزعم ما هو إلا قلب للحقيقة وطمس لليقين الذي لا يماري فيه أحد®.

الخلاصة:

- لا يضر الإسلامَ أن يكون امتدادًا لدين الخليل إبراهيم عليه السلام؛ فدين الله واحد، وهو دين الأنبياء جميعًا، وإنما بعث ﷺ ليتمم البناء الذي ابتدأه الأنبياء قبله.
- لقد صرح النبي ﷺ بأنه بُعث بالحنيفية السمحة، وكذلك جاء في آيات كثيرة من القرآن الكريم الأمر للنبي ﷺ وللمسلمين باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، ولا عجب؛ فإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وقد جعله الله للناس إمامًا.
- لا ينكر أحد أن العرب أولاد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - قد توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه الذي بُعِثَ به، ولكنهم بمرور الزمن تناسَوْا هذه الملة، وأصابهم ما يصيب الأمم من فساد وانحراف عن الحق، فعبدوا الأوثان، وبدَّلوا شريعة إبراهيم عليه السلام، فلما بُعِثَ محمد ﷺ كانوا أبعد الناس عن ملة إبراهيم عليه السلام وهديه.

® في "عرب الجاهلية قبل بعثة النبي ﷺ" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السابعة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

الشبهة التاسعة عشرة

ادعاء أن الخصائص الشخصية للنبي ﷺ وراء نجاح دعوته (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين في نبوة محمد ﷺ ودعوته أنه كان ذا شخصية آسرة فَذَّة ملكت على أصحابه مشاعرهم؛ لحسن سياسته لطبائعهم ورغباتهم، وأنَّ نجاح دعوته إنما كان لأجل هذه السمات النفسية التي

(*) شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، مرجع سابق. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

وُهِبت له، والتي هيَّأت له ـ من بعد ـ أن يدعو إلى نفسه نبيًّا فيصدقه من آمن به مأخوذًا بحضور شخصيته وقوتها، بقطع النظر عن الهُدَى والحق اللذين دعا إليهما وزعمهما وحيًا يُلقَى في رُوعه من السماء. وهو زعم يُساق بين جملة مزاعم أخرى في تفسير الاستجابة الفريدة للدعوة النبوية في الجزيرة العربية، فاحتمال نبوته لديهم قول مستبعد رأسًا، على أن منهم من يقر بالنبوة لأناس في التاريخ لا يُعْرف لهم أثر يقاس إلى ما صنعه نبيُّ المسلمين ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن الخصائص الشخصية لبعض المتازين من الناس ليست وحْدها دليلًا على اعتقاد نبوَّتِهم.

٢) لم يؤمن أصحاب محمد ﷺ بنبوته من جهة الإعجاب المجرد بشخصه، وإن كانت محبته واجبة عليهم وقد وضَّح الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب في حواره مع النجاشي السِّرَّ الذي وقف وراء نجاح دعوة النبي ﷺ، مجملًا إياه في دعوته ﷺ إلى مكارم الأخلاق التي تدعو إليها النفس السوية قبل أن تأمر بها الشرائع، ولا نشم فيما قاله ﷺ أيَّ تأثير لشخصيته ﷺ الآسرة الفذة في نجاح دعوته والإيمان به كما يدعون.

التفصيل:

أولا. القدرة الشخصية ليست دليل نبوة:

نقرِّر هنا بدءًا أنَّ السَّواءَ النفسي ليس بمنقصة ندرؤها عن النبي ﷺ، وإنما هو صفة كمال نُثْبِتُها له من كل وجه، لكن لا أحد يذهب به السهو إلى حَدٍّ يظن عنده أن كل موهوب أو ذي بيانٍ يوشك أن يتخذه الناس نبيًّا؛ فإن المتازين من البشر لا يخلو منهم جيلٌ في كل أُمَّة.

نعم، لقد عرفت شعوب الأرض آلهة كثيرة مُدَّعاةً من البشر من مثل: بوذا وكنفوشيوس وزرادشت، لكن الثابت من سِير هؤلاء جميعهم أنهم لم يدعوا إلى أنفسهم آلهة ولا مرسلين، وإنما عُبدوا في فترات مختلفة من التاريخ، وقد ترك بعضهم أدبًا رقيقًا وشعرًا رائقًا، لكن قصارى ذلك أن صار تراتيل في المعابد، لم تتغير بها ثقافة شعب، ولا أحدثت إصلاحًا ـ ولو جزئيًّا ـ في بقعة من الأرض، ثم لم تكن سيرتهم بمنجاة من دَسِّ الخرافات والأوهام، بل من هؤلاء مَن لو حذفت عنه ما لا يُعقل، لم يبق منه غير اسم تائه في التاريخ؛ فلذلك كان وجودهم نفسه محل الشك والجدل حين بدأت المناهج الحديثة تأخذ موضعها في التحقيق التاريخي، أو كما يقول الأستاذ أ. ف توملين: "في وقت من الأوقات كان أسلوب العصر هو التشكيك في وجود زعماء دينيين عظماء أمثال زرادشت والبوذا والمسيح، ولا شك أن التاريخ ربما صار أقل حيرة لو تقبلنا وجهة النظر هذه، بيد أن كل الأدلة توحي بأن مثل هؤلاء الناس كان لهم وجود بالفعل"[١]!

وإذن.. فلا موضع لأن يُقاس هؤلاء الذين يحشد الدارسون الأدلة ليبلغوا ـ بعد الجهد والجدال ـ أنهم كانوا يومًا ما موجودين في الناس ـ لا موضع لأن يقاس هؤلاء بنبيِّ المسلمين وقد تجاوز التاريخ حفظ سيرته طورًا طورًا إلى حيث دوَّن أفعاله وأقواله في دواوين ضخمة، فهو ـ كما قيل ـ ولد وعاش

١. فلاسفة الشرق، أ. ف توملين، ترجمة: عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، ص٢٧٨.

تحت الشمس.

ولم يزل في العالم ـ بعد ذلك ـ ساسة وأبطال مقتدون يستخرجون من أقوامهم مشاعر الإعجاب والتقدير، لكنَّ النبوة شيء آخر غير البطولة وغير التميُّز في فنون العلم والأدب.

هذا، وقد وضع المسلمون مصنفات برأسها عن دلائل نبوة نبيهم ﷺ، ويسوقون فيها ما صح عندهم من معجزات حسيَّة خرقت عادة الطبيعة والسنن الكونية المألوفة، وهي معجزات أَثْبتُ إسنادًا من أمثالها التي يأخذ بها غيرهم من معتقدي النبوات، ونحن هنا لا نسوق معجزات النبي ﷺ من هذا الجانب الذي طريقه الرواية والنقل، بل نريد هنا أن مضمون الدعوة المحمدية حدث غريب في التاريخ العالمي بجملته.

فإن التميُّز الذي يحصُل لبعض الناس له ـ ولا بد ـ قدر محدود لا يبلغ أن يكون انفصالًا تامًّا عن البيئة الاجتماعية، وانقطاعًا عن مؤثراتها التي تلابس النشء في أطوار التربية والنُّمُو، فأما أن يظهر في قوم أعرابٍ أُمِّيين من يدعو إلى آداب اجتماعية وخلقية وإلى تشريع قانوني، وإلى تصور عال نزيه عن حقيقة الوجود الإنساني وحقيقة ما وراءه من حياة الدار الآخرة، يدعو إلى ذلك كله، ثم لا يظهر بين دعوته وما هو متداول من تصورات دينية تالفة أو وثنية يسميها هو "جاهلية" أية علاقة أو صِلات ـ أما هذا كله فظاهرة جاءت على خلاف المألوف في ظواهر الاجتماع البشري.

يقول الأستاذ محمد لطفي جمعة: "وكان من مؤرخي الإفرنج من بدأ يهمس بأن النبي ﷺ لو كان دعيًّا أو منتحلًا أو طالب مجد لنفسه على حساب الربِّ الذي يدعو إليه ـ ما وصل إلى أعماق تلك القلوب التي كانت بالأمس متحجرة، ولا استطاع ـ مهما أُوتي من حذق وبراعة ـ أن يضرب على الأوتار الحساسة في قلوبهم ونفوسهم، لا سيما وأنه جاء لهم بمعتقدات تخالف معتقداتهم، وتصدم ميولهم وشهواتهم، وتقف حجر عثرة في سبيل آمالهم الدنيوية"[1].

والقدرة الشخصية ـ على هذا الوجه المُدَّعى ـ لا تفسِّر أن يجيء محمد ﷺ بكتاب معجز لا يظهر فيه أدنى أثر لشخصيته ﷺ، وآماله وآلامه، بل نحس إحساسًا بَيِّنًا بفرق ما بين هذا القرآن والحديث النبوي، ومن العسير أو الممتنع أن يفصل ذو بيان هذا الفصل الكامل بين حديثين كلاهما من قوله، وذلك إنما يدركه بوضوح الذين زاولوا الكتابة والإبداع الأدبي، وتملكوا أدوات صنعة البيان.

فأما إخباره ﷺ عن الغيب فأمر مشتهر في سيرته، ومشتهر كذلك بعد وفاته، وأما آيات الإعجاز في كتابه الذي أُنزل عليه فلم يزل المسلمون إلى هذا اليوم كلما جَدَّ في المعرفة الإنسانية جديد من وجوه الإقناع والحِجاج يعودون إليه، فيجدونه ـ كما كان دومًا ـ سخيًّا معطاءً لا تنتهي عجائبه ولا يَخْلَق على كثرة الرد.

ثانيًا. إيمان صحابة النبي ﷺ بالحق لا بالشخص:

لا يُجْدِي في دراسة التاريخ والشخصيات المؤثرة فيه أن نسلك هذه المسالك الغريبة؛ فإن حقيقة هذه

---

١. ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٤.

الدعوى التي نعالجها هنا أن فئة من الناس طافوا حول سيرة محمد ﷺ يتلمّسون سقطة أو معابة، فلما أعجزهم ذلك جعل بعضهم من كماله مطعنًا، قائلين إنه: اتُّبع لجدارة في شخصيته لا لحقٍّ كان معه، وهذا من طراز الدعوى المحضة التي تقابل بضدها، فيقال: لا ليس كذلك، دعوى كدعوى، وهذا حسبك.

على أن من هؤلاء الزاعمين من يثبت النبوة لأفراد في التاريخ مشتتين لا يعرف لهم ذكر ولا أثر، بل لايكاد التاريخ العام يذكرهم، فلا تجدهم إلا في التاريخ الديني، وهذا حال أكثر أنبياء العهدين القديم والجديد، فإذا أضفت إلى هذا الاضطرابات التاريخية والعلمية في هذين الكتابين تَبَيَّن في جلاء أن الطعن في نبوة محمد ﷺ عند من يؤمن بهؤلاء وكتبهم قول وراءه عصبية لا نظر منصف.

ولقد رأى المسلمون السابقون من محمد ﷺ أكثر مما هو معهود في جنس الأنبياء، وكانوا يعرفونهم من مجاوريهم ومخالطيهم من أهل الكتاب، فكل شيء يؤمن المرء لأجله بنبي قد وجدوه في نبيهم ﷺ، وقد صار ما أظهره الله عليه من الآيات والمعجزات مادة ثرية فيما بعد لمصنفات برأسها في دلائل نبوته، حتى قال البيهقي: "فأما النبي المصطفَى والرسول المجتبَى ﷺ... فإنه أكثر الرسل آيات وبيِّنات، وذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفًا"[1]، عدا القرآن الذي هو معجزته الدائمة.

ولقد نزع المسلمون منازع شتى في إثبات نبوة محمد ﷺ، حتى لم يبق وجه تثبت به نبوة لنبي إلا وجدوه لنبيهم في غير كلفة ولا اعتساف، لكن التعاليم النبوية نفسها بدت لهم واجبة الاتباع على كل حال، فهي حتى لو افترضنا أنها لم تكن وحيًا فهي فضائل خلقية وسياسات عادلة.

والحقيقة أن التاريخ حفظ لنا نصًّا يصوِّر وعي المسلمين الأولين بالدعوة المحمدية تصويرًا صادقًا، ذلك ما دار بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب ممثلًا عن مسلمي العرب المهاجرين إلى الحبشة، وفيه لا يذكر جعفر شيئًا عن هذا الذي يدعيه المشككون من شخصية جذَّابة تأسر من استلبت مشاعرهم وألجأتهم إلى الإيمان بها دون نظر إلى ما تدعو إليه، لا ذكر لشيء من هذا المعنى الشعري المجازي الذي لا طائل وراءه ولا معنى واضحًا.

وقد بدأ جعفر القصة من أولها: كما ترويها أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ بقول جعفر: "كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحِم، وحُسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله سبحانه وتعالى وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قالت أم سلمة: فعدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدَّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء

١. دلائل النبوة، البيهقي، مرجع سابق، ج١، ص١٠.

به من الله..."[1][2].

وظاهرٌ أن حديث جعفر هذا أوضح في منطقه وأسلم من قول من يدَّعي هذه الدعوى؛ فما قاله جعفر أن رجلًا صالحًا جاء إليهم بدعوة إلى مكارم الأخلاق التي تدعو إليها النفس السوية قبل أن تأمر بها الشرائع، فاتبعناه، ولم يقل: كما يقوله صاحب هذه الدعوى: جاء إليهم شخص له حضور وسمات نفسية أهَّلَته لقيادة العرب، وهذه الخصائص هي سبب آيات الاتباع والفداء العجيبة التي يرويها التاريخ! فأيَّ الرجلين تصدِّق إذن؟

وإن المطالعة العَجْلَى لمظاهر تقدير صحابة النبي ﷺ له لتُبْدي في جلاء أنها تجاوزت حدود الطاعة والإعجاب والحب المعهود بين الناس إلى حيث صارت آيات على خصوصية النبي ﷺ على وجه صرف إليه القلوب والأرواح، حتى قُدِّم على حب الأهل والذُّرِّية، وحتى فُدِيَ بالنفس والروح، وهو حُبٌّ حيَّر معاصريه، حتى قال أبو سفيان ـ وكان لم يُسلِم بعد ـ لزيد بن الدِّثِنَّة ﷺ حينما أخرجه أهل مكة من الحَرَم ليقتلوه ـ وقد كان أسيرًا عندهم ـ: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ قال: والله، ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي! فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا[3]!

وهذا ومثله شيء بعيد عن قوة الشخصية وضعفها، شيء آخر ليس من هذا الجنس أصلًا، إنه الحق الذي يقذفه الله في القلوب فيمحق به الباطل.

الخلاصة:

- من الشائع في كل جيل وأمة أن يظهر أناس ذو خصائص نفسية رفيعة أو ملكات ممتازة، لكن هذه الخصوصية لا تجعلهم في الحسِّ العام كالأنبياء؛ فإن النبوة لها تفرُّدها الخاص من جهة أنها هبة إلهية لا كسب بشري؛ ومن ثم تعثَّرت هذه المحاولة التي أرادت أن تجعل محمدًا ﷺ مجرد رجل يتبعه أصحابه كما يتبع التلاميذ معلمهم العظيم أو واعظهم المرشد؛ لأنها دعوى قاصرة تسوقها عصبية دينية لا بحث نزيه متجرد.
- جاءت السيرة النبوية حافلة بدلائل النبوة التي ليست من جنس المعجزات الحسية التي يعوَّل فيها على النقل والرواية، فظهور الدعوة نفسها ونجاحها وتحقيقها أبلغ الآثار التي تعدت العرب إلى غيرهم من الشعوب، ثم مضمون الدعوة نفسه الذي انقطع تمامًا عن المؤثرات العربية فغدا تشريعًا عالميًّا وأدبًا عامًّا للإنسان أينما نشأ ـ ذلك كله لا تفسره دعوى قوة الشخصية وجدارتها فحسب.
- جهة إيمان صحابة النبي ﷺ به منفكة عن جهة الإعجاب بشخصية فريدة أو مصلح نبيه، ولقد رأوا

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث جعفر بن أبي طالب ﷺ (١٧٤٠)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٣)، برقم (٢٢٦٠)، وصححه الألباني في فقه السيرة، ص١١٥.

٢. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: الشيخ محمد بيومي، دار الحرم للتراث، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج١، ص٢١٠.

٣. أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة، باب الزاي، من اسمه الزبير (٢٦٣٤).

فيه من سمت النبوة ودلائلها أبلغ مما سمعوا به من أهل الكتاب، وما وجدوا أمارة تثبت نبوة نبيٍّ إلا وجدوا مثلها وزيادة عند نبيِّهم.

- فإذا ضممت إلى ذلك تلك النقلة البعيدة في الأخلاق، والآداب الاجتماعية والتشريع، وتَصوُّر العقيدة في الله واليوم الآخر، فقد استوت جميع مبررات التصديق والإيمان به نبيًّا يوحَى إليه.

الشبهة العشرون

الزعم أن سبب إيمان أهل المدينة بدعوة النبي ﷺ غيرتهم من أهل مكة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن الدافع وراء إيمان أهل المدينة بدعوة النبي ﷺ إنما هو غيرتهم من أهل مكة؛ وذلك أن النبي ﷺ لما اجتمع بالناس في موسم الحج دعا إلى دينه أُناسًا من أهل يثرب كانت تأكل قلوبهم الغيرة من أهل مكة، فاستهواهم حديثه واعتقدوا أنه النبي المنتظر.

ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في الدافع الذي حدا ببعض صحابة النبي ﷺ إلى الإيمان بدعوته واعتناق رسالته ﷺ. للخلوص إلى أن النبي ﷺ ليس صادقًا في دعوته، وأن دعوته ﷺ تفتقد ما من شأنه أن يحبب الناس فيها ويدفعهم إلى اعتناقها طواعية عن اقتناع.

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

وجها إبطال الشبهة:

١) كان لإسلام أهل المدينة وتمسكهم بالدين الإسلامي الجديد عدة أسباب منها:

- مبادرتهم إلى تصديق الرسول ﷺ قبل اليهود؛ خوفًا من تهديداتهم باتباعهم له وإخراجهم من المدينة وقتلهم قتل عاد وإرَم.
- رغبتهم في ضم النبي ﷺ إليهم؛ حتى يجمع شتاتهم، ويوحِّد صفهم، ويؤلِّف بين قلوبهم بعد حروب دامت بينهم فترة طويلة.
- الاقتناع الكامل بالدين الجديد وتعاليمه السامية.

٢) لقد بايع الأنصار النبي ﷺ على البذل المستمر والتضحية في سبيل هذا الدين؛ طلبًا للنجاة في الآخرة، وطمعًا في دخول الجنة.

التفصيل:

أولا. الأسباب التي تقف وراء إسلام أهل المدينة:

إن ثمَّة أسبابًا عدة تقف وراء إسلام أهل المدينة المنورة، وهي بعيدة تمام البعد عن أمر الغيرة من أهل مكة، الأمر الذي ركز عليه مثيرو هذه الشبهة وأهم هذه الأسباب:

١. خوفهم على أنفسهم من اليهود الذين كانوا يهددونهم ببعثة النبي ﷺ، واتباعهم له لإخراجهم من المدينة وقتلهم قتل عاد وإرَم، فبادروا إلى تصديقه، حتى لا يسبقهم هؤلاء إلى اتباعه:

كان اليهود جيران الأوس والخزرج يتحرَّشون بهم ويسعون إلى السيطرة على المدينة، ويهددون أهلها بنبي جديد قد حان زمانه يتبعه اليهود فيقتلون العرب،

ويأخذون أرضهم وأموالهم، ولا شك أن هذا الخبر كان يغيظ أهل يثرب ويشعرهم بالخطر.

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بعامين خرج رسول الله ﷺ كعادته يعرض نفسه على القبائل، فبينا هو عند العقبة لَقِيَ رَهْطًا من الخزرج فقال لهم: "من أنتم"؟ قالوا: نَفَرٌ من الخزرج، قال: "أمن موالي يهود"؟ قالوا: نعم. قال: "أفلا تجلسون أكلمكم"؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله تبارك وتعالى وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان مما صنع الله تبارك وتعالى بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم به قتل عاد وإرم، فلما كلَّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون ــ والله ــ أنه النبي الذي توعَّدكم به يهود فلا يَسبِقُنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام[1][2].

٢. رغبة أهل المدينة في ضم النبي ﷺ إليهم؛ حتى يجمع شتاتهم ويوحِّد صفهم، ويؤلف بين قلوبهم:

كان سكان المدينة من الأوس والخزرج في نزاع دائم، تقول عائشة: "كان يوم بُعاث يومًا قدَّمه الله لرسوله، قَدِمَ رسول الله إلى المدينة وقد افترق ملؤهم وقتل سَراتهم"[3][4]. وبعاث موضع بالمدينة كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم، فهم بحاجة إلى من يضمِّد جراحهم وينهي صراعهم ويجمعهم على غاية واحدة.

لذلك نجد بعضهم عند البيعة يؤكد ذلك قائلًا: قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدَّقوا. فلما رجعوا إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم[5].

وهكذا نجد رغبة الأنصار في رسول الله ﷺ، عسى أن يجمع كلمتهم ويُوحِّد صفَّهم، وهذا ما حدث بفضل الله ﷻ ثم رسوله ﷺ، فلما أنعم الله على الخزرج والأوس بنعمة الإسلام اتفقت الكلمة واجتمع الشمل وتآخى الفريقان، فوحَّد رسول الله ﷺ اسمهما ولقبهما بالأنصار لأنهم نصروه، وتوحيد الاسمين تحت راية الإسلام كان له أعظم أثر في النفوس؛ إذ بذلك امتنع الشقاق وتصافت النفوس وساروا جميعًا نحو غرض واحد ومبدأ واحد هو نشر الإسلام[6].

٣. الاقتناع التام بالدين الجديد وبتعاليمه السامية:

عُرف عن أهل المدينة لين الجانب، ودماثة الخلق،

---

١. حسن: أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر العقبة الأولى وما جاء في بيعة من حضر الموسم (٦٩٨)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١/ ١٤٦).

٢. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١١٥.

٣. السَّراة: الأشراف.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الأنصار (٣٥٦٦).

٥. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص١١٤: ١١٦ بتصرف.

٦. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص١٤١.

وحسن المعاملة، بخلاف أهل مكة الذين عُرِفوا بالشدة والقسوة، وهذه أمثلة تؤكد ذلك:

خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير في المدينة يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، وقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليُسفِّها ضعفاءنا، فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمتَ كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلِّمه.

فوقف أسيد عليهما متشتِّمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أَوَتجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال أسيد: ما أحسن هذا الكلام وما أجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلًا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلتَ؟ قال: كلمتُ الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخفِروك[1]، فقام سعد مغضبًا مبادرًا؛ تخوُّفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يديه، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئِنين، عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتِّمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره، فقال مصعب - وقد أخبره أسعد بن زرارة: أي مصعب، جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلَّف عنك منهم اثنان، قال مصعب - لسعد: أوتقعد فتسمع فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قَبِلتَه، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين، قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مقبلًا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما

1. يُخفِر: ينقض.

وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نَقِيبة[1]، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وكان شاعرًا لهم وقائدًا يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام[2].

ومن أجل لين جانب أهل المدينة ودماثة أخلاقهم، سهُل عرض الإسلام عليهم وتفاعلهم معه، على خلاف أهل مكة الذين عُرفوا بالشدة والقسوة، فكان قبولهم للإسلام بعيد المنال في بداية أمر الدعوة الإسلامية.

إن سبب إسلام أهل المدينة الأول هو الاقتناع الكامل بالإسلام، وتعاليمه السامية، وحبهم لله ولرسوله ﷺ.

هذا الحب الذي جعل الأنصار يقتسمون أموالهم مع إخوانهم من المهاجرين، ويؤثرونهم على أنفسهم كما ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩).

إن هذا الإيمان الراسخ في القلوب هو الذي جعل الأنصار يبايعون النبي ﷺ على السمع والطاعة، ونصرة الله ورسوله؛ لذلك نجد لهم موقفًا عجيبًا يتجلى فيه مدى حبهم لله ولرسوله ﷺ، عندما قسم ﷺ الغنائم لبعض الزعماء من قريش وسائر العرب وأعطاهم عطايا سخية يتألَّف بها قلوبهم، ولم يكن في الأنصار منها شيء، قليل ولا كثير، فوجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدوا[3] عليك في أنفسهم، فقال: "فيمَ"؟ قال: فيما كان من قَسْمِك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال ﷺ: "فأين أنت من ذلك يا سعد"؟ قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، فقال رسول الله ﷺ: "فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فإذا اجتمعوا فأعلمني"، حتى إذا لم يبقَ من الأنصار أحد إلا اجتمع له، فأتاه فقال: يا رسول الله، قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني.

فقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: "يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله، وعالة[4] فأغناكم الله، وأعداء فألَّف بين قلوبكم"؟ قالوا: بلى، ثم قال: "ألَا تجيبون يا معشر الأنصار"؟ قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المنُّ لله ولرسوله، قال: "والله، لو شئتم لقلتم

١. ميمون النقيبة: محمود الطبيعة والسريرة.

٢. الروض الأنف، السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٢، ص١٩٩.

٣. وَجَد: حزن.

٤. العالة: في حاجة للمال والطعام.

فصَدَقتم وصُدِّقتم: جئتنا طريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، وخائفًا فأمَّناك، ومخذولًا فنصرناك". فقالوا: المنُّ لله ولرسوله، فقال ﷺ: "أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لُعاعَة[1] من الدنيا تألَّفت بها قومًا أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شِعْبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار"، فبكى القوم حتى أَخْضَلوا[2] لِحاهم وقالوا: رضينا بالله ربًّا ورسوله قسمًا، ثم انصرفوا وتفرقوا[3][4].

هكذا نجد الأنصار قد تغلغل الإيمان في قلوبهم، لدرجة أن رسول الله ﷺ يؤثر غيرهم في الفيء؛ لأنه يعلم قوة إيمانهم التي تفوق الغنائم وغيرها، إنهم إنما نصروا رسول الله ﷺ وآمنوا به طلبًا لرضا الله ﷻ ودخول الجنة، لذلك يقول أحدهم عند البيعة الكبرى: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ علينا وشرط أن يعطينا على ذلك الجنة.

فلم يكن إيمان الأنصار وأهل المدينة إذن غيرة من قريش أو مكة - كما يزعمون -، ولكنه إيمان عن يقين صادق بما عند الله ﷻ في الآخرة.

ثانيًا. مبايعة الأنصار للنبي ﷺ علي البذل والتضحية والسمع والطاعة:

لقد بايع الأنصار النبي ﷺ على السمع والطاعة وعلى أن يحموه وينصروه، ولهم الجنة. وفي ذلك يقول كعب بن مالك وهو يروي ما حدث في العقبة الثانية: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلَّل تسلل القَطا[5] مستخفين حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع... فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه يستوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يُسمُّون هذا الحي من الأنصار الخزرج؛ خزرجها وأوسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في

---

١. اللُّعاعة: الشيء القليل.

٢. أخضَل: بَلَّ.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري (١١٧٤٨)، والهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل الأنصار (١٦٤٧٥)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٩٧).

٤. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص٥٧٥، ٥٧٦.

٥. القَطا: نوع من اليمام.

عزة ومَنَعَة من قومه وبلده، فقلنا له: قد سمعنا ما قلتَ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورَغَّب في الإسلام، قال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم"، فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا[1]، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرًا عن كابر، فاعترض القول أبو الهيثم بن التَّيْهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم"، قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: "أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا يكونون كُفلاء[2] على قومهم بما فيهم"، فأخرجوا منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[3].

وكان ممن تكلم أيضًا في هذه البيعة الصحابي الجليل أسعد بن زرارة فقال: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب إذا فعلنا ذلك، فقال ﷺ: "أسألكم لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا، وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم"، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: "الجنة"، قالوا: فلك ذلك[4][5].

والمتأمل في هذه البيعة - بيعة العقبة الثانية - يجد فيها أمورًا مهمة؛ منها:

١. الضمان الأساسي هو الإيمان بالله، فلقد كان العهد مع الله بنصرة رسوله ودعوته هو صفقة مع الله يقوم على الالتزام بها ضمير المؤمن.

٢. هذه البيعة تمثلها الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١)، فليس فيها ذكر لحقوق الدنيا وغنائمها. إنها بيعة على البذل المستمر لله طلبًا للنجاة في الآخرة، وهؤلاء المبايعون هم الدعامات التي قام عليها المجتمع الإسلامي الأول.

٣. إدراك الأنصار الرائع لعظم العواقب النهائية لهذه البيعة "والله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها

---

١. الأُزُر: جمع الإزار، أي نساءنا، والمرأة قد يُكنى عنها بالإزار؛ لأنها تُحمَى كما يُحمى الإزار، أو المراد أنفسنا، وقد يُعبر عن النفس بالإزار والثوب.

٢. الكُفلاء: جمع الكفيل، وهو الضامن.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ (١٥٨٣٦)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (٧٠١١)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الكاف، كعب بن مالك الأنصاري (١٧٤)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ١٤٦).

٤. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب المغازي، ما جاء في ليلة العقبة (٣٧١٠٣)، وأحمد في مسنده، مسند الشاميين، بقية حديث أبي مسعود البدري الأنصاري ﷺ (١٧١١٩)، والبيهقي في سننه الكبرى، باب ذكر العقبة الثانية وما جاء في بيعة من حضر الموسم (٧٠٧)، وقال عنه الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد: مرسل صحيح (١٧١١٩).

٥. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١ ص٤٤٥: ٤٥١. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص١٢٢، ١٢٣.

أبدًا".[1] فإن الجنة أعظم من أي جهد يبذله الإنسان، وإن سبق الناس إلى هذا الأمر شرف عظيم عند الله ﷻ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ (طه)[2].

وهكذا نجد أن الأنصار قد بايعوا النبي ﷺ على أن ينصروه ويحموه من قومه، ويكون لهم الجنة مقابل ذلك، فهم إنما رغبوا في النجاة في الآخرة من النار، وعلى الرغم من أن هذا يكلفهم كثيرًا من التعب والمشاق، إلا أن ذلك كله في سبيل الله ﷻ، فكيف تكون غيرتهم من أهل مكة هي سبب إسلامهم؟!

وإنا - في نهاية دَفْع هذه الشبهة - نتوجه إلى مثيري هذا الطعن بتساؤلات مؤداها: أية غيرة تلك التي زعمتم أنها تمثل السبب وراء إسلام أهل المدينة؟! وإلامَ استندتم في القول بهذه الغيرة المدَّعاة®؟!

الخلاصة:

- كان لإسلام أهل المدينة وتمسكهم بالدين الإسلامي الجديد عدة أسباب بعيدة تمام البعد عن أمر الغيرة من أهل مكة، منها:

o خوفهم من اليهود الذين كانوا يهددونهم ببعثة نبي آخر الزمان، واتباعهم له لإخراج أهل المدينة منها وقتلهم قتل عاد وإرم، فبادر الأنصار إلى تصديق النبي ﷺ؛ حتى لا يسبقهم اليهود إلى تصديقه.

o رغبة الأنصار في ضم النبي ﷺ ليجمع شملهم ويوحِّد صفهم ويؤلف بين قلوبهم بعد حروب عديدة قامت بينهم - الأوس والخزرج - لسنوات طويلة راح ضحيتها كثير من الرجال من الطرفين.

o اقتناعهم التام بالإسلام وبتعاليمه السامية، وذلك لما عُرف عنهم من لين الجانب، ودماثة الخلق، وحسن المعاملة، وأمثلة إسلام معظمهم تشهد بذلك، فأين إذن غيرتهم من قريش، وأهل مكة؟!

- كان إسلام أهل المدينة وإيمانهم بالله ﷻ عن اقتناع تام بتعاليم الدين الإسلامي الجديد، خوفًا من عذاب الله ﷻ وطمعًا في دخول الجنة، وهذا ما دفع القوم إلى إبرام بيعة العقبة الثانية، وعلى الرغم من أنهم يعلمون خطورة الموقف إلا أنهم آثروا رضا الله ﷻ على كل شيء، وضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ﷻ حتى ينالوا في الآخرة الجنة، وقد كان لهم ما تمنَّوا في الآخرة، حيث أحبهم النبي ﷺ وتمنَّى أن يكون منهم، ودعا لهم بقوله: "اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار"، وقال ﷺ: "لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار"[3].



1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤٤٩٦)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٣).
2. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص١٢٤، ١٢٥.

® في "دخول الناس في الإسلام عن رضى واقتناع" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثالث (عقيدة لنبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

3. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري (١١٧٤٨)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٩٧).

الشبهة الحادية والعشرون

ادعاء أنه ﷺ كان رسولا في مكة مَلِكًا في المدينة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن النبي ﷺ قسم حياته الدعوية إلى قسمين: قسم بمكة وقسم بالمدينة، ويزعمون أنه قصر الدعوة على القسم المكي، فكان رسولًا في مكة يدعو الناس إلى الإسلام، وتحوَّل في المدينة إلى قيصر العرب، ونفض يده من تبليغ الرسالة، وبدأ في التنظيمات السياسية والإعداد للحروب، وحوَّل الدين إلى سياسة معتمدًا على مبدأ "الغاية تُبرِّر الوسيلة".

وهم يرمون من وراء ذلك إلى الطعن في مصداقية النبي ﷺ في الدعوة إلى ربه ﷻ التي أُمِرَ بها.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يسعَ النبي ﷺ قط إلى زعامة أو مُلْكٍ، وكان بإمكانه أن يحقق هذه الزعامة وهذا الملك في مكة، حينما عرض عليه مشركو قريش ذلك مقابل التخلِّي عن دعوته، ولكنه آثر الحياة البسيطة على الملك والزعامة حتى توفاه الله ﷻ.

٢) كان المسلمون في المدينة يبحثون عن الأمن والأمان والاستقرار الذي فقدوه في مكة، وكذلك كان أهل المدينة يريدون الاستقرار بعد فترة الحروب، فاستطاع النبي ﷺ بفضل سياسته الحكيمة أن يحقق هذه الآمال، وأن يقيم بوصفه نبيًّا لا ملكًا دولة تقوم على العدل ويظلها الأمن والسلام والاستقرار.

٣) كانت حياة النبي ﷺ كلها دعوة إلى الله ﷻ بدون توقف، حتى لقي ربه مبلغًا رسالته على أكمل وجه كما أمره ﷻ، بلا فرق بين حياته في مكة أو في المدينة.

٤) لم يعتمد النبي ﷺ قَط في دعوته على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة - كما يزعمون - بل قامت دعوته ﷺ على عماد الشرف والصدق، فكما كانت غايته تقوم على الشرف، والصدق، والحق، كذلك كانت وسيلته التي لم تَحِدْ قَط عن الصدق، والشرف، والحق طوال حياته ﷺ.

التفصيل:

أولا. زهد النبي ﷺ وعدم سعيه إلى مُلْكٍ قط:

لقد كانت معيشته ﷺ الحياتية غاية في التواضع، مما يؤكد أنه ﷺ لم يطلب الزعامة والملك، لقد كان ﷺ مقتصدًا في مأكله ومشربه، لا يعلو عما عليه الفقراء والمساكين، قالت عائشة - رضي الله عنها -: "لقد تُوُفِّي النبي ﷺ وما في رَفِّي[1] من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ"[2]. ويقول أنس ﷺ وهو خادمه: "لم يأكل النبي ﷺ على خِوان[3] حتى مات وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات"[4].

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، مرجع سابق. الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١. الرَّفُّ: خشبة تُعلَّق على الحائط يُوضع عليها أغراض المنزل، والجمع رفوف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته (٢٩٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٤١).

٣. الخِوان: المائدة التي يُوضع عليها الطعام.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر (٦٠٨٥).

وكان بسيطًا للغاية في ملبسه، وأثاث بيته، يُؤثِّر في جنبه الحصير، وما عُرف أنه نام قط على شيء وَثِير[1]، حتى إن نساءه جئن إليه يومًا وفيهن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ يشتكين له الفاقة[2] ويطالبنه بمزيد من النفقة لزينتهن ولباسهن؛ حتى لا تكون إحداهن أقل شأنًا من مثيلاتها من نساء الصحابة، فأطرق مغضبًا، ولم يجب، ثم نزل قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الأحزاب)، فتلا رسول الله ﷺ عليهن الآيتين، ثم خيّرهن بين قبول العيش معه على الحالة التي هو فيها، أو الإصرار على مطالبهن من النفقة وزيادة الزينة والمال، وحينئذٍ يفارقهن ويسرحهن سراحًا جميلًا، فاخترن العيش معه على ما هو عليه، فكيف يشك العقل ـ أي عقل ـ بعد هذا كله في صدق نبوته؟! وكيف يصح أن يتوهم الفكر أو الخيال أنه قد يكون مدفوعًا برغبة الزعامة، أو الطمع في الغنى[3]؟!

ثم إن النبي ﷺ لو كان ساعيًا إلى زعامة أو ملك أو جاه لانتهز الفرصة التي واتته حينما بدأ مشركو قريش في سياسة المفاوضات معه ﷺ، مقابل تخليه عن دعوته.

هذا وقد رُويت هذه المفاوضات في بطون كتب السيرة والتاريخ، وسنعرض هنا مقتطفات منها:

جاء فيما يرويه ابن هشام عن ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم.. فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: "قل يا أبا الوليد، أسمع".

قال: يا ابن أخي: إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلْكا مَلَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا[4] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه. فقال له رسول الله ﷺ: "أفرغت يا أبا الوليد"؟ قال: نعم. قال: "فاسمع مني". ثم قال: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (فصلت). ثم مضى رسول الله ﷺ في القراءة وعتبة يسمع، حتى وصل إلى قول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصلت)،

---

١. الوَثِير: الممهَّد.

٢. الفاقة: الحاجة والعوز.

٣. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٩١ بتصرف.

٤. الرَّئي: التابع من الجن.

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكفَّ عن القراءة؛ خوفًا مما تضمنته الآية من تهديد[1][2].

إن المشهد السابق يبين لنا معنى الحكمة التي كان رسول الله ﷺ يتصف بها، هل من الحكمة أن تضع أنت السياسة التي تراها في سير الدعوة مهما كانت كيفيتها؟ وهل أعطاك الشارع صلاحية أن تسلك أي سبيل، أو وسيلة تراها ما دام هدفك من وراء ذلك هو الحق والخير؟

لا، إن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات، فليس لك أن تسلك إلى الغاية التي شرعها الله ﷻ لك إلا الطريق المعينة التي جعلها الله وسيلة إليها، وللحكمة والسياسة الشرعية معانٍ معتبرة، ولكن في حدود هذه الوسائل المشروعة فقط، فقد كان من المتصور في باب الحكمة السياسة أن يرضى رسول الله ﷺ معهم بالزعامة أو الملك على أن يُجمع في نفسه اتخاذ الملك والزعامة وسيلة إلى تحقيق دعوته فيما بعد، خصوصًا وأن للسلطان والملك وازعًا قويًّا في النفوس، وحسبك أن أرباب الدعوات والمذاهب ينتهزون فرصة الاستيلاء على الحكم كي يستعينوا بسلطانه على فرض دعوتهم ومذاهبهم على الناس، ولكن النبي ﷺ لم يرضَ سلوك مثل هذه السياسة والوسيلة إلى دعوته ﷺ؛ لأن ذلك ينافي مبادئ دعوته[3].

وعلى هذا فلو أراد النبي ﷺ أن يكون ملكًا للعرب ـ كما يزعم المدعون ـ فما الذي جعله يصبر في مكة على التعذيب والاضطهاد، على الرغم من عرض المُلك والزعامة عليه؟! ما الذي جعله يتحمل وأصحابه الشدائد والإيذاء والتعذيب في مكة، ويرضى بأن يخرج منها؟! إنه لشيء عجاب.

ثم إن النبي ﷺ ما نسب الأمر إليه أبدًا، وما استخدم سلطته في إدخال الناس الإسلام، روى ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهري في قصة عرض الرسول ﷺ دعوته على بني عامر بن صعصعة ما يلي: "ثم قال له ـ أي بحيرة بن فراس ـ: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال ـ أي رسول الله ﷺ ـ: الأمر لله تعالى يضعه حيث يشاء، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه"[4].

فلو كان الأمر كما يدعون من أنه كان يريد أن يصبح قيصر العرب لوعد هؤلاء القوم بشيء من الأمر، وقسم البلاد بما يتراءى له ولسياسته، وهذا ما لم يحدث، فبطل قولهم وسقط ادعاؤهم ®.

---

١. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب المغازي، ما جاء في أذى قريش للنبي ﷺ (٣٦٥٦٠)، وعبد بن حميد في مسنده، مسند جابر، جابر بن عبد الله (١١٢٣)، وأبو يعلى في مسنده، مسند جابر (١٨١٨)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٦٠).

٢. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٨٨.

٣. المرجع السابق، ص٩١، ٩٢.

٤. الرسول ﷺ، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١٩٠.

® في "زهد النبي ﷺ وجوده وتواضعه" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة).

ثانيًا. إقامة النبي ﷺ الدولة الإسلامية في المدينة بوصفه نَبيًّا لا ملكًا:

إن الذي يتتبع خطوات رسول الله ﷺ عند هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ويحاول على نور الإخلاص، والتجرد لله، والولاء للحقيقة، أن يقرأ شيئًا مما هو مكنون في نفسه ﷺ - يهتدي إلى أنه لم يقطع هذه الفيافي والقفار وهو يتوقَّى لهيب الحر، ويتحمل وعثاء السفر، من أجل الحصول على ثروة أو مجد سياسي من الملك أو الزعامة، وإنما كان كل ما ينشده ويحرص عليه هو تحقيق الأمن والأمان لدعوته التي يدعو الناس إليها، وهي دعوة الإسلام، والأمن والأمان لأصحابه الذين اتبعوه واتبعوا النور الذي أُنْزِل معه ليعبدوا الله ﷻ عبادة لا يرفقها خوف ولا يهددها عدوان، وأن يواصل مسيرته الطاهرة الظافرة لإنقاذ الناس من سطوة الظلم والظالمين، وتمكين الناس من عبادة الله على أساس من حرية العقيدة، التي لا يطفئها طغيان، ولا يزعجها سلطان.

إنه ﷺ وجد نفسه، ووجد المؤمنين معه في حاجة إلى مظلة أمن تظلِّلهم، وتعفيهم من هذا الصراع الذي صدر لهيبه من طرف واحد، من جانب كفار قريش

والشبهة العاشرة، والوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الثاني، من الشبهة الأولى، والوجه الرابع، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، والوجه الثاني، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). والوجه الأول، من الشبهة الخامسة والثلاثين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

الذين وصل بهم العناد إلى أن مكروا به يريدون قتله، ووصل بهم أيضًا إلى أنهم كانوا يواصلون إيذاء أصحابه وتعذيبهم إلى حد القتل والتنكيل بهم، دون رحمة أو شفقة أو مراعاة قرابة أو رحم، كما أنهم ظلوا على عدوانهم الغاشم ثلاث عشرة سنة، يسومون المسلمين سوء العذاب، والمسلمون على أوامر الله لهم بالدفاع عن أنفسهم والانتصار للحق والقرآن والإسلام[1].

وأما أهل المدينة المنورة فكانوا أيضًا يبحثون عن الأمن والأمان، بعد حرب أتت على كل شيء، وحطمت كل شيء، وأكلت الأخضر واليابس، وعصفت بصِلة القُربى وقطعت الأرحام، ألا وهي حرب بُعاث، وعاشت المدينة في هذا الظلام الدامس في ليل الحرب الحالك، وكانوا يتدبرون أمرهم؛ لتحقيق الأمن والأمان، ويحاولون التخلص من الأوهام والفزع، وأشباح هذا الليل البهيم، واجتمع بعضهم على اختيار رجل تكتمل فيه عناصر الشهامة والمروءة والذكاء ليجمع كلمتهم، ويوحد صفوفهم، وكانوا قد اتفقوا على أن يجعلوه ملكًا عليهم يكون رمزًا لمجتمعهم، وكانوا بالفعل قد اختاروا عبد الله بن أبي بن سلول.

ولكن إرادة الله ﷻ كانت قد سبقتهم بأن يكون هذا الرجل الذي تتوفر فيه كل عناصر العظمة، ومنها الخصال التي تحقق آمالهم هو محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ﷺ، فلا عجب أن يكون هذا "البدر" الذي

١. الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع عبد السميع كفافي، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ٢٠٠٥م، ص٤٠٥ بتصرف.

تطلعوا إليه ليبدد ظلمة الليل الذي شكوه، وليضيء الله به ليل القطيعة الحالك ـ هو أحمد الخير ﷺ، فلا عجب أن ينشدوا بالنشيد الذي أفعم قلوبهم حين رأوا أشعة النور ساطعة في جبينه ومشرقة من ثنيات الوداع، فأنشدوا:

طَلَعَ البَدْرُ علينا
مِنْ ثَنيَّاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ علينا
ما دَعَا للهِ داعْ
أيُّها المبعُوثُ فِينا
جِئْتَ بالأَمرِ المُطَاعْ
جِئْتَ شَرَّفتَ المَدِينة
مَرْحبًا يا خَيرَ داعْ

نعم إن أهل المدينة، كانوا في حاجة إلى الأمن أيضًا، يعيشون حياتهم في مظلته فيزرعون الأرض، وينشرون الحدائق والبساتين، فيطل عليهم التمر والعنب والرمان، ويزاولون حياتهم في أمن وأمان، فها هو المؤتمن لتحقيق ذلك قد جاء إليهم، ومعه أصحابه يشاركونهم السراء والضراء، وينعمون معهم بالمحبة والإخاء.. ليتحقق لأول مرة على وجه الأرض مجتمع الحب في الله والأخوة الإيمانية.

وأما اليهود فإنهم في البداية فرحوا بمقدم هذا النبي العظيم ﷺ بعد أن تأكدوا من نبوته ورسالته؛ لأن في هذا تصديقًا لما كانوا يستفتحون به على الناس من أنه النبي الموعود الذي يهاجر إلى يثرب، ويأمر الناس بعبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة الأصنام والأوثان.

والنبي محمد ﷺ استقبلهم استقبالًا حافلًا، واشترك معهم في صيام يوم عاشوراء، وفتح قلبه لهم، وصلى متوجهًا إلى بيت المقدس قبلتهم التي كانوا عليها، وأراهم منه ﷺ كل الصفات الجميلة التي حلَّاه الله بها، والأفعال الجميلة التي كانت هي بعض شأنه، كتواضعه، ونبل عواطفه، وسمو وفائه، وكامل بره، وواسع حلمه، وشمول عفوه، وحرارة عطفه على الفقراء والمساكين منهم، كل هذه الكنوز حباهم بها ﷺ عن طواعية، وحب للخير، وتحقيق لحرية العقيدة التي ظلت أساسًا متينًا من أسس دعوته ﷺ، ولا تزال من مقومات هذا الدين الذي أسسها على كلمتين اثنتين تظلان تملآن الوجدان بأنوارهما التي تؤنس الوحيد، وتقوي الفريد، وتعين الضعيف، وتؤمن الخائف، وتقلِّم أظفار الطغيان، وتطفئ نار العدوان حتى يقوم الناس لرب العالمين، وهم يهتفون بها: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ضمها القرآن الكريم بين آياته، وضمها سيدنا رسول الله ﷺ بين حناياه وبثها إرسالًا دافئًا ينفذ إلى أعماق المصلحين، ولم تظهر في دساتير العالم إلا بعد مئات السنين، بثها هذا النبي الكريم ﷺ لتبشير أهل الكتاب بما أنبأهم به من الآيات الكريمة البينات التي تسطع في سورة القصص، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (القصص)[1].

١. المرجع السابق، ص٤٠٥: ٤٠٨ بتصرف.

فلم يعطل النبي ﷺ الدعوة كما يدَّعي المدَّعون، ولم ينه الرسالة، بل ظل حتى مات ﷺ يدعو الناس جميعًا إلى الله رب العالمين.

ثالثًا. دعوة النبي ﷺ المستمرة إلى الله منذ بُعث إلى أن توفي ﷺ:

لقد عاش النبي ﷺ حياته كلها داعيًا إلى الله ﷻ منذ أن كلَّفه الله بحمل الرسالة وتبليغها الناس، سواء كانت هذه الدعوة في المدينة أم في مكة، وهذه نماذج من دعوته الناس في المدينة، وهي تبطل ما ادعاه مثيرو هذه الشبهة من أنه ﷺ ترك الدعوة في المدينة وتحول إلى قيصر للعرب:

١. عن عوف بن مالك الأشجعي ؓ قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم: "يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلًا يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، يحطُّ الله عن كل يهودي تحت أديم السماء[1] الغضب الذي غضب عليهم"، قال: فأسكتوا ما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم، فلم يجبه منهم أحد، فقال: "أبيتم؟ فوالله، إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب[2]، وأنا النبي المصطفَى، آمنتم أو كذبتم".

ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد! فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك. قال: فإني أشهد له بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة، فقالوا كذبت، ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًّا...[3].

٢. وعن أبي هريرة قال: بينا نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: انطلقوا إلى يهود، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس،[4] فقام النبي ﷺ فناداهم فقال: "يا معشر يهود، أسلموا تسلموا"[5][6].

وهذه نماذج من تكليفه بعض أصحابه بتبليغ رسالته إلى القبائل المجاورة في الجزيرة العربية:

١. عن محمد بن عبد الرحمن التيمي قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الإسلام، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بني بَلِيّ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يتألَّفهم بذلك[7].

٢. وعن البراء ؓ أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد ؓ إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه. ثم إن

١. أديم السماء: ما يظهر منها.

٢. العاقِب: الذي لا نبي بعده.

٣. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (٧١٦٢)، والطبراني في المعجم الكبير، باب العين، عوف بن مالك الأشجعي كان ينزل بدمشق الشعبي عن عوف بن مالك (٨٣)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٨٠).

٤. بيت المدراس: مكان اجتماعهم للدرس والتعليم.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب بيع المكره ونحوه (٦٥٤٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز (٤٦٩٠).

٦. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، مرجع سابق، ص١٠٢: ١٠٦ بتصرف.

٧. أخرجه محمد بن إسحاق في السيرة كما في البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣١٢).

رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب ﷺ وأمره أن يَقفُل[1] خالدًا إلا رجلًا كان ممن مع خالد، فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علي. فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم. فصلى بنا علي، ثم صفنا صفًّا واحدًا، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعًا، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم. فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: "السلام على همدان، السلام على همدان"[2][3].

إرساله ﷺ الرسل والرسائل لتبليغ الملوك والأمراء:

عن ابن إسحاق قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتابًا: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، السلام عليكم، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البَتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني؛ فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر؛ فإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ، وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى"[4].

ونص رسالة الرسول ﷺ إلى أهل نجران وهو: "باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران! سلام عليكم، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد! فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب. والسلام"[5].

وقد أرسل الرسول ﷺ رسائل مشابهة إلى المقوقس، وإلى ملك اليمامة، وإلى المنذر بن ساوة عظيم البحرين، وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وإلى الحارث بن عبد كلال الحميري، وإلى ملكي عمان ابني الجلندي وغيرهم.

هذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله ﷺ تعطيك صورة موجزة عن قيامه بتبليغ أمر الله ودينه وشريعته، واستيفاء هذا الموضوع حقه يحتاج إلى مجلد ضخم على الأقل؛ إذ إن رسول الله خلال ثلاثة وعشرين عامًا بعد النبوة، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفوِّت فرصة يستطيع بها أن يُبَلِّغ، بالاتصال الشخصي والعرض الجماعي، وفي السفر والحضر، وبنفسه وأتباعه، وبالمشافهة والخطاب، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة، فمن مستجيب ومن

١. يَقفُل: يرجِع.

٢. صحيح: أخرجه الروياني في مسنده، كتاب رواية أبي إسحاق عنه، باب فأسلمت همدان كلها في يوم واحد فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ (٣٠٢)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب الحيض، باب سجود الشكر (٣٧٤٧)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٤٧٤).

٣. الرسول ﷺ، سعيد حوى، مرجع سابق، ص١٠٦، ١٠٧.

٤. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٨)، برقم (٦٠٣).

٥. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٨٥)، برقم (٢١٢٦).

معرض قامت عليه الحجة فأصرَّ على الكفر عنادًا، وما من إنسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبليغ المنقطع النظير، وهو لا يمكن أن يكون إلا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة[1].

رابعًا. قيام دعوة النبي ﷺ على الشرف والصدق في كل من الوسيلة والغاية:

إن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات، فليس لك أن تسلك إلى الغاية التي شرعها الله لك، إلا الطريق المعينة التي جعلها الله وسيلة إليها، وللحكمة والسياسة معانٍ معتبرة، ولكن في حدود هذه الوسائل المشروعة فقط، والنبي ﷺ لم يرض أن يسلك أية سياسة غير شرعية في دعوته؛ لأن ذلك ينافي مبادئ الدعوة نفسها.

ولو جاز أن يكون مثل هذا الأسلوب نوعًا من أنواع الحكمة والسياسة الرشيدة لأُلغي الفرق بين الصادق الصريح في صدقه، والكاذب الذي يخادع في كذبه، ولتلاقى الصادقون في دعوتهم مع الدجالين والمشعوذين، على طريق واحدة عريضة اسمها: الحكمة والسياسة.

إن فلسفة هذا الدين تقوم على عماد الشرف والصدق في كل من الوسيلة والغاية، فكما أن الغاية لا يكون قوامها إلا على الصدق، والشرف، وكلمة الحق، فكذلك الوسيلة لا ينبغي أن يحددها إلا مبدأ الصدق والشرف وكلمة الحق.

ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الإسلامية في معظم حالاتهم وظروفهم إلى التضحية والجهاد؛ لأن السبيل التي يسلكونها لا تسمح لهم بالتعرج كثيرًا ذات اليمين وذات الشمال[2]، فلقد كان الصدق من صفات الرسول ﷺ في الجاهلية والإسلام، فقد كانت قريش تعرف محمدًا ﷺ قبل أن يتنزل عليه الوحي بالصادق الأمين، وحتى عندما بدأت الرسالة، وأراد أن يدعو قريشًا اعترفت بصدقه قبل أن يتكلم عن رسالته، فعندما صعد الصفا وقال: "ياصباحاه"؛ كي تجتمع له قريش، فاجتمعت على الفور وقالوا: ما لك؟ قال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسَفْح هذا الجبل[3] أكنتم مُصدِّقيَّ"؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[4].

وها هو هرقل ملك الروم يسأل أبا سفيان في ركب من قريش بعد صلح الحديبية، فيقول: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. فقال ملك الروم: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله[5].

وفي القرآن الكريم الصدق صفة وصف بها رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ

---

١. الرسول ﷺ، سعيد حوى، مرجع سابق، ص١٠٨، ١٠٩.

٢. فقه السيرة، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص٩١، ٩٢.

٣. سَفْح الجبل: أسفله.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة المسد (٤٦٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء) (٥٢٩)، واللفظ له.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كان بدء الوحي إلى رسول الله (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

﴿إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ (الأحزاب). وقال ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (التوبة).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة..."[1][2].

فكيف يدَّعون إذن أن النبي ﷺ استعان بالكذب لفرض الحقيقة متخذًا مبدأ الغاية تبرر الوسيلة؟!! فهل يُعقل أن ينهَى الناس عن الكذب ثم يقوم به ليقيم دعائم دولته في المدينة؟!!

إن النبي ﷺ لو كان متخذًا لقاعدة "الغاية تبرر الوسيلة" لتعجَّل في الأخذ بها في مكة قبل أن يأتي المدينة؛ حينما عرضت عليه قريش الملك والزعامة والجاه، ولانتهز الفرصة التي واتته وقَبِل عروض أهل قريش ريثما يكوِّن المُلْكَ المدَّعَى والزعامة المدَّعاة. ثم ما الذي يجعله يصبر على إيذائهم واضطهادهم في مكة غافلًا عن هذه القاعدة المدَّعاة®؟!

الخلاصة:

- عاش ﷺ حياة بسيطة، ولم يؤثر عنه الملك والزعامة حتى مات ﷺ، مما يؤكد أنه ﷺ لم يطلب الزعامة والملك، ولقد كان ﷺ متواضعًا في مأكله ومشربه، لا يعلو عمَّا عليه الفقراء والمساكين.
- استطاع النبي ﷺ في المدينة بوصفه نبيًّا لا ملكًا أن يقيم مجتمعًا مسلمًا متآخيًا، قوامه: المحبة والسلام والإخاء.
- عاش محمد ﷺ يدعو الناس في مكة إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له، وربَّى أصحابه على هذه المبادئ طوال ثلاث عشرة سنة، ولما هاجر وأصحابه إلى المدينة، دعا الناس إلى مكارم الأخلاق وأرسى بينهم مبادئ الأخوة والمساواة والإيثار، فكانت حياته كلها دعوة، عاشها داعيًا إلى ربه، ومبلغًا للرسالة، التي من أجلها أُرْسِل، وفضَّل أن يكون نبيًّا عبدًا على أن يكون نبيًّا ملكًا.
- إن فلسفة هذا الدين تقوم على عماد الشرف والصدق في كل من الوسيلة والغاية، فكما أن الغاية قوامها الصدق والشرف وكلمة الحق، فكذلك الوسيلة لا ينبغي أن يحددها إلا مبدأ الصدق؛ الشرف وكلمة الحق.
- لو كان النبي ﷺ معتمدًا على مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" لوافق المشركين من قريش حين أَتَوْا يعرضون عليه الملك والجاه والمال، في مقابل ترك دعوته، ولما تحمل الأذى والعذاب هو وأصحابه طوال ثلاث عشرة سنة في مكة.



---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (التوبة) (٥٧٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٦٨٠٥)، واللفظ له.

٢. رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٧٤، ١٧٥.

® في "**صدق النبي ﷺ وأمانته قبل البعثة وبعدها**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

الشبهة الثانية والعشرون

ادعاء أن النبي ﷺ كان يُغيِّر خططه الدعوية وفقًا لظروف البيئة المحيطة به(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن النبي ﷺ كان يغيِّر خططه الدعوية من تلقاء نفسه وفقًا لظروف البيئة المحيطة به، ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ قدَّم الإسلام في مكة على أنه دين عربي محلي، وقدَّمه في المدينة على أنه دين عالمي. ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في صدق دعوته ﷺ، واتهامه بتطويعها وتلوينها من تلقاء نفسه حسب مقتضى الحال.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد تلقى النبي ﷺ خطة الدعوة من الله ﷻ، وهي خطة حكيمة، تعددت مراتبها، ولكن أسسها ومبادئها ظلت ثابتة لم تتغير، ومن هذه الأسس: الشمولية، والعالمية، وختم الرسالات.

٢) إن الإسلام منذ نشأته الأولى يقرر في صراحة ووضوح أنه دين عالمي، جاء للناس جميعًا، وأن محمدًا ﷺ جاء بشيرًا ونذيرًا إلى العالمين.

التفصيل:

أولا. أسس الدعوة ومبادئها ظلت ثابتة منذ نشأتها لم تتغير:

لقد تلقى النبي ﷺ خطة الدعوة من الله ﷻ، وهي خطة حكيمة تعددت مراتبها، ولكن أسسها ومبادئها ظلت ثابتة لم تتغير، سواء في ذلك العهد المكي والمدني، ومن هذه الأسس: الشمولية، والعالمية، وختمها للرسالات.

ويجدر بنا في البداية أن نشير إلى أن "تغيير الخطط ينبغي أن يُفْهَم في إطار التدرج في التشريع، فقد كان من الطبيعي جدًّا أن يتصرف الرسول ﷺ في العهد المكي، وتحت ضغط المشركين، بصورة تختلف عن العهد المدني الذي تكونت فيه للمسلمين خصائص الدولة الجديدة"[1].

إن ملاءمة الظروف والتعامل مع معطيات الواقع المتغير، لا بد أن تكون إحدى السمات لرسالة لها صفة "العالمية"، فما دامت هذه الرسالة للناس كافة عبر الزمان والمكان، فمحال أن تتجمد نصوصها وتشريعاتها وفق ظروف الزمان الذي أُنزلت فيه، ولا بد أن تنطوي على مساحة كبيرة من الرؤية المستقبلية القادرة على التوافق مع متغيرات الزمان والمكان، مع الارتباط الدائم والثابت بجوهر الرسالة وغاياتها.

- وفق هذا المعيار نجد الرسالة والرسول يحتويان الثابت والمتغير، والثابت في الإسلام هو أركانه الخمسة المعروفة، وما تقوم عليه من وحدانية الخالق والإيمان بعالم الغيب، أما المتغير فهو ما يتصل بحاجيات الناس المتجددة، وبهذا نفسر لماذا قال القرآن مثلًا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، هكذا دون تحديد لأي تفصيل لهذه القوة لا كمًّا ولا كيفًا؛ ذلك لأن

(*) القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق.

١. الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٦م، ص٥١.

الأمر مع القوة قابل للتأثر بمتغيرات الزمان والمكان، بينما نجده حين يتحدث عن الميراث يذكر السُّدُس، والثُّمن، والربع، والثُّلث، والثلثين، والنصف. وتلك قسمة حضارية للرسالة وللرسول تتسق مع عموم الرسالة، وكونها كافة للناس أي عالمية[1].

ونحن إذا نظرنا إلى الدعوة المحمدية فإننا نجد أن النبي ﷺ كان يتلقى خطة الدعوة من قيوم السماوات والأرض، وهي خطة حكيمة رائعة تدرَّج فيها الإسلام في معارج الصعود، حتى بلغ الذروة، فمحمد ﷺ كان رسولًا موحًى إليه، ليس مصلحًا أرضيًّا ولا منتهزًا لفرص يتطور معها توسعًا وامتدادًا، فإنه ﷺ لم يكن يخطط للدعوة كما يزعمون، بل كان يخطط الله له ويدبر. ومن ثَمَّ فقد تدرجت دعوة النبي ﷺ بناءً على هذا إلى عدة مراحل، ذكرها الشيخ محمد أبو زهرة ناقلًا إياها عن ابن القيم[2] الذي ذكرها مختصرة، ففصلها هو، يقول الشيخ أبو زهرة: ذكر ابن القيم في زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس مراتب، وهي:

المرتبة الأولى: النبوة فلا يدعو إلى الحق الذي نزل من عند الله ﷻ إلا نبي، وقد اعتبرها ابن القيم المرتبة الأولى، ونحن لا نعتبرها كذلك؛ إنما نعتبرها كيان الدعوة، فلا دعوة إلى الإيمان برسالة إلا من نبي مرسَل، فهي دعامة، وليست مرتبة يُبتدأ بها، بل هي الأصل ولب الدعوة.

المرتبة الثانية: إنذار العشيرة الأقربين، وقد أمر الله ﷻ بذلك، فقال ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (الشعراء)، وقد بدأ النبي ﷺ دعوة عشيرته، فدعا بني عبد مناف، وقال لهم: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسَفْح هذا الجبل أكنتم مُصدِّقيَّ"؟! قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[3].

المرتبة الثالثة: إنذار قومه، وقد سلك محمد ﷺ ذلك المنهاج الذي انتقل فيه من الحيز الضيق إلى ما هو أوسع، ثم إلى ما هو أعم، فانتقل من إنذار عشيرته الأقربين إلى قومه من قريش: قريبهم وبعيدهم، وقد أنذر ﷺ في هذه المرتبة سكان مكة المكرمة وما حولها.

المرتبة الرابعة: عبَّر عنها ابن القيم بقوله: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهؤلاء هم العرب في الجزيرة العربية قاصيهم ودانيهم، سكان المَدَر[4] منهم، وسكان الوَبَر[5]، وبذا عمَّت دعوة كل من ينطق بالعربية من غير تفرقة بين قريب وبعيد.

المرتبة الخامسة: إنذار جميع مَنْ بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر، وبذا شملت دعوته غير العرب من الرومان، والفرس، والشام، ومصر، والحبشة، وكان هذا التبليغ برسل أرسلهم وبكتب كتبها، ثم بث الدعاة، وجهَّز الجيوش التي تدفع من هجموا أو حاولوا الهجوم، أو حاجزوا بين الإسلام ودعوته،

---

١. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق، ص٣٧، ٣٨.

٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص٨٦.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة المسد (٤٦٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء) (٥٢٩)، واللفظ له.

٤. سكان المَدَر: سكان القرى والمدن.

٥. سكان الوبر: سكان البوادي.

وحالوا بين الشعوب ومعرفته، فكان الجهاد ليتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، ومن بعد ذلك يختارون عن بينة، فقد قال ﷻ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقد سلك النبي ﷺ تلك المراتب، وإن كانت المرتبة الأولى لا تعد مرتبة للدعوة، ولكنها مرتبة التهيئة لها[١].

ولا يَظُنَّنَّ ظانٌّ أن التدرُّج في الدعوة دليل على أن الرسالة لم تكن عالمية في مكة، فالرسالة المحمدية عالمية منذ بدايتها، وذلك أن ثاني سور القرآن نزولًا وهي سورة المدثر بها آيات تدل على هذه العالمية، يقول تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (المدثر) ويقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، ومن ثَمَّ فإن المراتب التي ذكرناها للدعوة، تدل على التدرُّج في طريقة الدعوة، لا على تغيير المبادئ التي قامت عليها الدعوة مثل الشمولية والعالمية وختم الرسالات، وعلى هذا تبطل حجة من يزعم أن محمدًا ﷺ كان يغير خططه الدعوية وفقًا للظروف البيئية المحيطة به®.

ثانيًا. أدلة عالمية الدعوة المحمدية في مكة:

إن عالمية الإسلام من الأمور البدهية التي لا ينكرها عاقل أو منصف، عالمية تعم المكان والزمان والأجناس: الإنس، والجن، والملائكة، هذا من حيث الشكل، أما من حيث الموضوع فقد جاء الإسلام • برسالة الله الأخيرة في الكون، وبمنهج عام كامل كفيل باحتواء البشرية جميعًا، وتوجيهها إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، وكفيل بقيادة الإنسانية جمعاء، وحلول مشكلاتها وهدايتها إلى الحق والصواب في كل صغيرة وكبيرة: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨)[٢].

وهذه الحقيقة الجلية لم تطرأ فجأة في ذهن النبي ﷺ بعد أن كوَّن دولته في المدينة كما يظنون، بل كانت هذه الحقيقة ماثلة في ذهنه منذ أن نزل عليه جبريل بالوحي أوَّل مرة، ومنذ أن جهر بدعوته منذرًا عشيرته الأقربين، ليس لرغبة منه ﷺ في هذا، بل لأنها إرادة الله الذي أراد أن يكون محمد ﷺ هو النبي الخاتم، ودينه الإسلام الدين الخاتم، دين رب العالمين للعالمين، فلا يخصّ بلدًا دون بلد، ولا عِرْقًا دون عِرْق، فلا يحدّه مكان ولا زمان، فالنبوة المحمدية نبوة للدنيا بأسرها، نبوة شاملة للبشر جميعًا، وللناس كافة، فبعد أن كانت النبوات لأقوام بأعينهم، يبعث ﷻ لكل قرية رسولًا ينذرهم ويبشرهم، جاءت رسالة محمد ﷺ رسالة للعالمين، ليست لقريش وحدها، ولا للمكيين وحدهم، ولا للعرب خاصة.

ومن ثم فإن الزعم أن الرسول ﷺ قدَّم الإسلام في مكة على أنه دين محلي، وفي المدينة على أنه عالمي، زعم ناتج عن سوء الفهم، وربما عن سوء القصد والرغبة في القدح، فلو طالع هؤلاء سيرة النبي ﷺ منذ أن جهر

---

١. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٨٦، ٢٨٧ بتصرف يسير.

® في "إيمان النبي ﷺ بدعوته وحماسته في نشرها" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). وفي "مرحلتا دعوة النبي ﷺ" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

٢. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص٩٣.

بالدعوة أول مرة، لالتمسوا الدليل القاطع على عالمية الدعوة المحمدية.

ففي أول مراحل الدعوة كان النبي ﷺ يدعو الناس سرًّا، فلما أراد الله لهذه الدعوة أن تُعْلَن وأنزل ﷺ قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ (الشعراء) دعا رسول الله ﷺ بني عبد المطلب فيهم رَهط كلهم يأكل الجَذَعَة[1] ويشرب الفِرق[2]، فصنع لهم مدًّا[3] من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمس، ثم دعا بِغُمرٍ[4] فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يُمس أو لم يُشرب، فقال: "يا بني عبد المطلب، إني بُعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي"[5][6]؟

فها هو ذا النبي ﷺ يعلن منذ أول وهلة يجهر فيها بالدعوة أن دعوته للناس كافة: "إني بُعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة". فليس صحيحًا ـ إذن ـ الزعم أن الدعوة المحمدية كانت محلية في مكة ثم تحولت إلى العالمية في المدينة؛ وذلك أن النبي ﷺ لم يقتصر في دعوته في مكة على أهل مكة وعشيرته، بل تجاوز ذلك إلى دعوة كل من يراه؛ لأن رسالته عامة لجميع الناس، يقول ﷺ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وهي آية مكية، وقد اغتنم فرصة القادمين إلى مكة للطواف بالبيت، فاتصل بهذه الوفود، ودعاها إلى الإسلام، وكان يقول لهم: "يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله. تفلحوا"[7]. ويطلب منهم أن يؤمنوا بهذا الدين وأن ينصروه ويمكِّنوا الرسول من تبليغ دعوة ربه للناس.

وكان ﷺ لا يسمع بقادم إلى مكة إلا اتصل به ودعاه إلى الإسلام؛ "فقد عرض ﷺ نفسه على القبائل أيام الموسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسان، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبنو الحارث ابن كعب، وبنو عذرة، وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع"[8].

كما لم يكتف النبي ﷺ بعرض الدعوة على زوَّار مكة فحسب، بل سعى ﷺ لنشر دعوته خارج مكة، فتوجه بدعوته إلى الطائف، كما أمر ﷺ بعض أصحابه بالتوجه إلى الحبشة، وذلك في العام الخامس من البعثة، كل هذا يدل على أن الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ كانت

١. الجَذَعة من الغنم: الفَتِيَّة الشابة.

٢. الفِرَق: مكيال كبير لأهل المدينة يُكال به اللبن.

٣. المُدُّ: ضرب من المكاييل القديمة.

٤. الغمر: القدح الصغير.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٣٧١)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب الخصائص، باب ذكر الأخوة (٨٤٥١)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص١٣٦.

٦. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٠، ٣٠١.

٧. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث ربيعة بن عباد رضي الله عنه (١٦٠٦٦)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء، باب مسح باطن الأذنين وظاهرهما (١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص١٤٣.

٨. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣٨٦.

للناس عامة.

ويؤيد عالمية دعوة محمد ﷺ في الفترة المكية إسلام من ليس عربيًّا مثل: بلال الحبشي، وعَدَّاس النصراني الذي دعاه النبي ﷺ أثناء رحلته إلى الطائف، فحينما تعرض ﷺ للأذى من أهل الطائف، وخرج من عندهم، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، فلما رَأَياه رقَّا له، ودَعَوَا غلامًا لهما نصرانيًّا، يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل.

فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: "بسم الله"، ثم أكل، فنظر عدَّاس في وجهه، ثم قال: والله، إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: "ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك"؟ قال: نصرانيٌّ، وأنا رجل من أهل نِينَوَى، فقال رسول الله ﷺ: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى"، فقال له عدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله ﷺ: "ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبي"، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ويديه وقدميه[1].

فلم يكن عدَّاس قرشيًّا ولا حتى عربيًّا، وكانت الدعوة لم تزل في مكة، وهذا يدل على عالمية الدعوة حتى في هذه المرحلة المبكرة منها.

ويدل أيضًا على هذه العالمية، إسلام صهيب الرومي، وذلك أنه أسلم قبل الهجرة، وتعرَّض لأذى قريش أثناء هجرته، فعن أبي عثمان النهدي قال: بلغني أن صُهيبًا حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكة: أتيتنا ها هنا صُعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغتَ ما بلغتَ، ثم تنطلق بنفسك وبمالك؟ والله لا يكون ذلك، فقال: أرأيتم إن تركتُ مالي تُخَلُّون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: "ربح صهيب، ربح صهيب"[2][3].

وهناك دليل آخر على عالمية الدعوة المحمدية في مكة؛ فقد تنبأ النبي ﷺ عند هجرته إلى المدينة ـ وهو في أشد ساعات الحرج والخطر ـ بأن سُراقة بن مالك سيلبس سِوَارَيْ[4] كِسرَى ونطاقه[5] عندما قال له: "كيف بك يا سُراقة إذا سُوِّرت بسواري كسرى"؟ قال سراقة: كسرى بن هُرمُز؟ قال النبي ﷺ: "نعم"[6].

هذه بعض لمحات من سيرة النبي ﷺ والتي تدل دلالة واضحة على عالمية الإسلام في مكة. ونحن إذا تأملنا آيات القرآن الكريم المكية، فإننا سنجد هذه العالمية واضحة؛ فمنذ السورة الأولى في ترتيب المصحف ـ سورة الفاتحة وهي سورة مكية ـ نجد قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ (الفاتحة)، وفي السورة الخاتمة ـ سورة الناس وهي أيضًا مكية ـ

١. المرجع السابق، ص٣٦٥.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، فضائل صهيب ﷺ (١٥٠٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (٧٠٨٢)، وصححه الألباني في فقه السيرة، ص١٥٧.

٣. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٦، ٤٢٧.

٤. السُّوار: نوع من الحُلِيِّ يُلبس في اليد.

٥. النِّطاق: حزام يُشدُّ على وسط الإنسان.

٦. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٥٧.

نجد قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ ﴾ (الناس)[1].

وما من شك في أن كلمتي "العالمين" و"الناس" لا تقتصران على العرب وحدهم، وكذلك فهناك العديد من الآيات المكية الأخرى الدالة على عموم الرسالة وعالمية الإسلام، مثل: قوله ﷻ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (الأنعام)، وقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يس)، وقول الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (الفرقان)، وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ)، وقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

ونخلص من هذا كله إلى أن النبي ﷺ لم يكن ليغير خططه الدعوية وفقا للظروف البيئية التي تحيط به، وأن رسالته ﷺ عالمية منذ كان في مكة، ولم تطرأ عالميتها بعد هجرته إلى المدينة كما زعموا®.

الخلاصة:

- لم يكن النبي ﷺ يخطط للدعوة كما يزعمون، بل كان الله يخطط لها، ومن ثَمَّ فقد سلك ﷺ خمس مراتب في دعوته، بدأت من تهيئته للدعوة، ثم إنذار عشيرته الأقربين، ثم إنذار قومه، ثم إنذار العرب قاطبة، ثم انتهت بتبليغ الدعوة إلى غير العرب من الرومان، والفرس، والشام، ومصر، والحبشة، وهذا التدرج الذي ذكرناه تدُّرج في كيفية الدعوة، لا في مبادئها التي قامت عليها؛ لأن عالمية هذه الدعوة واضحة منذ بدايتها، فقد ورد في ثاني سورة نزلت قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (المدثر)، ومن ثم يجب أن نفهم هذه المراتب في إطار التدرج في التشريع؛ إذ من الطبيعي أن يتصرف الرسول ﷺ في العهد المكي بشكل يخالف العهد المدني الذي تكونت فيه الدولة؛ لأن ملاءمة الظروف هي صفة أساسية تتصف بها العالمية.

- إن عالمية الدعوة المحمدية قد تقررت منذ نشأتها الأولى، ففي أول مرة جهر بها النبي بالدعوة وقف منذرًا عشيرته قائلًا: "إني بُعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة"، وقد كان ﷺ لا يسمع بأحد قدم إلى مكة إلا دعاه للإسلام، بل لقد ذهب ﷺ للدعوة خارج مكة في رحلته للطائف، ومن أكبر الدلائل على عالمية الإسلام - وهو بعدُ في مكة - إسلام بلال الحبشي، وعداس النصراني "من مدينة نينوى"، وصهيب الرومي.

إن ثمَّة آيات كريمة كثيرة نزلت بمكة تدل دلالة واضحة على عالمية هذه الدعوة، كقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، ولا شك أن العرب ليسوا هم الناس جميعًا، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (ص)، وغيرهما من الآيات الكريمة الدالة على الحقيقة نفسها.

---

١. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، مرجع سابق، ص٣٨.

® في "عالمية الدعوة الإسلامية" طالع: الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

الشبهة الثالثة والعشرون

الزعم أن الدعوة المحمدية لم تُغيِّر شيئًا من أخلاق العرب ولا مدنيتهم(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن النبي ﷺ لم يستطع بدعوته أن يغيِّر شيئًا في نفوس العرب، لا في أخلاقهم، ولا في مَدنيَّتهم، مستدلين على ذلك بما يزعمونه من أن المجتمع العربي لم يتقدم تقنيًّا، ولم يتحضَّر، ولكنه ظلَّ على حاله من التخلف الذي كان عليه قبل الإسلام.. وهم بذلك يطعنون في دعوة النبي ﷺ، نافين دورها الفعَّال في التقدم الإنساني الذي أحدثته عند العرب.

وجها إبطال الشبهة:

١) الواقع والتاريخ والمنصفون يشهدون جميعًا بالتغييرات الهائلة التي أحدثتها دعوة محمد ﷺ في نفوس العرب وأخلاقهم، بل وفي غيرهم من الأمم التي بلغتها الدعوة، وآمنت بها.

٢) لقد استطاع العرب بفضل دعوة محمد ﷺ، بعد فترة زمنية قصيرة، إقامة حضارة رائعة، كانت من أطول الحضارات عمرًا في التاريخ، واعتمد عليها الأوربيون في إقامة نهضتهم الحديثة بشهادة علمائهم.

التفصيل:

أولا. التغييرات التي أحدثتها دعوة محمد ﷺ في نفوس من آمن بها:

منذ أن جهر النبي ﷺ بدعوته أول مرة في مكة وقفت في وجهه وقائع ضخمة: واقع مكة، وواقع الجزيرة العربية، وواقع الكرة الأرضية، ووقفت في وجهه عقائد وتصورات، ووقفت في وجهه قيم وموازين، ووقفت في وجهه أنظمة وأوضاع، ووقفت في وجهه مصالح وعصبيات.

كانت المسافة بين دعوة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ، وبين واقع الناس في الجزيرة العربية، وفي الأرض كافة، مسافة هائلة، وكانت النقلة التي يريدها بعيدة، وكانت تسند الواقعَ أحقاب من التاريخ، وأشتات من المصالح، وألوان من القوى، وقفت كلها سدًّا في وجه هذا الدين الجديد، الذي لا يكتفي بتغيير العقائد والتصورات، والقيم والموازين، والعادات والتقاليد، والأخلاق والمشاعر، ولكنه يريد كذلك أن يغير الأنظمة والأوضاع، والشرائع والقوانين، كما يريد انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية ليردها إلى الله، وإلى الإسلام.

ومن ثَمَّ فإن التغيير الذي قاده محمد ﷺ بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها الرجال العظماء، ثم انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة.

لقد قام النبي ﷺ معتمدًا على منهج القرآن بتغيير في العقائد، والأفكار، والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، فتغير ما حوله في دنيا الناس، فتغيرت المدينة، ثم مكة، ثم الجزيرة العربية، ثم بلاد فارس والروم، في حركة عالمية تُسَبِّح وتذكر خالقها

(*) اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

بالغدو والآصال[1].

إن المتأمل في أحوال العرب العقائدية والأخلاقية والاجتماعية قبل الإسلام، وحالهم بعد البعثة المحمدية، يلاحظ هذا التغيير العظيم الذي أحدثته دعوة محمد ﷺ في العرب خاصة وفي العالم أجمع، سواء على مستوى الجماعة، أم على مستوى الفرد، ويمكننا أن نوضح بعضًا من آثار دعوته ﷺ الخالدة، تلك الآثار التي لا يحدها مكان ولا زمان، ونكتفي بأقل القليل منها الآن، وهو آثار دعوة محمد ﷺ على المجتمع والفرد العربي.

١. **آثار دعوته ﷺ على المجتمع:**

يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام في كتابه "بطل الأبطال": إن أول ما يجب أن نوجه تفكيرنا إليه هو أثر هذه الدعوة من الناحية الاجتماعية، في شعب لم يكن يصلح لشيء، فأصبح في بضع سنين صالحًا لحمل الرسالة التي وصلت إلى أطراف المشرق في سنين معدودة (عشرين سنة تقريبًا).

كان الأثر البارز السريع لهذه الدعوة تغيير أمة تغييرًا شاملًا حاسمًا، بحيث أصبحت شيئًا آخر، تلك الأمة التي نشأت فيها الدعوة (الأمة العربية)، فقد كان العرب قوم فوضى، في قَفْر[2] من الأرض، موضع احتقار المتمدنين من الفرس والرومان، وكانوا آخر أمة يُرْجَى فيها خير وينتظر لها أمر، كان العرب في جاهليتهم قبائل متنازعة على الحياة، متنافسة في السؤدد، يتنازعون على مواقع الغيث ومنابت العشب، كل قبيلة تعتز بقوتها، وتفتخر بأنسابها ومآثرها، وما فخرها وعزها إلا في أنها أغارت فغلبت ونهبت، وأنها ظلمت وأفسدت، فالظلم والنهب عندها محمود، وهو من أغراض الحياة. انظروا إلى قول عمرو بن كلثوم:

بُغَاةً ظالمينَ وما ظُلِمْنا
ولَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظالمينا

وقول زهير:

وَمَنْ لم يَذُدْ عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ
يُهَدَّمْ وَمَن لَا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

هذا الشِّعر يصور لنا حالة العقلية التي كانت عليها القبائل العربية، ويدلنا على عظم الدعوة التي جعلت من قوم يفخرون بنهب إخوانهم قومًا يعتزون بنشر السلام والقانون، والعدل بين الأبيض والأسود في آسيا وإفريقيا، هؤلاء الجفاة المتنابذون قد أصبحوا في جيل واحد رسل الحضارة والنظام. كان الرجل منهم لا يعترف إلا بقبيلته، فإذا تنازعت لا يعترف إلا بالبطن الذي ينتسب إليه، وينكر على غير عشيرته حق الحياة. وكان أفراد العشيرة لا يتعارضون، ولا يتصارعون على خير عام. وكانت الحياة قائمة على الخصومة والعداء لكل أحد خارج عن نطاق العشيرة، فكانت العشيرة على هذا الاعتبار عصابة متكافلة على حماية نفسها، وإتيان الشر ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، والاعتزاز بالقدرة عليه، وأنها تأتيه دائمًا، فجاءت الدعوة المحمدية تنقض كل ما يتمسك به العربي من هذه المواريث، فحلَّت هذه العصابة الموجهة للشر باسم العشيرة، وأحلت محلها الأمة، وأقامت الحقوق البشرية، وجعلت التعاون على البر، والتكافل على النظام العام، والاتحاد على الفكر السامي والعقيدة الطاهرة مكان علاقة الدم التي تربط بين الناس في سفك الدم، ونهب

١. السيرة النبوية، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص١٤٣ بتصرف.

٢. القَفر: المكان الجدب الخالي من الزرع والماء.

ما بأيديهم، فقلبت بذلك نظرة العرب إلى نقيضها، وجعلتها نظرة إنسانية إلهية، بعد أن كانت بهيمية وحشية، أحلت سلطان الشريعة فوق كل سلطان، وجعلت هيمنة الدولة للخير العام فوق كل هيمنة، وذهب القِصاص الظالم، وقام القِصاص العادل، وسارت المسئولية الفردية للعشيرة، مكان المسئولية الاجتماعية لها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النجم)، وصارت العزة للشرع القاهر، والسلطان القائم عليه، وحُرِّمت دعوى الجاهلية: يا لفلان، وأصبح كل داع دعوته للشرع، وبالقانون انتصاره، وبالعدل اعتصامه.

برزت المسئولية الشخصية، فما تغني عن أحد دعوى الجاهلية، ولا يغني عن أحد في ميدان العمل نسبُه ولا حسبُه ولا جاهه ولا ماله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة)، ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ (لقمان).

أصبح الناس بالدعوة المحمدية سواء، لا شريف ولا وضيع، خيرهم أحسنهم عملًا، وسيدهم أنفعهم، وأكرمهم أتقاهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

انظروا إلى محمد ﷺ في خطبة الوداع، يعلن هذه المساواة للعرب على أنها للبشر كافة: "يا أيها الناس، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى"[1].

تلك هي الكلمة الخالدة التي كانت دستور الحكم فيما فتح العرب من الأرض، فجعلت الفتح العربي بعيدًا من رفعة قوم على قوم أو جنس على جنس، فلم يصبه ما أصاب غيره من الفتوح، وبقيت آثاره خالدة في المشرق والمغرب.

قضت الدعوة المحمدية على التنافس والغلبة بالكيفية التي سقتها، وعملت على إقرار الحق، وبسْط الخير، ولم يبق في الشرع الذي قَبِلَه العرب إلا تنافس في الأعمال الصالحة، قال ﷻ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (المائدة).

وهكذا حلَّت الأمة محل القبيلة، والعدل محل الغلبة، والمساواة مكان التفاضل، والعمل الصالح مكان الفخر بالآباء، ومُلئت القلوب حبًّا وسلامًا، بعد أن كانت مملوءة بغضًا ونزاعًا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١).

كان قلب العربي موزَّعًا بين آلهة شتى، قد التبست عليه صفاتها وأفعالها، يفزع إليها حينًا، وينفر منها حينًا، ويلتمس منها الخير، فإن لم يظفر به هجرها.

لم تكن أمام العربي سبيل واضحة للعمل في هذه الحياة، كما لم تكن له خطة بينة لمعاملة الناس، فلقنته الدعوة المحمدية الإيمان بإله واحد، وهدته إلى الحلال

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٦)، والطبراني في المعجم الأوسط، باب العين، من اسمه عبد الرحمن (٤٩٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

والحرام في كل صغيرة وكبيرة، فصار على بينة من ربه، وعلى بينة من نفسه، وعلى بينة من عمله.

وعقيدة المسلم علمته التوحيد في كل شيء، علمته أن الله واحد، وأن أصل البشر واحد، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، وأن الأمم جميعًا سواء، وأن الأديان التي جاءت بها الرسل واحدة، لا تختلف في حقائقها ومقاصدها، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾(الشورى:١٣). ووحدت له الخطة التي يعمل عليها في خاصة نفسه، ومعاملة الناس، وحدت الدعوة المحمدية نفس العربي، ثم وحّدت العرب جميعًا، وصاغت منهم أمة واحدة، تحمل رسالة التوحيد إلى الناس كافة.

فهذه الأمة الواحدة المؤلفة من أرقى الموحدين، هي التي انبعثت بسبب هذه الدعوة، فلم يقف في سبيلها شيء، لا كثرة العدد، ولا قوة السلاح، ولا العقائد الموروثة، ولا عظمة الملوك، ولا جبروت الرؤساء، بل كانت قدرًا من الله بلغ غايته، ومن ذا يرد على الله القدر؟!

هذا التوحيد هو أظهر معجزات الدعوة المحمدية، ولكي يدرك الناس وجه الإعجاز يجب أن ينظروا الآن إلى جزيرة العرب نفسها، وقد شملها الإسلام قرونًا، ثم عادت فيها سيرة الجاهلية بحالة أخف كثيرًا، بل أهون مائة مرة مما كانت عليه قبل ظهور رسالة التوحيد فيها، وليقدِّر كم يَلقَى الذي يريد أن يبعث هذه الأمة مرة أخرى من عَنَتٍ.

إن كثيرًا من المصلحين ليتحطمون على عتبة الإصلاح، قبل أن يصلوا إلى شيء مما وصلت إليه الدعوة المحمدية في بضع سنين، إذا تصورتم الحالة الحاضرة، وقستموها على الحالة وقت ظهور الدعوة، يمكنكم أن تتصوروا أثر الدعوة المحمدية وقوتها وفضلها على هذه الأمة، وعلى الناس كافة.

جاءت الدعوة المحمدية برسالة التوحيد هذه ومعها رسالة أخرى، هي رسالة التحرير، وتركت في هذه الرسالة أثرها الخالد في الأمة العربية وجميع الأمم كما تركت في الأولى؛ فصرخ مؤذن هذه الرسالة: الله أكبر! وتضاءلت بهذه الصرخة كل عظمة، وكل سيطرة أمام عظمة الله وسيطرته، وتحررت النفوس من الأوهام الباطلة، والعقائد الكاذبة، وصارت العبودية خالصة لله، يتساوى الناس فيها، ويتحررون بذلك من سواها.

وهذا الذي انفرد بالسلطان والسيادة وحق العبودية هو الله، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ (يونس)، وقال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (البقرة).

بهذه المعاني السامية، والعبارات القوية، في هذه الآيات الكريمة وأمثالها تحررت النفوس من العبودية لغير خالقها البَر الرحيم بها، هاديها إلى النور وإلى صراط مستقيم.

كان الناس قبل الدعوة المحمدية عبيدًا للملوك والزعماء، عبيدًا للرؤساء الدينيين، عبيدًا للأوهام والخرافات، عبيدًا لملاك الأرض وملاك الثروة، فتحرروا بهذه الدعوة المحمدية، تحرروا في أبدانهم، وأعظم من ذلك أن تحررت نفوسهم بما وهبت لها الدعوة من عقيدة الخلود وعزَّته، وأن عملها ليس أثرا بائدًا، بل مسجلًا خالدًا خلود قوانين الله في خليقته.

علَّمت الدعوة المحمدية الناس أن النفع والضر بيد الله وحده، وأن لا واسطة بين الإنسان وربه، وأن ربه أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه معه حينما كان، وأنه ليس لأحد سلطان على قلبه، وليس للرسول نفسه إلا التبليغ والتعليم ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الغاشية)، ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (الشورى: ٤٨).

بهذا أدرك الإنسان مكانته، ونال حريته في عقله وقلبه وفكره وعمله، وبقي للدعوة المحمدية أثرها الخالد في توحيد الناس وتحريرهم.

٢. أثر الدعوة المحمدية في الفرد:

ولكي نستعين على تصور هذا الأثر في الفرد لنستحضرْ أمامنا مثلًا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. كان عمر في جاهليته فتًى من فتيان قريش، يغشى مجالس السوء، وبؤر الشر، وكانت مكة في ذلك العصر ممتازة بين حواضر الجزيرة بترفها ومنكرها، تجذب طلاب الطرب واللهو، ولم يكن عمر في هذه المدينة شاذًّا، بل كان مُعَلَّمًا بالفتوة والغلظة، معروفًا بالقسوة والشراسة، مستعدًّا في كل الحالات للتسلط بالأذى على من يخالفه، ولإثارة الفتنة والشغب فيما جلَّ أو صغر؛ لذلك كان من أخطر فتيان مكة على الدعوة المحمدية، وأنشطهم في أذى أتباعها، فلم يَسْلَموا من لسانه الجارح، ويده الباطشة، ولما رأته ليلى بنت أبي حنتمة وله رقة لم تكن تراها، ذكرت ذلك لرجل من المسلمين، فقال لها: أطمعتِ في إسلامه؟! إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.. هذا هو الذي جذبته الدعوة، فلما هذبته وصقلته، أخرجت منه عمر أمير المؤمنين، قاهر الفرس والروم، وجعلت منه المثل الكامل في الرفق والإنصاف والعدل، وصار أكبر القضاة والسياسيين والملوك في تاريخ البشر.

خلَّصت الدعوة المحمدية الفرد من سلطان العقائد الباطلة، وأصلحت قلبه وفكره بالعقائد الصحيحة، وهذَّبت نفسه بالشرائع القويمة، والسنن الصالحة، والقدوة الحسنة التي وجدها في المثل الأعلى، في محمد ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١).

أقرت الدعوة المحمدية في نفوس أصحاب محمد ﷺ حبَّ العدل وحبَّ الإنصاف، في بيئة لا تعرف الحق إلا للقوة ولا تدين بالإنصاف إلا للسيف، فوطَّأت النفوس للحق، انظروا إلى عمر رضي الله عنه بعد أن هذَّبته الدعوة، تعترضه امرأة وهو أمير المؤمنين يخطب الناس، فيمسك من فوره، ويقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر! وانظروا إليه - وقد شجَّ رأس أخته في الجاهلية - يبكي وهو أمير المؤمنين لرؤية بائس، ويخشى أن يلقى الله وفي الناس بائس.

تلك آثار الدعوة في نفوس جفاة العرب، قد جعلت من رعاة الإبل والشاة وصغار التجار في مكة، والفلاحين في المدينة، رجالًا، كلما احتاج تاريخها إلى

واحد منهم وجده مهيأ للإمارة على الناس من كل الأجناس، كأنما نشأ فيها، ودرج لها. رجالًا قوامين بالقسط، كما أمرهم الله ﷻ في القرآن الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ ﴾ (المائدة)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وليس نجاح الفتح العربي، وانتشار الدعوة، إلا أثرًا لسحرها في تغيير النفوس وتوجيهها للخير، ولولا رجال أعدتهم المدرسة المحمدية للمُثُل العليا، أعدتهم لإرشاد البشر وقيادته وحكمه، لما تجاوز الفتح الإسلامي الجزيرة العربية، ولذهبت آثاره بموت الرسول ﷺ وارتداد الأعراب، ولكن الشباب الذين طبعتهم الدعوة بطباعها استمروا يفيضون على جيلهم ما أُودعوا من فيض الرسول ثلاثين سنة بعد وفاته، فأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، الخلفاء الراشدون ﷺ، لم يكونوا إلا شباب الرسالة وقت أن أَسَرَّها ثم جهر بها محمد ﷺ للناس.

وليتبينَ لنا واضحًا أثر الدعوة المحمدية في نفوس الشباب الذين هاجروا للحبشة، وخالفوا آباءهم وكبراءهم في سبيل عقائدهم، نذكر لكم موقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي، فهو موقف يدل على امتلاك الدعوة المحمدية لنفوس من اجتذبتهم، كما يبين لنا موضوع الدعوة نفسها، كما فهمها المهاجرون والمهاجرات، بل كما فهمها أنصارها في ذلك العصر.

لقد خرج أولئك السابقون لتلبية كلام الرسول ﷺ ومعهم من الفتيان والفتيات من ينتسبون لمختلف البطون في قريش، ويتصلون بالقرابة لأعاظم رجال مكة، وأشد خصوم الدعوة، وفيهم أبناء وبنات لأمثال المغيرة، وسهيل بن عمرو، وأمية بن خلف، فبعثت مكة في أثرهم رجلين من دهاتها: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة. ومعهم هدايا مما يستطرف النجاشي من متاع مكة، له ولكل بطريق من بطارقته، وأوصَوْهما أن يدفعا لكل بطريق بهديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم يسلما النجاشي هديته، ويسألاه تسليم اللاجئين.

فلما وزعا الهدايا قالا لكل بطريق منهم: قد أوى إلى بلد الملك منا غِلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا[1]، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهم: نعم. ثم سلما للنجاشي هداياه، وقالا له مثل الذي قالا للبطارقة، فأشار البطارقة بتسليمهم، ولكن النجاشي أبى أن يأمر بذلك حتى يسمع قول المهاجرين، فدعاهم وسألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا دين أحد من هذه الملل؟ فقام جعفر ﷺ، وكان اللاجئون قد اختاروه، واتفقوا على أن يقول ما علموا، وما أمر به النبي ﷺ، كائنًا في ذلك ما هو كائن. فقال: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة،

١. أعلى بهم عينًا: أبصر بهم.

ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا، وضيّقوا علينا الخناق، فخرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظْلَمَ عندك أيها الملك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال جعفر رضي الله عنه: نعم، قال النجاشي: فاقرأه، فقرأ صدرًا من "كهيعص"، فبكى النجاشي، ثم قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[1].

هذه هي الدعوة كما فهمها شباب ذلك العصر، بل كما فهمها أشد الناس تعلُّقًا بها، وهذا هو أثرها منطبعًا في نفس ذلك الشاب القرشي، يُحدِّث عنها ملكًا من الملوك بثقة وبقوة.

إنكم لتلمسون في كلمات جعفر رضي الله عنه الموجزة صورة كاملة للدعوة المحمدية، والمجتمع الذي نشأت فيه، فقد بدلت الدعوة وجهة نظر الفرد للحياة تبديلًا تامًّا، كما قلبت أوضاع المجتمع العربي إلى عكس ما اصطلح الناس عليه، وابتدعت - كما يقول رَسِل - قريش جديدًا لم تعرفه العرب، ولا غير العرب.

ذلك الجديد هو الرسالة المحمدية، وأثرها هو الانقلاب الذي شمل العرب وجيرانهم ولا زلنا، ولا يزال الناس في آثاره حتى آخر الدهر.

ظفرت الدعوة، وطأطأت - كما يقول هيل - أمة لإرادة رجل واحد؛ لأنه نفخ فيها من روحه إيمانًا قويًّا ساميًا، وأحل في قلبها الفضيلة خالصة نقية، ووجهها على جادة العظمة والفتح العالمي. ولقد كان الاتحاد والتعاون منكرًا لا يعرفه العرب إلا في حدود العشيرة، وكان الكبر والفخر والجاه والمال أسمى ما يتطلع الناس إليه، فلما نجحت الدعوة المحمدية قامت وحدة العرب على تضامن الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، فأصبحت المؤاساة حقًّا مفروضًا على الأغنياء، عليه يقوم تكافل المجتمع، وعليه تقوم الدولة التي ولدتها الدعوة الجديدة. تبدَّلت نظرة الفرد للحياة تبدُّلًا تامًّا، وانقلب النظام الاجتماعي بما ابتدع الإسلام من الأصول، وما وضع من الشرائع.

وقد عبر العلامة هيل في كتابه "حضارة العرب" عن أثر الدعوة المحمدية بهذه الكلمة القوية: "إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرًا في تاريخ البشر، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثَّروا تأثيرًا عميقًا في حضارة عصرهم وأقوامهم، ولكننا لا نعرف في تاريخ البشر أن دينًا انتشر بهذه السرعة، وغَيَّر العالم بأثره المباشر، كما فعل الإسلام، ولا نعرف في التاريخ دعوة

---

1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث جعفر بن أبي طالب وهو حديث الهجرة (١٧٤٠)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب السير، باب الأسير يستعين به المشركون على قتال المشركين (١٨٢٠٧)، وصححه الألباني في فقه السيرة، ص١١٥.

كان صاحبها سيدًا مالكًا لزمانه ولقومه، كما كان محمد ﷺ.

لقد أخرج أمة إلى الوجود، ومكّن لعبادة الله في الأرض، وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضَى"[1].

تلك بعض آثار دعوة محمد ﷺ في العرب على مستوى الفرد والجماعة، ولا ينكر آثار هذه الدعوة إلا من أغفل عقله، أو تعمد أن يتعامَى عن ضوء الشمس، وكيف لا؟! ولا زالت الدنيا تعيش هذه الآثار وتلتمسها على كل المستويات، فقد كانت بعثة محمد ﷺ حدًّا فاصلًا بين تاريخ البشرية القديم، وتاريخها الحديث، وفي ذلك يقول كارليل وهو أحد الغربيين غير المسلمين: "قوم يضربون في الصحراء لا يُؤْبَهُ لهم عدة قرون، فلما جاءهم النبي العربي، أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة، وعزوا بعد الذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم"[2].

والحق أن دعوة محمد ﷺ بشهادة العلماء المنصفين ما أثرت هذا التأثير في نفوس العرب وأخلاقهم إلا لأنها قامت على الحجج العلمية، والدلائل العقلية، وابتعدت عن الخرافة والدجل، وكل ما يرفضه العقل الراشد، فلا عجب أن يتم هذا التحول الهائل في نفوس العرب في هذه السنوات القليلة. هذا التحوُّل الذي شهد له الواقع والتاريخ، كما شهد له غير المسلمين من العلماء والمفكرين المنصفين.

وهذه بعض شهادات علماء الغرب المنصفين في قضية تغيير دعوة النبي ﷺ نفوسَ العرب وأخلاقهم تغييرًا جذريًّا يغاير ما كانوا عليه قبل مجيئه ﷺ.

يقول فيليب حَتَّى: إن اللغة العربية هي لغة القرآن التي كانت الأساس الذي قامت عليه أمة جديدة أُخرجت للناس، أمة جاءت بها بعثة محمد ﷺ من قبائل متنافرة متنازعة، لم يُقَدَّر لها أن تجتمع على رأي واحد، وهكذا استطاع رسول الإسلام ﷺ أن يضيف حدًّا جديدًا ــ رابعًا ــ إلى المأثرة الحضارية ذات الحدود الثلاثة من الدين والدولة والثقافة، ذلك الحد الرابع الجديد كان إيجاد أمة ذات لغة فوق اللغات... إن إقامة الأخوة في الإسلام مكان العصبية الجاهلية القائمة على الدم والقرابة للبناء الاجتماعي كان في الحقيقة عملًا جريئًا جديدًا قام به النبي العربي ﷺ[3].

ويقول دُرَّاني: وأخيرًا أخذت أدرس حياة النبي ﷺ فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغيَّر طرق تفكيرهم، بل وبدَّل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة، وقانون

١. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٠٥: ١١٤.

٢. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص١٦٦. وانظر: محمد المثل الأعلى، توماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠١م، ص١٢٩ وما بعدها.

٣. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١١٧.

واحد، ودين واحد، وثقافة واحدة، وحضارة واحدة، وحكومة واحدة..[1].

ويقول سانتيلانا: ما كان من محمد ﷺ إلا أن تناول المجتمع العربي هدمًا من أصوله وجذوره وشاد صرحًا اجتماعيًّا جديدًا... هذا العمل الباهر لم تخطئه عين ابن خلدون النَّفاذة الثاقبة. إن محمدًا ﷺ هدم شكل القبيلة والأسرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفردية والموالاة والجماعة المتحالفة. من يعتنق دين الإسلام عليه أن ينسَى روابطه كلها ومنها رابطة قرباه وأسرته، إلا إذا كانوا يعتنقون دينه (إخوته في الإيمان)، فما داموا هم على دينهم القديم فإنه يقول لهم كما قال إبراهيم عليه السلام لأهله ما معناه: "لقد تقطعت بيننا الأسباب..."[2][3].

ويقول ول ديورانت: "إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا: إن محمدًا ﷺ كان من أعظم عظماء التاريخ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب، ألقت به في دياجير[4] الهمجية حرارةُ الجو وجدب الصحراء، وقد نجح ﷺ في تحقيق هذا الهدف نجاحًا لم يصل إليه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلَّ أن نجد إنسانًا غيره ﷺ حقق ما كان يحلم به... وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته ﷺ أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده ﷺ القديم، دينًا سهلًا واضحًا، وصرحًا خُلقيًّا"[5] ®.

ثانيًا. استطاع العرب بفضل دعوة محمد ﷺ بعد فترة زمنية قصيرة أن يقيموا حضارة رائعة كانت من أطول الحضارات عمرًا وأكثرها تأثيرًا في الحضارات بعدها:

قبل البدء في الحديث عن الحضارة التي أقامها العرب، والتي قامت بفضل دعوة محمد ﷺ، لا بد أن نوضح أنه لا توجد أية علاقة بحال من الأحوال بين انحطاط الأخلاق ورقيها، وبين التحضر والتقدم التقني؛ لأن المتأمل للمجتمعات البشرية قد يجد بعض المجتمعات البدائية، والتي لا تتصل بالحضارة بأية صلة، مثل بعض الجماعات البدوية أو الزراعية، ورغم ذلك تجد الرقي الأخلاقي فيها في أعلى درجاته، وعلى النقيض تمامًا فقد تصل بعض المجتمعات إلى أعلى درجات الرقي التقني، ولكن تنحط أخلاق أفرادها إلى أدنى درجة، وما هو مشاهَد في الدول الغربية خير دليل على ذلك، فعلى الرغم من تقدم هذه الدول في شتى المجالات العلمية، فقد بلغ الفساد الأخلاقي فيها أعلى درجاته، فلم تشهد البشرية فسادًا أخلاقيًّا، مثل الذي

1. المرجع السابق، ص١٢٢.
2. يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الزخرف).
3. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، مرجع سابق، ص١٢٤.
4. الدياجير: الظلمات.
5. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، مرجع سابق، ص١٢٨.

® في **"صفات المجتمع الجاهلي كما صورها القرآن"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العاشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

تشهده الدول الغربية، سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع، فعلى الرغم من تقدمها العلمي والتقني الهائل، إلا أن الأخلاق في تلك البلاد أشبه ما تكون بأخلاق الجاهلية التي كان عليها العرب قبل الإسلام.

ومن ثم فلا توجد أية علاقة بين الأخلاق والتقدم التقني والتحضر، حتى لو قسنا التغيير في نفوس العرب وأخلاقهم، بهذا التحضر والتقدم فإنه يتبين لنا مدى التغيير الذي أحدثته دعوة محمد ﷺ في الفرد العربي والمجتمع العربي؛ "فإن حقائق التاريخ تبين بما لا يدع مجالًا للشك أن الإسلام قد استطاع بعد فترة قصيرة من ظهوره أن يقيم حضارة رائعة كانت من أطول الحضارات عمرًا في التاريخ، ولا تزال الشواهد على ذلك ماثلة للعيان فيما خلَّفه المسلمون من علم غزير في شتى مجالات العلوم والفنون"[1]، قامت عليه النهضة الأوربية الحديثة.

ولا شك أن هذه الحضارة الإسلامية التي أقامها المسلمون إنما كانت سببًا مباشرًا لدعوة محمد ﷺ وأثرها في العرب وفي العالم كله، ولِمَ لا؟ وقد سبق أن قلنا: إن هذه الدعوة قد قامت على العلم والحجج العقلية، فقد فتحت دعوة محمد ﷺ للإنسان مغاليق المدنية والحضارة، وأبصرته طريق العلم والمعرفة، وعرَّفته حقائق الكون والحياة؛ لأن هذه الدعوة قد انطوت على مبدأ العلم الشامل؛ فقد جعل الرسول ﷺ مقام طالب

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٦٤٢.

العلم في صف المجاهدين لإعلاء كلمة الله من ناحية المنزلة والأجر، فقال ﷺ: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"[2]، وعَدَّ الطريق الذي يسلكه طالب العلم للعلم طريقًا مؤديًا إلى الجنة، فقال ﷺ: "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة"[3].

والعلم الذي يقصده النبي ﷺ يشمل كل علم نافع سواء أكان العلم دينيًّا أو دنيويًّا، نظريًّا أو تجريبيًّا، فرض عين أو فرض كفاية، ما دام أنه في خدمة الدين، وما دام أنه لرفع منار المدنية والحضارة، وما دام أنه واضح لصالح الحياة والإنسانية[4].

ومن ثم فالمتأمل يجد أن دعوة محمد ﷺ قد أفادت العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية، إفادة يتعذر تقديرها، ولسنا بحاجة في هذا المقام لأن نبين وجوه الإفادة الدينية، ونكتفي بذكر ما أفادته الدعوة المحمدية من الناحية المدنية.

فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمي العالمي، وتولوه بالزيادة والتمحيص، وطبقوه على حاجات الحياة الإنسانية، فأوجدوا بذلك

٢. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم (٢٦٤٧)، والطبراني في المعجم الصغير، باب حرف الحاء، من اسمه الحسن (٣٨٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٧٠٢٨)، واللفظ له.

٤. معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٤، ١٥ بتصرف.

مدنية ليس في العالم اليوم من يدَّعي أنه ليس مدينًا للإسلام بها.

يقول جوستاف لوبون تحت عنوان "تمدين العرب لأوربا ـ تأثير العرب في الشرق والغرب": خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والإغريق والرومان، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسي، إذا كان عظيمًا فيه، فإن تأثيرها المدني فيه كان ضعيفًا للغاية، وما عجز الإغريق والفرس والرومان عنه، قدر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه...

وما وُفِّق العرب له في مصر اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم كإفريقيا ـ يريد تونس ـ وسوريا وفارس. وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التي لم يدخلوها إلا عابري سبيل، وقد كان لهم تأثير واضح في بلاد الصين التي لم يزوروها إلا تجارًا.

ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم، ولو حينًا من الزمن.

ولم يتجل تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضًا، وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صِلاتهم بهما قسمًا كبيرًا من معارفهم العلمية التي عدها الأوربيون على غير حق من أصل هندي أو صيني.

ويجدر بنا الآن أن نثبت أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق، وأن أوربا مدينة للعرب بحضارتها.

ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوربا حينما أدخل العرب الحضارة إليها، فإذا رجعنا إلى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الأندلسية في أوج نضارتها، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم في أديارهم لينشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة، ليكون عندهم بذلك من الرقائق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة.

مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيتها، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من الميلاد، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل عنهم، وَلَّوْا وجوههم شطر العرب.

لم تكن الحروب الصليبية سببًا في إدخال العلوم إلى أوربا كما يُظَنُّ على العموم، وإنما دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا، ففي سنة ١١٣٠م أُنشئ في طُلَيطِلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أهم كتب العرب. وقد كُلِّلت أعمال مكتب الترجمه هذا بالنجاح فبدأ للغرب عالم جديد، ولم يتوان العرب في أمر تلك الترجمة في القرن الثاني عشر، والقرن الثالث عشر، والقرن الرابع عشر، والقرن الخامس عشر من الميلاد.

ولم يقتصر في تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي، وأبي القاسم، وابن سينا، وابن رشد... إلخ، وحدها إلى اللغة اللاتينية، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية، ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس

وأرخميدس وبطليموس، وقد روى د. لوكلير في كتابه الذي سماه "تاريخ الطب العربي" أن عدد ما تُرْجِم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب، وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أكثرها، ككتاب أبولونيوس في المخروطات، وكتاب جالينوس في الأمراض السارية، وكتاب أرسطو في الحجارة... إلخ. وإذا كانت هنالك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز.

وقال المسيو ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون.

إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا ـ في القرن العاشر من الميلاد ـ العلوم والآداب التي أُهمِلت في كل مكان، حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن ـ غير الأندلس العربية ـ بلاد يمكن طلب العلم فيها، فإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التي لا تزال موضع جدال جربرت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩ ملقبًا بـ "سلفستر الثاني"، ولما أراد هذا البابا أن ينشر في أوربا ما تعلمه عدَّ الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه إلى الشيطان.

وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوربا نحو ستة قرون، ويمكننا أن نقول: إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلًا دام إلى الزمن الحاضر، فقد شُرِحَت كتب ابن سينا في مونبليه في أواخر القرن الماضي.

ثم قال جوستاف لوبون: "وإذا كان تأثير العرب عظيمًا في أنحاء أوربا التي لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد إسبانيا.. ولن يرى الباحث مثالًا أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال".

هذا ما شهد به العلماء الاجتماعيون الأوربيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق في أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة.

والمتأمل في الحضارة الإسلامية يجدها الأساس التي استمد منه الأوربيون نهضتهم الحالية، فليس صحيحًا أن العرب قد ظلوا متخلفين بعد البعثة المحمدية كما كانوا في الجاهلية قبلها، ونستطيع أن ندلل على بطلان هذا الزعم بإبراز بعض ما قدمه العرب للحضارة الإنسانية في الناحية المدنية أو التقنية:

١. **في الفيزياء:**

- **بيت الإبرة المغناطيسية**: ثبت تاريخيًّا أن المسلمين هم أول من عرفوا خاصية الاتجاه، وأنهم أول من استعملوا الإبرة المغناطيسية لمعرفة الاتجاه، فالمستشرق سيديو، والعالم سارتون وغيرهما يؤكدون أن العرب هم الذين عرفوا الإبرة المغناطيسية، وهم الذين استعملوها، وأن أوربا هي التي نقلت عن العرب "بيت الإبرة" ثم انتشر هذا العلم في أنحاء المعمورة.

- **الرقَّاص (بندول الساعة)**: وسماه المسلمون "الموَّار"، ومخترعه ابن يونس المصري المُتوفَّى عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م، وكان الفلكيون المسلمون

يستعملونه لحساب الفترات الزمنية أثناء رصد النجوم، وعلى هذا فنسبة اختراع الرقَّاص للعالم الإيطالي جاليلو سنة ١٦٤٢م، نسبة مُجحِفة بحق المسلمين؛ لأن المسلمين استعملوه قبله بستة قرون، واستعملوه في الساعات الدقاقة.

٢. في الكيمياء:

مما لا يختلف فيه اثنان أن علماء الإسلام ساهموا في علم الكيمياء مساهمة فعَّالة، وكان لهم فيه الباع الأكبر، ومما يدل على ذلك أن الأسماء العربية التي نقلت إلى الأوربية بقيت على حالها، وهذا مؤشر عظيم من مؤشرات هذا التأثير.

يقول قدري طوقان في كتابه "العلوم عند العرب": "لقد توصل المسلمون إلى كثير من الصناعات بواسطة المواد الكيماوية، في الصبغ، والدبغ، وصناعة المعدن، وتركيب العطور".

ويقول جوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب": "إذا كان بعض مركبات البارود ـ نترات البوتاسيوم ـ قد اخترعها الصينيون واستعملوها، إلا أن المسلمين وحدهم هم الذين اخترعوا ملح البارود كمادة متفجرة دافعة قابلة لإطلاق القذائف، وعنهم أخذته إنجلترا، ثم بقية أوربا".

٣. في الصناعة:

من الأمور المجمع عليها لدى الحضاريين أن المسلمين أبدعوا في مجال الصناعة أيما إبداع، وقد برزوا في كثير من الصنائع المتنوعة، واستفادت أوربا في مجال صناعاتهم أعظم استفادة، بل كانت صناعات المسلمين تحويلًا كبيرًا في النهضة الصناعية الحديثة..

وهذه هي أهم الصناعات التي أبدعوها في القرون السالفة:

يقول فيليب حتى في كتابه "تاريخ العرب": "ويعتبر الورق من الخدمات الكبيرة التي أسداها الإسلام إلى أوربا والعالم".

ويقول د. عاشور في كتابه "المدنية الإسلامية": "وازدهرت في الأندلس صناعة الفخار، والفسيفساء الملونة، وكذلك المنسوجات...".

ويورد المقري في كتابه "نَفْح الطِّيب" أنه كان في المرِيَّة وحدها ٤٨٠٠ نول، وفي قرطبة ١٣٠٠ نول، ومن الأندلس انتقلت هذه الصناعة إلى أوربا، فانتقلت إلى إيطاليا وفرنسا، وغيرها، وقد اشترك المسلمون هنا في تأسيس معاملها، وكذلك انتقلت إلى أوربا صناعات المعادن والزجاج، والصناعات الخزفية الأخرى.

ويقول محمد كرد علي في كتابه "الإسلام والحضارة العربية" نقلًا عن جوتيه: "وللعرب في باب الاختراعات شيء لا بأس به بالنسبة لعصورهم، وقد وجد في كتاب عربي قديم لم ينقل إلى اللغات الأوربية، أن العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعي، ولم تعرف أوربا سر هذه الصناعة إلا في النصف الأول من القرن السادس عشر، وأدخلوا على أوربا الورق المعمول من القطن، والورق الرخيص الثمن..

وكانت معامل شاطبة في إسبانيا تُصدِّر بضاعة الورق إلى أوربا الغربية، بينما كانت أوربا الشرقية تشتري ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة، على ما يشهد لذلك اسم الورق الدمشقي "شارتا ماسينا"، وصُنع الورق من الحرير سنة ٦٥٠م في سمرقند وبُخارَى، ثم استبدل يوسف بن عمرو سنة ٧٠٦م

الحرير بالقطن، ومنه الورق الدمشقي الذي ذكره مؤرخو اليونان".

وقال جوتيه: "إن العرب علمونا صنع الكتاب، وعمل البارود، وإبرة السفينة، فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التي وصلتنا من المدنية العربية"؟!

ويقول: "وسبقت العرب الأوربيين إلى الطيران، وقد حاوله عباس بن فرناس، حكيم الأندلس، وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وهو أول من مثَّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلًا يخيَّل للناظر أنه حقيقة".

ويقول: "وعرف الأندلسيون الطبع بالحروف قبل مخترعه المشهور جوتنبرغ الألماني بأربعمائة سنة، وكان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر ينفرد بالولايات، فيكتب السجلات في داره، ثم يبعثها للطبع فتطبع، وتخرج إليه، فتُبعث في العمال، وينفذون على يديه".

٤. في الزراعة:

لقد تقدم المسلمون في مضمار الزراعة تقدمًا ملحوظًا، وكان لهم الأثر الأكبر في هذا المجال. وهذه أهم فنون الزراعة التي أبدعها المسلمون في العصور السالفة:

يقول فيليب حتى في كتابه "تاريخ العرب": "تقدمت الزراعة كثيرًا كما تقدمت وسائل الري كذلك، وتعتبر رسالة "كتاب الفلاحة" لأبي زكرياء يحيى بن محمد العوام من أهم المؤلَّفات في هذا الموضوع في العصور الوسطى، شرح فيها مئات الأنواع من النباتات، وطرق زراعتها، ويحتوي على دراسات جديدة في التطعيم، وخصال التربة، والسماد، ووصف الأمراض، وطرق علاجها...".

ويقول قدري طوقان في كتابه "تاريخ العرب": "وكان المسلمون يعرفون خواص الأتربة والسِّماد الملائم لها أكثر من غيرهم إلى درجة عالية، وكان لذلك أثره في الزراعة".

ويقول د. الحجي في كتابه "الحضارة الإسلامية في الأندلس": "والمسلمون هم الذين حملوا معهم إلى إسبانيا زراعة الزيتون، والبرتقال، والكروم، والأرز، وقصب السكر، والقطن.. ولا تزال إسبانيا حتى الآن تشتهر بهذه المزروعات، وتنتج أجودها، ثم زراعة الحدائق التي لا تزال إسبانيا مشهورة بها حاليًّا، وكل هذه المؤلفات ـ التي تتعلق بالزراعة ـ تُرْجِمَت إلى اللاتينية"[1].

هذا قليل من كثير مما قدمه العرب للحضارة الإنسانية، وقد اكتفينا بأقل القليل مما قدموه، بخلاف ما قدموه في المجالات الأخرى كالفلسفة والتاريخ، والجغرافيا، والفلك، والهندسة، والرياضيات، والطب، والأدوية، واللغة والأدب. والحق أن العرب ما كانوا ليقدموا للعالم كل هذه الحضارة لولا دعوة محمد ﷺ الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وجمعهم بعد تشتت، وجعلهم قادة للدنيا بعد أن كانوا في ذيل الأمم، ولقد صدق الله ﷻ حين قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة).

١. انظر: المرجع السابق، ص٦٣: ٧٣.

نعم لقد كان العرب في ضلال مبين، وفي غفلة لا تُرْجَى لهم منها يقظة، يقول المستشرق هيل في كتابه "حضارة العرب": "لقد أخرج محمد ﷺ للوجود أمة، ومكَّن لعبادة الله في الأرض، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضَى"[1].

ومن ثَمَّ فلا يحق لأحد أن يشكك بأي حال من الأحوال في دور دعوة محمد ﷺ وأثرها في تغيير نفوس العرب وأخلاقهم، بل أثرها على البشر كافة من كل الأجناس، هذا الأثر الذي شهد له المسلمون وغير المسلمين، كما شهد له التاريخ، والواقع الملموس.

ونختم الحديث بما قاله المفكر الغربي لويس سيديو عن أثر دعوة محمد ﷺ، يقول: "لقد حلَّ الوقت الذي تُوَجَّه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة في زاوية من آسيا، فارتقت إلى أعلى مقام، فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون، ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد ﷺ"[2]®.

الخلاصة:

- لقد كانت المسافة بين الدعوة التي جهر بها محمد ﷺ وبين واقع العرب مسافة هائلة؛ لأنها لم تكن تهدف إلى تغيير العقائد، والتصورات، والقيم، والعادات، والتقاليد، والأخلاق فحسب؛ بل كانت تريد تغيير الأنظمة، والأوضاع، والقوانين، والشرائع، وكانت تهدف إلى انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت والجاهلية لتردها إلى الله وإلى الإسلام.

ودعوة مثل هذه يصعب تحقيق أهدافها في بيئة مثل بيئة العرب، ولكن على الرغم من هذا فبعد سنين معدودة ـ عشرين سنة تقريبًا ـ استطاعت دعوة النبي محمد ﷺ أن تغيِّر العرب تغييرًا شاملًا حاسمًا، سواء على المستوى الفردي أم الجماعي، وقد شهد له التاريخ وأدهش العالم أجمع؛ فقد أخرج ﷺ أمة إلى الوجود وأحل النظام، والتناسق، والطاعة، والعزة في أقوام كانت لا تعرف غير الفوضى، وحب النفس، والقهر، والظلم.

- لا يجوز الربط بأي حال من الأحوال بين الرقي الأخلاقي، والتقدم التقني والتحضر؛ لأن الواقع يقول بخلاف ذلك، فكم من أمة قد بلغت أعلى درجات الرقي التقني، وهي مع هذا تفتقر إلى أقل درجات الرقي الأخلاقي، والعكس صحيح. وعلى الرغم من ذلك فإننا لو أردنا أن نقيس أثر دعوة محمد ﷺ بالرقي الحضاري، عرفنا مدى تأثير هذه الدعوة في نفوس العرب وأخلاقهم، فقد استطاع العرب بفضل هذه الدعوة أن يقيموا حضارة من أعظم الحضارات التي عرفها التاريخ، والتي كانت سببًا مباشرًا للنهضة التي عرفتها أوربا في العصر الحديث في كل المجالات، ولا ينكر هذا الفضلَ إلا جاهلٌ أو جاحد.

لقد فتح الإسلام للإنسان مغاليق المدنية والحضارة، وبصَّرهُ طريق العلم والمعرفة، وعرَّفه حقائق الكون والحياة... وبيَّن أن العلم يشمل كل علم نافع، سواء

---

1. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدي، مرجع سابق، ص١٧٧.
2. المرجع السابق، ص١٣٤.

® في **"حضارة الإسلام في الماضي وأسباب تراجعها الآن"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

أكان العلم دينيًّا أو كان دنيويًّا، نظريًّا أو تجريبيًّا، بل حضَّ على طلب الاستزادة منه، حيث قال ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه).

الشبهة الرابعة والعشرون

إنكار ما أرسله النبي ﷺ إلى الملوك من رسائل(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المتقوِّلين ما كان من إرسال النبي ﷺ الرسل برسائله إلى الملوك والأمراء، ويَصِمون رسائله تلك بالتزوير، مستدلين على ذلك بما يزعمونه من أنهم لم يعثروا لهذه الرسائل على أثر حقيقي في كتب هؤلاء الملوك وأولئك الأمراء.

ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في حرصه ﷺ على عالمية دعوته بإنكار ما أرسله ﷺ من كُتُب إلى ملوك الفرس والروم.

وجه إبطال الشبهة:

إن إنكار رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء زعم لا يسنده دليل، خاصة وأن بعض هذه الرسائل محفوظ إلى يومنا هذا في إستامبول، وإذا لم تصح مراسلات النبي ﷺ فلماذا أسلم النجاشي؟ ولماذا رفض هرقل القتال في تبوك؟ ولماذا أرسل المقوقس الهدايا إليه ﷺ ومن بينها مارية القبطية؟!

(*) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق. الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الهيثم، مصر، ٢٠٠٤م.

التفصيل:

زعم بلا دليل ويتنافى مع حقائق الواقع والتاريخ:

الإسلام دين عالمي لم ينزل إلى قوم بعينهم دون آخرين، ولم ينزل لزمان معين دون زمان، ولا لمكان دون مكان، ورسالة الإسلام هي المهيمنة الخاتمة لجميع الرسالات السابقة لها؛ فقد بُعِثَ النبي ﷺ إلى الناس كافة، وبُعث رحمة للعالمين، فهو ﷺ نذير للعالمين جميعًا.

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله: لقد أرسل الله رسوله ﷺ رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى، وما يهتدي إلا أولئك المتهيئون المستعدون. وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين...

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية، لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد...

ولقد جاء الإسلام ليسوِّي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون. في الوقت الذي كانت البشرية تفرِّق الناس طبقات، وتجعل لكل طبقة قانونًا.

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها. وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح القلوب[1].

ولما كان الأمر كذلك، كان على النبي ﷺ أن يبلِّغ رسالته إلى جميع الناس، ويوصلها إلى الأفراد، ولما كان بعض هؤلاء الأفراد تحت سلطان الملوك والأمراء، كان لا بد من إرسال الرسائل إليهم لدعوتهم إلى التوحيد والإسلام، هذا ما فعله النبي ﷺ، وهو ثابت تاريخيًّا،

١. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٤٠١، ٢٤٠٢ بتصرف.

وواقع قد لُمس، ثم إن بعض الرسائل مازالت محفوظة بنصها، والواقع لا يُكذَّب.

إن إنكار رسائل النبي ﷺ زعم لا ينهض دليل على تأكيد صحته، خصوصًا وأن بعض الكتب محفوظ إلى يومنا هذا في إستامبول، والمتاحف العالمية.

يقول د. شوقي أبو خليل في كتابه "الإسلام في قفص الاتهام"[1]: لا ينهض دليل على صحة زعمهم أن النبي ﷺ لم يرسل رسائل إلى الملوك خارج شبه الجزيرة العربية، خصوصًا وأن بعض الكتب محفوظ إلى يومنا هذا في إستامبول، وقد تكون الكتب الأخرى فُقِدت لسبب من الأسباب، وخاصة أن كتاب كسرى مثلًا قد تمزق، وكيف لم يعثر هؤلاء على أثر لهذه الكتب في تاريخ هؤلاء الملوك والأمراء وقد قامت حروب من أجلها؟!

وتاريخنا العربي الإسلامي لا يؤخذ من فم المستشرقين ولا من تحقيقاتهم؛ إذ أكثرهم درسوا الإسلام من غير موضوعية ومن غير تجرُّد، بل ابتغى مع أقرانه التخريب والدس والتشكيك.

وعلماؤنا العرب مصدر تراثنا وهم على كثرتهم لم يتطرق إليهم الشك في إرسال هذه الكتب، ولم يخطر ببالهم مطلقًا شك أو تردد، فمن نصدق؟ أنصدق علماءنا العرب أم مستشرقًا أجنبيًّا؟

وقد ذكر الطبري نص رسالة النبي ﷺ إلى هرقل وهي: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل قيصر الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتولَّ فإن إثم الأكَّارين[2] عليك".

ثم نص رسالة النبي ﷺ للمقوقس: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)".

ونص رسالة النبي ﷺ للنجاشي: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم[3] ملك الحبشة، أسلم أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم وَدَعِ التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي. والسلام على من اتبع الهدى".

وكتب إلى كسرى ملك الفرس: "من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأدعوك بدعاية الله ﷻ فإني رسول

١. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٦١: ٧٣ بتصرف.

٢. الأكَّارون: جمع الأكَّار، وهو الفلاح.

٣. الأَصحَم: كثير الخير والبركة.

الله إلى الناس كافة ولأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، وأَسلِمْ تَسْلَمْ، فإن توليت فإن إثـم المجـوس عليك"[1].

ودليل صحة هذه الكتـب ووصـولها لأصـحابها مـا يأتي:

- **حديث هرقل مـع أبي سـفيان واستفـساره عـن خروج نبي آخر الزمان:**

فقد ورد فيه ما يأتي: عن عبد الله بـن عبـاس أن أبـا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسـل إليـه في رَكْـب من قريش وكانوا تُجارًا بالشام في المدة التي كان رسـول الله ﷺ مادَّ[2] فيها أبا سفيان وكفار قريش، فـأتوه وهـم بإيلياء فـدعاهم في مجلسه وحولـه عظـماء الـروم، ثـم دعاهم ودعا بتُرجُمانـه فقـال: أيكـم أقـرب نـسبًا بهـذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقـربهم نـسبًا، فقــال: أدنـوه منـي وقرِّبـوا أصـحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قـال لترجمانـه: قـل لهـم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَبَنِي فكذِّبوه، فـوالله، لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قـط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كـان مـن آبائـه مـن مَلِـك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضـعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيـه؟ قلـت: لا. قـال: فهـل كنـتم تتَّهمونـه بالكذب قبل أن يقول ما قـال؟ قلـت: لا. قـال: فهـل يَغدِر؟ قلت: لا، ونحن منـه في مـدة لا نـدري مـا هـو فاعل فيها. قال: ولم تمكنِّي كلمة أُدْخِل فيهـا شيـئًا غـير هذه الكلمة. قال هرقل: فهل قـاتلتموه؟ قلـت: نعـم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننـا وبينـه سِجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يـأمركم؟ قلـت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آبـاؤكم، ويأمرنـا بالـصلاة والـصدق والعفـاف والصلة. فقال للترجمـان: قـل لـه: سـألتك عـن نـسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسـل تُبْعَـث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القـول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبلـه لقلت: رجل يتأسَّى بقولٍ قِيل قبله، وسألتك هـل كـان من آبائه من مَلِك؟ فذكرت أن لا. قلت: فلو كـان مـن آبائه من ملك قلت: رجل يطلب مُلْك أبيـه، وسـألتك هل كنـتم تتهمونـه بالكـذب قبـل أن يقـول مـا قـال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب عـلى الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فـذكرت أنهـم يزيدون. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتـدُّ أحد سخطة لدينه بعد أن يـدخل فيـه؟ فـذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسـألتك هل يغدر؟ فـذكرت أن لا، وكـذلك الرسـل لا تغـدر، وسألتك بِمَ يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تـشركوا بـه شـيئًا، وينهـاكم عـن عبـادة الأوثـان،

---

1. حسن: ذكره الطبري في تـاريخ الأمـم والملـوك (٢/ ١٣٢)، وحسنه الألباني في فقه السيرة، ص٣٥٦.
2. مادَّ: عاهد وهادن.

ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت[1] لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دِحيَة الكلبي إلى عظيم بُصرَى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسلِم تَسلَم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[2] ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)"، قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أُخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة[3]، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا أنه سيظهر[4] حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل أسقفًا على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزّاء[5] ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم مَلِك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة، قالوا: ليس يختتن إلا اليهود فلا يُهِمَّنَّك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم أُتي هرقل برجل أرسل به ملكُ غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟! فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برُوميَّة وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حِمْص فلم يَرُم[6] حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دَسْكَرة[7] له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفَلاح والرُّشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي، فحاصوا حَيْصَة[8] حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هرقل نَفْرَتهم وأَيِس من الإيمان قال: رُدُّوهم عليَّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدَّتكم على دينكم، فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[9].

١. تجشَّم: قصد.
٢. الأريسيون: جمع الأريسي، وهو الفلاح.
٣. يقصد رسول الله ﷺ، وكان كفار قريش يكنّوه بأبيه من الرضاع استخفافًا به ﷺ، وأبو كبشة هذا هو زوج حليمة السعدية التي أرضعت النبي ﷺ.
٤. يظهر: يغلب.
٥. الحزّاء: الكاهن.
٦. يروم: يريد.
٧. الدسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت.
٨. حاصوا حيصة: جالوا جولة يريدون الهرب.
٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

هذا، وذكر الطبري عن هرقل: أنه قد أجاز دِحيَة الكلبي - سفير رسول الله ﷺ إليه - بمال وكساه كسى، وأنَّ أناسًا من جذام بأرض حِسْمَى[1] قطعوا عليه الطريق، ولم يتركوا معه شيئًا، فجاء إلى الرسول ﷺ قبل أن يدخل بيته، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية إلى أرض حِسْمَى.

ويحدثنا الطبري أيضًا: أن هرقل لما وصل إليه كتاب الرسول ﷺ وهو بالشام يريد العودة إلى القسطنطينية جمع الروم فقال لهم: يا معشر الروم! إني عارض عليكم أمورًا فانظروا فيما قد أردتها، قالوا: ما هي؟ قال: تعلمون والله أن هذا الرجل نبي مرسَل، إنا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وُصف لنا، فهلمَّ فلنتبعه فتسلم لنا دُنيانا وآخرتنا. قالوا: نحن نكون تحت يدي العرب، ونحن أعظم الناس ملكًا وأكثرهم رجالًا وأفضلهم بلدًا؟! قال: فهلم فأعطيه الجزية في كل سنة، أكسر عني شوكته وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه. قالوا: نحن نعطي العرب الذُّل والصَّغار بخراج يأخذونه منا، ونحن أكثر الناس عددًا وأعظمهم ملكًا وأمنعهم بلدًا؟! لا والله لا نفعل هذا أبدًا. قال: فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سُوريَّة ويدعني وأرض الشام. فقالوا: نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفتَ أنها سُرَّة الشام؟! والله لا نفعل هذا أبدًا. فلما أبوا عليه قال: أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم، ثم جلس على بغل فانطلق، حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام، ثم قال: السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع، ثم غادر سورية إلى عاصمة ملكه القسطنطينية.

- **قصة إسلام باذان:**

ونحن إذا تأملنا قصة إسلام باذان عامل كسرى في اليمن نجدها خير دليل على صحة هذه الرسائل، ومُؤدّى القصة أن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن واسمه "باذان" أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلْدَيْنِ[2] فليأتياني به، فبعث باذان رسولين يحملان كتابًا إلى الرسول ﷺ، يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه، فخرجا حتى قَدِمَا الطائف، فوجدا رجالًا من قريش، فسألاهم عن الرسول ﷺ فقالوا: هو بالمدينة. واستبشروا بها وفرحوا، قال بعضهم: أبشروا؛ فقد نصب له كسرى ملك الملوك كُفيتم الرجل.

فخرج الرجلان حتى قدما على رسول الله ﷺ فقالا: إن كسرى قد بعثنا إليك لتنطلق معنا، فصرفهما الرسول ﷺ على أن يعودا إليه في الغد، فأتى رسول الله الخبر من السماء: "أن الله قد سلَّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله"، فلما قدم الرسولان أخبرهما الرسول ﷺ هذ الخبر، فقالا له: إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال: "نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى".

فعاد الرسولان إلى باذان فقصَّا عليه ما تنبأ به النبي ﷺ فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيًّا كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان هذا حقًّا فإنه لنبي مُرسَل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا. فلم

---

1. حِسْمَى: أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان.
2. الجَلْد: القويُّ.

يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: "أما بعد، فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما استحلَّ من قتل أشرافهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قِبَلَكَ، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه". فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن.

- **معركة مؤتة:**

يعترف المستشرقون أن معركة مؤتة سنة ٨ هـ كانت ثأرًا من الحارث بن أبي شمر الغساني الذي قتل رسولَ رسولِ الله ﷺ إليه، وهو شجاع بن وهب الأسدي. فكيف تكون مؤتة وسببها قتل الحارث لحامل رسالة رسول الله ﷺ إلى ملك غسان، ثم ينكر هؤلاء وجود الرسائل؟!

- **وصية النبي ﷺ بأهل مصر:**

اعترف بروكلمان أيضًا بوصية النبي ﷺ بأهل مصر، قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يُسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا"[1].

ووجود مارية القبطية نفسها زوجة لرسول الله ﷺ دليل على الرسائل. فلولا رسالة النبي إلى المقوقس ـ والتي حملها حاطب بن أبي بَلْتَعة ـ لما وصلت مارية إلى جزيرة العرب! والمقوقس ما أرسل هداياه إلى النبي ﷺ إلا بعد مناقشة طويلة مع حاطب حامل الرسالة، ولا طائل من إيرادها هنا.

- **الآيات الدالة على عالمية الإسلام:**

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي توضح دون ريب عالمية الدعوة الإسلامية، وعموم الرسالة، مع الآيات الأخرى التي تحضُّ على الدعوة إلى الله بإقناع ومباحثة، ونشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنها: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت)، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ (آل عمران: ٦٤). هذه الآيات تؤيد تأييدًا عظيمًا إرسال النبي ﷺ الرسائل لتبليغ الدعوة التي أمر بها الله ﷻ. فآيات توضح عموم الرسالة، ثم آيات تحض على التبليغ بالحكمة والموعظة الحسنة للناس كافة.

- **حديث ابن حُمَيْد:**

قال الطبري: "وحدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب المصري أنه وجد كتابًا فيه تسمية من بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الخائبين،[2] وما قال لأصحابه حين بعثهم، فبعث به إلى ابن شهاب الزهري مع ثقة من أهل بلده،

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي بأهل مصر (٦٦٥٨).

٢. الخائبين: الكفار.

فعرفه؛ أي الكتاب".

إذا قيل: إن نابليون وزَّع منشورًا عند وصوله إلى مصر عام ١٧٩٨م على السكان، وكان أثره كذا وكذا، وفي مضمونه كذا وكذا، وأثره وما فيه جلي في روايات عدة وحوادث صحيحة، ولسبب نجهله فُقِدت النسخة الأصلية للمنشور، فهل يكفي عدم العثور عليه لأن ننكر وجوده؟!

هذا.. وهل اطلع هؤلاء على كل كتب ومخطوطات الفرس والروم ولم يجدوا لرسالة رسول الله ﷺ أثرًا؟ إذن فبماذا يفسرون رسالة شيرويه إلى باذان؟!

ونضيف أن من مصلحة الكهان وبعض المؤرخين المحترفين في الدسِّ والتخريب طَمْس مثل هذه الرسائل؛ لطمس عالمية الإسلام وعموم الرسالة، وليست أخبار المؤرخ ابن العبري - كمثلٍ - ببعيدة عن المؤرخين المحققين الموضوعيين، فقد عُرِف بتزويره للوثائق وطمسه روح الفتوحات الإسلامية المثالية، ويمكن إيراد مثال واحد لنرى معًا الروح التي عمل بها هو وأمثاله في تزويره تاريخنا الإسلامي:

كتاب الرشيد الذي رد على كتاب نَقْفُور أوردته المصادر العربية كما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه. والسلام".

فأورد ابن العبري الرسالة كما هي بتغيير كلمة واحدة هي كلمة "كلب" الروم، أوردها "ملك" الروم. فهذا التزوير ينطوي على خبث في النفس وطمس لشيء لا يريد أن يقر به. وما أكثر المستشرقين الذين هم بنفسية ابن العبري.

- **وجود رسالة النبي ﷺ للمقوقس:**

وهي محفوظة في متحف "توب كابي ***Top Kapi***" في إستامبول، وقد نشرت مجلة العربي في العدد ١١٠، ص ٤٩ صورة الرسالة، فيمكن الرجوع إلى هذا العدد. ووجود هذه الرسالة يثبت وجود الرسائل الأخرى.

الخلاصة:

- إن عالمية الإسلام بدهية لا ينكرها عاقل أو منصف، عالمية تعم المكان والزمان والأجناس، والإنس والجن، وقد جاء الإسلام بمنهج عام كامل كفيل باحتواء البشرية جميعًا، وتوجيهها إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، وكفيل بقيادة الإنسانية جمعاء، وحل مشكلاتها وهدايتها إلى الحق والصواب في كل كبيرة وصغيرة، فليس في الإسلام تشريع خاص بالعرب، وإنما تشريعاته صالحة لكل العالمين، ورسوله مرسَل رحمة للعالمين، فهل العرب وحدهم هم العالمون وغيرهم هوام؟!
- إن إنكار رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء إنكار لا يستند إلى دليل، فبعض الكتب التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك محفوظة إلى يومنا هذا في المتاحف العالمية، كما أن الروايات التي جاءت في هذا الصدد موثقة في المصادر الإسلامية بأعلى درجات التوثيق، وإذا كان ذلك غير صحيح، فلماذا أسلم النجاشي بالحبشة وباذان ومن معه من الفرس ببلاد اليمن؟ ولماذا رفض هرقل القتال في تبوك؟ ولماذا أرسل المقوقس الهدايا إلى النبي ﷺ؟!
- لقد اتبع النبي ﷺ في إرساله للرسائل إلى كبار

الملوك في عصره طُرقًا دبلوماسية حديثة، وقد كانت دعوته ﷺ إلى الملوك دعوة إلى العالم كله - أو إلى غالبه - بوصفهم الممثلين للشعوب التي يحكمونها، والأجناس التي تعيش في ظلهم.

الشبهة الخامسة والعشرون

ادعاء أن الملوك لم يردُّوا على رسائل النبي ﷺ (*)

مضمون الشبهة:

يذهب بعض المشككين إلى أن الرسول ﷺ قد أرسل رسائل إلى الملوك، ولكن أحدًا منهم لم يرد، وفي هذا الصدد يشككون في موقف ملوك النصارى وتجاوبهم مع رسل النبي ﷺ، ويقولون: إنه من غير المعقول أن يتعاملوا مع رسل رسول الله ﷺ ورسائله معاملة حسنة، فيسلم النجاشي، ويرد المقوقس ردًّا جميلًا، ويوشك هرقل أن يتابعه على الإسلام، ويتساءلون: كيف يُعْقَل ذلك وهم يتمسكون بدينهم أشد تمسك. هادفين من وراء ذلك إلى التشكيك في دعوته ﷺ بالذهاب إلى أنها لم تلقَ قبولًا من أحد ممن وُجِّهت إليهم.

وجها إبطال الشبهة:

١) الادعاء أن أحدًا من الملوك لم يردَّ على رسائل النبي ﷺ دعوى لا دليل عليها، ينكرها الواقع ويكذبها التاريخ، فقد كان صلح الحديبية باعثًا لتحقيق عالمية الإسلام، فأرسل الرسول ﷺ الرسائل، ومن ثمَّ رد عليها الملوك وهذا ثابت ثبوت الرسائل نفسها.

٢) لما كان النصارى من أهل الكتاب، وهم أقرب مودة للذين آمنوا، وقد علموا من أناجيلهم أن نبيًّا سيبعث في آخر الزمان، وقد تعرفوا على علاماته، فعرفوها في الرسول ﷺ، كان ردهم جميلًا لطيفًا - وإن لم يسلموا - يختلف عن ردِّ كسرى الذي لم يكن عنده علم من الكتاب.

التفصيل:

أولا. التاريخ خير شاهد على ما لاقته رسائل النبي ﷺ من ردود:

عاد الرسول ﷺ من صلح الحديبية وقد أمن شر قريش ومناوأتها لدعوة الإسلام، ووجد الفرصة سانحة لتبليغ رسالة الإسلام للناس جميعًا عربهم وعجمهم، إذ قد أُرسل للبشر كلهم، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (الأنبياء). وقال ﷻ: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨). وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨).

وقد كان هذا كسبًا كبيرًا للدعوة، فقد شهدت آفاقًا واسعة، ووجدت أرضًا خصبة، ونفوسًا مستعدة لتقبل الدين الجديد بعد أن عاشت البشرية في ليل داجٍ مظلم، ولم يكن ليخفَى على رسول الله ﷺ ما يعانيه العالم، ولا سيما الدولتان اللتان كانتا تقتسمان النفوذ في العالم حينئذ: فارس والروم - من انحراف ديني وفساد خُلُقي، واضطراب اجتماعي، وما وقع بينهما من حروب وغارات أنهكت قواهما، مما جعل هذه الشعوب على استعداد لقبول الإسلام الذي ينعمون فيه بالإيمان

(*) بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة، د. ت.

والأمان، والحرية والإخاء، والعدل والمساواة[1].

ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء والشعوب، اختار الرسول ﷺ أسلوبًا جديدًا من أساليب الدعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام وإظهار الود من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة[2].

وهكذا كان صلح الحديبية إيذانًا ببداية المد الإسلامي ودعوة الناس جميعًا إلى الإسلام، فقد كان على الإسلام بعد أن عقد النبي ﷺ الهدنة مع قريش بمقتضى صلح الحديبية ـ أن ينساح إلى أطراف الجزيرة العربية ويجاوزها إلى ما وراءها من إمبراطوريَّات وممالك.

وكانت المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة الإسلامية هي مرحلة ما بعد صلح الحديبية إلى أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد بسط عَلَم الإسلام ضياءه على الجزيرة العربية بأكملها؛ ففي المحرم من السنة السابعة للهجرة ــ أي: بُعَيْد صلح الحديبية مباشرة ـ بدأت أول حركة للدعوة الإسلامية خارج الحدود، في شكل حملة دبلوماسية مكثفة، إذ أرسل الرسول ﷺ ستة نفر من الصحابة يحمل كل منهم كتابًا إلى كبار ملوك عالم ذلك الزمان، فأرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر الروم، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وكان قيصر وكسرى هما قطبا الرَّحَى في السيطرة على دائرة الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية، إذ كان قيصر يحتل بلاد الشام حتى شمال الحجاز، وله فيها نائب من أهل البلاد، وكان كسرى يحتل الجزء الشمالي الشرقي منها ، كذلك أرسل النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر من قِبَل الروم، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر ملك البلقاء الخاضع لنفوذ قيصر، وسليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة[3].

ساق النبي ﷺ مبعوثيه إلى هؤلاء يدعونهم إلى الله، ويحدثونهم عن الدين الذي لو تبعوه لنقلهم من الضلال إلى الرشاد، وقد تفاوتت ردودهم بين العنف واللطف، والإيمان والكفر.

فقد كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك فارس يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا، ويحق القول على الكافرين، أَسْلِم تَسلَم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس"[4]، ومزق كسرى

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٧، ٣٥٨.

٢. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥٨.

٣. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص١١٣، ١١٤.

٤. حسن: ذكره ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك (٢/ ١٣٢)، وحسنه الألباني في فقه السيرة، ص٣٥٦.

الكتاب وهو محنق[1].

وهكذا ثار ومزّق الكتاب وهَمَّ بقتل حامله، ثم أخذته العزة بالإثم وعبر عما يجيش في نفسه ونفوس ملوك الأكاسرة من أن كل الناس عبيد لهم، فقال: يكتب إليَّ هذا وهو عبدي[2]. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا عليه قائلًا: "اللهم مزِّق ملكه"، وقد استجاب الله لنبيه ﷺ، فقتله ابنه شيرويه. ولم تقف حماقة كسرى عند تمزيق الكتاب، بل أرسل إلى باذان عامله على اليمن قائلًا له: ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، ففعل باذان، فلما قدما على النبي ﷺ قال: "أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه في هذه الليلة"، وكان ذلك ليلة الثلاثاء لعشر مَضَين من جمادى الآخرة سنة سبع من الهجرة، فخرجا من عند النبي ﷺ حتى قدما على باذان فأخبراه بمقتل كسرى، وقالا له: يقول لك: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء.

ثم لم ينشب باذان أن جاءه كتاب شيرويه يخبره بقتل أبيه وأوصاه ألَّا يهيج النبي ﷺ حتى يأتيه أمره فيه، فقال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلم الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن[3].

وأرسل النبي ﷺ إلى أمير البحرين كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام ونَبْذ المجوسية، حمله إليه العلاء بن الحضرمي، وكان المنذر بن ساوَى - أمير البحرين - رشيدًا موفقًا، فرحب بالدعوة، وانشرح صدره لقبولها... وقد أسلم المنذر وعرض على قومه الإسلام، فمنهم من أعجبه فدخل فيه، ومنهم من كرهه وبقي على مجوسيته أو على يهوديته[4].

هكذا كان استقبال المنذر لكتاب رسول الله ﷺ إليه بالاستجابة الناجزة فاعتنق الإسلام من فوره، ولعله كان يعرف شيئًا غير قليل عن الإسلام، ولعل العلاء بن الحضرمي قد قام بقسط من التعريف والترشيد... ولقد ظل المنذر محافظًا على حسن إسلامه، متمسكًا بعقيدته، ومات قبل فتنة الردة[5].

وأرسل رسول الله ﷺ مع سليط بن عمرو العامري كتابًا إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي، وكان ذا صلة بكسرى، ويزوره في المهمات، وكان نص الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هَوذَة بن علي، سلام على من اتبع الهدى. اعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يدك". فلما قدم عليه سليط حامل الكتاب - وكان مختومًا - أنزله وحيَّاه، وبعد أن قرأ الكتاب ودعاه رد على النبي ﷺ بكتاب جاء فيه: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك". وأجاز سليطًا الرسول بجائزة، وكساه أثوابًا من نسيج هجر[6].

---

١. فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٣٨٠.

٢. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص١٣٢.

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣٦١.

٤. فقه السيرة، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣٨١، ٣٨٢.

٥. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص١٣٨، ١٣٩.

٦. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٣، ص٨٧٢.

ليست هذه هي كل الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ، وإنما هناك رسائل أخرى لم نذكرها.

والجدير بالذكر هنا أن النبي ﷺ قد أرسل رسائل إلى ملوك عصره يدعوهم فيها إلى الإسلام، وقد لاقت ردودًا في نفوس أصحابها بغض النظر عن نوع هذا الرد، وسواء أسلم المرسَل إليه أم لم يسلم، وسواء كان ثمَّة عنف وشدة، كما حدث من كسرى الذي مزَّق كتاب رسول الله ﷺ، فدعا عليه الرسول بتمزيق مُلْكه، أم كان هذا الرد ملاطفة وإسلامًا، كما كان من باذان، والمنذر، أم كان حسن الرد فقط، كما حدث مع هوذة، حيث أرسل الهدايا للرسول ﷺ، وكذلك فعل المقوقس عظيم القبط.

وقد ذكرت هذه الرسائل وغيرها مما سنذكره من رسائل النبي ﷺ إلى أهل الكتاب ــ مراجع التاريخ العربي الإسلامي مثل:

١. ابن هشام: في الجزء الرابع في ذكر الرسائل.

٢. اليعقوبي: في الجزء الثاني في ذكر الرسائل.

٣. في الكامل في التاريخ: لابن الأثير، في الجزء الثاني.

٤. في البداية والنهاية: لابن كثير، الجزء الرابع.

٥. في تاريخ الرسل والملوك: للطبري، الجزء الثاني.

وما سبق من كتب هي أسس التاريخ العربي الإسلامي[1].

ومما يجمع عليه العقلاء أن لكل قوم أخبارًا يتناقلونها عبر الأزمنة، وأحداثًا تنتقل عبر الأجيال جيلًا بعد جيل، فللأمريكان مثلًا أخبارهم وقصصهم، ولكل دولة من دول أوربا قصصها وتاريخها الذي قد تعتمد في كتابته على أشخاص مجهولين، وأحداث مشكوك في صحتها، فهل يصح أن يقول أحد: ما الدليل على صحة هذه الأخبار؟ دون أن يدرسها ويناقشها بعد أن يكون قد أَلَمَّ بها إلمامًا واسعًا، فإذا كان الأمر كذلك مع أخبار الأمم والأقوام التي لا يهتم عامة الناس بضبط أحداثها ودقة تفاصيلها، فما الشأن برسول الله ﷺ الذي أرسله الله إلى قوم عُرفوا بقوة الحافظة وسعة الذاكرة ودقة الملاحظة، فإن سيرته وأخباره ﷺ تناقلتها الأمة المسلمة جيلًا بعد جيل وخلفًا عن سلف، وليس لأحد أن يشكك في شهادة هؤلاء الأخيار الأفاضل، أو يزعم أن هؤلاء الأفاضل إنما شهدوا لنبيهم فشهادتهم غير مقبولة؛ فإن هذا الزعم من شأنه أن يلغي جميع معجزات الأنبياء وجميع ما ورد عن أخبار السابقين؛ لأنه يمكننا أن نقول إن ما ورد عن عيسى عليه السلام أو ورد عن موسى عليه السلام إنما ذكره أصحابها والمقربون منهما، وكذلك الشأن مع بقية أخبار الأمم السابقة والمعاصرة.

ولا يزال الناس على مر العصور يعتمدون على بعضهم البعض في نقل الأخبار والأحداث، ولم يقل أحد بإلغاء هذه الأخبار، لأنها تعتمد على نقل أناس قد يخطئون أو يوهمون، غير أننا نقول إنه مع ذلك فإن الإسلام قد تميز بمنهج في نقل الأخبار ودقة الروايات فاق كل المناهج المعروفة وفاق كل النظريات المعرفية؛ فقد تميز المسلمون في نقل الروايات والآثار ونقدها بمنهج لا يوجد عند غيرهم من الأمم؛ إذ يعتمد هذا المنهج على الإسناد، والإسناد: هو تلقي الخبر من راو ينقله عمن فوقه وهكذا حتى نصل إلى أول الإسناد،

---

١. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٦٢ بتصرف يسير.

وقد وضع علماء المسلمين شروطًا صارمة لقبول صحة الخبر اعتمادًا على الإسناد، يقول الإمام عبد الله بن المبارك: "الإسناد عندي من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، ولكن إذا قيل له: من حدَّثك؟ بَقِيَ". ويقول الحافظ أبو حاتم الرازي: "لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار نبيهم وأنساب سلفهم إلا في هذه الأمة"[1].

وعلى هذا، فإذا كان التاريخ شاهدًا غير مردود، والواقع صادقًا غير مكذَّب، وإذا كانت الروايات متواترة بالصحة الإسنادية ومعروفة في كتب التاريخ، إذا كان ذلك كذلك ـ فإن الزعم بعدم الرد على رسائل النبي ﷺ زعم باطل لا دليل عليه، ولا يستند إلى برهان؛ إذ إن الواقع يكذبه، والتاريخ يخالفه، وإذا كنا قد سلَّمنا بأن ثمَّة رسائل أرسلها الرسول ﷺ للملوك فلا يصح إنكار الرد.

ثم لماذا لا يكون ثمة رد على رسائل النبي ﷺ وهي جديرة بالاهتمام والرد عليها، وخاصة وقد أصبح للإسلام هيبة، وأصبحت الأمة الإسلامية في منزلة سامقة بعد صلح الحديبية؟!! وأصبحت لها كيانها وعلاقاتها الخارجية؟!

ونحن لا نفهم لماذا يقرون بالإرسال وينفون ـ في الوقت ذاته ـ الرد على هذه الرسائل، مع أن العقل والمنطق يقضيان بأن الناس إزاء المواقف غير صامتين وخاصة في مثل هذا الأمر، وخاصة إذا عُرِض على الملوك، فلا بد أن يُبْدُوا ردًّا، سواء كان بالمعاندة والكبرياء، أم بالملاطفة وإرسال الهدايا، أم باللطف والإسلام؟ أما أن ننفي كل هذا فذلك أمر يصطدم والعقل السليم المنصف.

ثم بعد ذلك يتغافل المنكرون للرد ويتجاهلون ما تمخض عن بعض هذه الردود العنيفة من غزوات، مثل غزوتي مؤتة وتبوك®.

ثانيًا. موقف ملوك النصارى من رسائل النبي ﷺ:

إذا كان الإسلام قد احترم حق الآخر في الحياة والعقيدة، وحفظ له كرامته وإنسانيته، فإنه أنزل أهل الكتاب منزلة خاصة لم ينزلهم مثلها أي دين أو عقيدة أو حتى تشريع وضعي عند تعامله مع الآخر، فقد اشترط الحق ﷻ على المسلم الإيمان برسل أهل الكتاب وكتبهم، وهو شرط لا يكتمل إيمان المسلم بدونه: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (البقرة)، والرسول هو قدوة المسلمين جميعًا في الإيمان برسل الله جميعًا: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، ذلك أن الإسلام جاء ليكمل الشرائع السابقة عليه، لا ليهدمها أو ينفيها أو ينكرها، جاء ليصلح ما حرَّفه البشر منها: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى: ١٣)، وقد أمر الله ﷻ بمناقشة أهل الكتاب بالحسنى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

---

١. المختصر القويم في دلائل نبوة الرسول الكريم، د. وليد نور، دار الصفا والمروة، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٧٥: ١٧٧ بتصرف.

® في "عالمية الدعوة الإسلامية" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والعشرين، والشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ (العنكبوت)[(١)].

ولأن شريعة الإسلام ناسخة لجميع الشرائع السابقة والمهيمنة عليها جميعًا، ولأن الله ﷻ أخبر أن الإسلام هو الدين الحق، ومن ابتغى غيره فهو من الخاسرين: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ (آل عمران). ولذلك كان حديث رسول الله ﷺ: "والذى نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[(٢)].

نقول: للأسباب السابقة، وانطلاقًا من هذه الحقائق، كان لا بد من دعوة النبي ﷺ أهلَ الكتاب إلى الإسلام.

وإذا كنا بصدد الحديث عن ملوك النصارى، فإن الرسول ﷺ بعث أربع رسائل إلى رؤساء النصارى، وهم: هِرَقل قيصر الروم، والمقوقس الوالي الروماني على مصر، والنجاشي ملك الحبشة، والحارث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء، وكان لها رد من قِبَلهم، بغضِّ النظر عن نوعه، وهذه رسائل الرؤساء الثلاثة الأُوَل - سنكتفي بها - بالتفصيل:

١. **كتابه إلى قيصر:**

كان حامل كتاب رسول الله ﷺ إلي قيصر الروم هو دِحيَة بن خليفة الكلبي الصحابي الجليل، وترجح أكثر الروايات أنه سلم كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل وهو يحج ببيت المقدس، وهذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسلِم تسلم، أسلم يُؤتِك الله أجرك مرتين[(٣)]، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ (آل عمران)"[(٤)].

لقد كان طبيعيًّا أن تُحدث مثل هذه الدعوة دويًّا عظيمًا في بلاط قيصر، بل إنها أحدثت ارتباكًا وحيرة مصحوبتين بتفكير عميق من لدن قيصر وبطانته، خاصة وأنهم خارجون من حرب طاحنة بينهم وبين كسرى، وكان النصر حليفهم فيها.

قال قيصر لرجاله: التمسوا لنا ها هنا أحدًا من قوم هذا الرجل نسألهم عنه، وهو تصرف الساسة المحنكين والملوك الحكماء، وكان أبو سفيان بن حرب وبعض صحبه من رجال قريش قدموا تجارًا إلى بلاد الشام إبان الهدنة التي كانت بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش بعد الحديبية، فأتاهم رسول قيصر يستدعيهم ليمثلوا بين يديه، لكي يعرف منهم مزيدًا من أخبار

---

١. الإسلام والآخر، أحمد الجهيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٤٤، ٤٥ بتصرف.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٣).

٣. يؤتك الله أجرك مرتين: يعني لإيمان أتباعك بسبب إيمانك، أو لإيمانك بعيسى ؈ ثم محمد ﷺ.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

محمد ﷺ وشخصيته.

إن أبا سفيان يقصُّ على عبد الله بن عباس ما جرى بينه وبين قيصر من حوار حدث في زمن لم يكن فيه أبو سفيان قد أسلم بعد. يقول أبو سفيان: إن هرقل أرسل إليه في رَكْب من قريش فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وعليه التاج وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بتُرجُمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسبًا. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كَذَبَنِي فكذِّبوه. فقال: فوالله، لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من مَلِك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ أحد منهم سَخْطَة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يَغدِر؟ قلت: لا، ونحن منه في مُدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكنِّي كلمة أُدْخِل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال هرقل: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبْعَث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسَّى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتدُّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بِمَ يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دِحيَة الكلبي إلى عظيم بُصرَى فدفعه إلى هرقل فقرأه.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أُخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ

ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام[1].

وإذا كانت رسالة النبي ﷺ قد قوبلت بهذا الاهتمام والاحترام من قِبل قيصر، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعامله على بلاد الشام المنذر بن الحارث الغساني الذي أراد أن يوغر صدر قيصر، وطلب إليه السير إلى المدينة لمحاربة الرسول ﷺ، ولكن حقده لم يجد أذنًا مصغية، وذلك أن قيصر قد أرسل ردًّا جميلًا على كتاب الرسول ﷺ يقول فيه: "إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم. إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشَّرَنا بك عيسى ابن مريم، وإني دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيرًا لهم، ولوددت أني عندك وأغسل قدميك".

كان طبيعيًّا أن يكون الرد على كتاب الرسول إيجابي الجواب، إذ يبدو أن قيصر كان على معرفة جيدة بالعقيدة المسيحية التي لم يكن قد أصابها كثير من التحول بعد، كما كان على إلمام بآيات الإنجيل المبشرة برسالة محمد، ولم تكن هذه الآيات قد مُحِيت أو تعرضت للحذف مثلما هو حادث في الأناجيل المعاصرة، ومن ثم كانت إجابة قيصر مستجيبة، وإن لم يكن أمر الاستجابة حادثًا من لدن رعاياه الروم[2].

كان رد قيصر صريحًا، إذ قال: "إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى"، وهو المعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف: ٦).

إن أحدًا حتى الآن لم يطعن في نص كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر، وبالمثل فإن أحدًا لم يشكك في صيغة رد قيصر على رسول الله ﷺ، ومن المقطوع به أن قيصر لم يكن قد قرأ الآية الكريمة من سورة الصف، بل إنه لم يكن يعرف شيئًا عن النبي ﷺ، ولذلك سأل معاونيه أن يبحثوا له عن أحد يعرف شيئًا عنه، فعثروا على أبي سفيان وكان في تجارة مع بعض قومه من قريش في بلاد الشام، وكان الحوار معهم حول شخصية محمد ﷺ، كما تقدم[3].

وهرقل رجل سياسي، وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعِّم ملكه وينمي قوته، وقد تولى شئون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة المسيح تغلي غليان المِرْجَل[4]، وتثير في الأمة انقسامات مخيفة، وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد فعجز، وتمرد عليه اليعاقبة في مصر والشام.

فالكلام في الإلهيات ليس غريبًا عليه، والتقريب بين وجهات النظر ديدنه، ولعله في أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعًا، وربما تألَّفت في نفسه ــ لوقت محدود ـ فكرة الخروج عن عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد، ثم انطفأت لما ستجرُّه على الدولة من خلاف

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٢. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص١١٥: ١١٨.

٣. المرجع السابق، ص١٢٢، ١٢٣ بتصرف.

٤. المِرجَل: القِدْر من الطين المطبوخ.

أشق في وهمه، وأمر المملكة عنده أهم من أي شيء آخر[1].

وتأمل ما ورد في رسالة النبي ﷺ من تضمينه هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران)، إن فيها دعوة إلى المساواة "كلمة سواء بيننا وبينكم"، لا يقصد منها استعلاء ولا تحكم ولا استغلال، وفيها رفع لكرامة الإنسان، ودعوة إلى عدم خضوع أحد لأحد خضوع عبادة، فلا معبود إلا الخالق، والمخلوقون جميعًا ضعاف يتساوون في الدينونة إلى الله: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وفيها تقليد دبلوماسي رائع أساسه الدعوة إلى السلام والاحترام المتبادل بين الأمم[2].

وعودٌ على بدء نقول: إذا كان للإسلام هيبة ومكانة، وكان للأمة الإسلامية قدرها بعد صلح الحديبية، وإذا كان الرسول ﷺ أرسل رسالته للدعوة إلى الإسلام في أسلوب غير متسلِّط ولا متغطرِس، وإذا كان المرسَل إليه كتابيًّا يؤمن بالله، ومتعرفًا على الإلهيات، وعالمًا ببشارة عيسى بالنبي أحمد ﷺ - إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يكون ثمة رَدٌّ مِنْه على رسالة النبي ﷺ، وما الغريب في هذا، مع أنه، وإن تلطف في الرد لم يسلم، فقد خذلته شجاعته وطمعه في الرياسة والمنصب فآثر الفانية على الباقية. أما رده فهو نتيجة حتمية نبَّأت بها المقدمات.

وعلى هذا، فالزعم بعدم الرد أو التشكيك فيه غير مقبول؛ إذ لا دليل عليه ولا برهان، من واقع أو منطق وعقل أو تاريخ.

٢. كتابه ﷺ إلى المقوقس:

كتب الرسول ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسلِم تَسلَم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم القبط: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران)".

وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة، فلما دخل عليه، قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الربُّ الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيركَ بك. فقال: إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله، وهو الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى - عليهما السلام - إلا كبشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك

---

١. فقه السيرة، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٣٧٧.

٢. الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، الشيخ عطية صقر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥٨.

أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قومًا فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به. فقال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء[1]، والإخبار بالنجوى، وسأنظر، وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حقٍّ[2] من عاج، وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ: "بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد.. فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة وأهديت إليك بَغلَة لتركبها، والسلام عليك"، ولم يزد على هذا، ولم يُسلِم، والجاريتان: مارية وسيرين، والبغلة: دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية رضي الله عنه[3].

ومن الطريف أن مارية وأختها سيرين قد اعتنقتا الإسلام قبل وصولهما إلى المدينة، وعند وصولهما إلى المدينة بنى[4] رسول الله ﷺ بمارية، وأنجبت له ولده إبراهيم، فخلقت نسبًا ثانيًا بين آل إبراهيم عليه السلام ومصر، وذلك أن السيدة هاجر كانت من مصر، وتزوج محمد ﷺ من مارية المصرية.

وأما سيرين، فقد أهداها رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت ـ صاحبه وشاعره ـ تكريمًا له ولها، فأنجبت له عبد الرحمن[5].

فهل يحق لباحث بعد هذا كله ـ أن ينكر هذا الرد الذي روته كتب التاريخ، أو ينكر هذا الواقع الذي لا يكذب؟! فمن أين أتت مارية ومن أين أتى ابنها إبراهيم؟ ومن أين أتت سيرين وولدها عبد الرحمن؟!

ثم ما الغريب في أن يردَّ ردًّا جميلًا؟! أليس كتابيًّا، يؤمن بالله؟! أليس النصارى أقرب أهل الكتاب للمسلمين كما جاء في كلام حاطب بن أبي بلتعة؟ أليس قد قرأ الإنجيل، وعلم بتبشير عيسى عليه السلام بأحمد ﷺ، بيد أنه ـ المقوقس ـ قد وهم، فظن أنه يخرج من الشام؟! ثم إننا لا نعلم لماذا يثورون لأن الرجل ردَّ ردًّا جميلًا، مع أنه لم يسلم؛ إذ ضنَّ بملكه أن يفارقه ونحن لا نكذب الواقع والتاريخ في هذا، وغاية ما في الأمر أنه تلطف في الرد، فأي غضاضة وأي غرابة في هذا؟!

٣. كتابه ﷺ إلى النجاشي:

بعث رسول الله ﷺ كتابًا إلى النجاشي ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البَتول الطيبة

١. الخَبْء: هو الغائب المستور، يشير إلى إخباره ﷺ بالمغيبات التي أطلعه الله ﷻ عليها.

٢. الحُق: إناء صغير من عاج أو زجاج.

٣. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص٦٩١، ٦٩٢.

٤. بَنَى بها: تزوَّجها.

٥. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص١٢٣.

الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله تعالى وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى".

قال ابن اسحاق: إن عمرًا قال له: "يا أصحمة، إن عليَّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقَّة علينا، وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيرًا إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمِنَّاه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك موقع الحزِّ وإصابة المِفصَل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرّق النبي ﷺ رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر ينُتظر". فقال النجاشي: "أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر". ثم كتب النجاشي جواب كتاب النبي ﷺ: "بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي أَصحَمة، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد.. فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربِّ السماء والأرض، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفْرُوقًا[1]، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بُعِثْتَ به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدَّقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين"[2].

وهكذا تثبت الروايات الصحيحة إرسال النبي ﷺ إلى النجاشي، وكذلك أثبتت تلك الروايات الرد الجميل الذي ردَّ به على رسول الله ﷺ وإكرامه لأصحابه.

وقد جاء في بعض الروايات أنه أسلم، ولا غرو في ذلك؛ فقد كان مسيحيًّا نسطوريًّا، ومذهب نسطور قائم على التوحيد وينكر ألوهية المسيح، وعلى كل حال فإن الأجدر بالإشارة ـ هنا ـ والأهم أن الرجل قد رَدَّ على كتاب رسول الله ﷺ، وأحسن الرد، وتلطف وأجمل فيه، والقول بخلاف هذا ضرب من المجازفات غير المقبولة، التي ينكرها الواقع، ويكذبها التاريخ، ولا تتفق ومنهجية البحث، فالثابت لا يُنكَر إلا بدليل وبرهان، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (البقرة).

وإذا كان الله رب العالمين قد ذكر أن النصارى أقرب للمسلمين وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (المائدة)، وقد ورد ذلك في كلام حاطب بن أبي بَلتَعة للمقوقس حين قال: "إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى"،

1. التُّفرُوق: قمع التمر، أو ما يلتزق به قمعها.

2. زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ج٣، ص٦٨٩، ٦٩٠.

وإذا كانوا كذلك يعلمون أن نبيًّا بشَّر به عيسى نبيهم عليه السلام، وأنه سيظهر في آخر الزمان، وأكدت أناجيلهم ذلك وأكدت لهم علاماته، فعرفوا النبي ﷺ بذلك واعترفوا به - فليس غريبًا أن تصدر منهم ردود على رسائله ﷺ، بل وليس غريبًا - ألبتة - أن تكون ردودًا جميلة الرد، متلطفة فيه، وهذا يوضح اختلاف ردودهم عن كسرى الذي لم يكن عنده علم من الكتاب، وأية غرابة في هذا؟!! ثم أية غرابة في ردود لم تتعد جمال الرد ولطفه وإرسال الهدايا إلى الإسلام، اللهم إلا ما كان من أمر النجاشي، وهو - مع ذلك - مُخْتَلَفٌ في إسلامه، ولا يضيرنا في هذا عدم إسلامهم؛ فإنهم بعدما علموا علامات نبوته ﷺ، لم يستطيعوا تكذيبه في ذلك، ولا سمعنا أن أحدًا منهم كذبه في ذلك أو شنَّع به؛ لأن علاماته الواردة في أناجيلهم قد تحققت فيه ﷺ.

أما أنهم قد ألهتهم ممالكهم، وآثروا الفانية على الباقية، فهذا لا يقدح في أنهم استقبلوا رسائله ﷺ، وردوا عليها في لطف وأدب(®).

الخلاصة:

- لما كانت رسالة الإسلام رسالة عالمية، مهيمنة على ما سواها من الشرائع وناسخة لما قبلها، كان ولا بد أن يحقق النبي ﷺ هذه العالمية فيدعو الناس جميعًا إلى الإسلام، وقد كان صلح الحديبية باعثًا على تحقيق هذه العالمية.
- أرسل النبي ﷺ رسائل إلى الملوك والأمراء بعد صلح الحديبية واستقرار أمور الدولة بعقد الهدنة مع القرشيين، فأرسل إلى كسرى ملك فارس، فمزق رسالة الرسول ﷺ، إلا أن ابنه قتله فيما بعد، وأرسل ﷺ إلى أمير البحرين فأسلم وأرسل للرسول يستشيره فيمن بقي على يهوديته أو مجوسيته، وأرسل ﷺ إلى صاحب اليمامة هوذة بن على، فأحسن الرد وأهدى للنبي ﷺ ولم يسلم.
- كان لهذه الرسائل ردود، فهي جديرة بالاهتمام، بعدما أصبح للأمة الإسلامية مكانتها، وقد روت هذه الردود كتب التاريخ العربية الإسلامية، فلا يصح أن ننكرها فلكل قوم تاريخهم وأخبارهم التي يتناقلونها بعضهم لبعض وعليه تقبل أخبارهم، فكيف إذا كانت من المسلمين الذين يتبعون منهج الإسناد الذي لم يعرف له مثيل حتى قال مرجليوث: "ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم". كما أن الناس تجاه المواقف لا بد أن يبدوا ردودًا بغض النظر عن نوع هذا الرد.
- أما فيما يتعلق بأهل الكتاب، فقد عاملهم الإسلام معاملة حسنة وجعل الإيمان برسلهم وكتبهم من الإيمان بالله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ، وأمر الله ﷻ بمجادلتهم بالتي هي أحسن، ومن هنا أرسل النبي ﷺ إلى رؤساء ملوك النصارى هرقل، والمقوقس، والنجاشي.
- لاقت هذه الرسائل من الملوك اهتمامًا، وكان الرد لطيفًا جميلًا - غالبًا - أما هرقل فقد استدعى أبا سفيان، وتعرف منه على علامات نبوة النبي ﷺ فأرسل إلى النبي ردًّا جميلًا شهد فيه أنه هو الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام، وليس هذا غريبًا على من عرف الإلهيات، وعلم ما في الإنجيل، بيد أنه خاف على ملكه ولم يسلم،

(®) في "أدلة وصول رسائل النبي ﷺ إلى الملوك" طالع: الشبهة الرابعة والعشرين، من هذا الجزء.

أما المقوقس فقد أحسن الرد وأهدى للنبي مارية وسيرين وغيرهما من الهدايا، ولكنه لم يسلم، فكيف ننكر ردَّه، ونحن نعترف بوجود مارية وابنها إبراهيم الذي أنجبته، وكذلك سيرين وابنها عبد الرحمن. أما النجاشيّ فذكرت بعض الروايات أنه أسلم، والجدير بالذكر أنه قد ردَّ وأحسن الرد.

- لماذا يُستغرب الرد الجميل من هؤلاء النصارى وهم أهل كتاب، وقد علموا من أناجيلهم أن نبيًّا في آخر الزمان سوف يُبعَث، وقد علموا علاماته، ولكنهم لم يسلموا لخوفهم على ممالكهم وإيثارهم الفانية على الباقية، أما ردهم فهو نتيجة أرهصت بها المقدمات، ولعل هذا يوضح سبب اختلاف ردهم عن ردِّ كسرى الذي لم يكن عنده علم من الكتاب.

الشبهة السادسة والعشرون

التشكيك في أن رسائل محمد ﷺ إلى الملوك والأمراء كانت بغرض دعوتهم إلى الإسلام(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن رسائل النبي ﷺ إلى أباطرة الروم والفرس لم تكن تهدف إلى دعوتهم للإسلام، بقدر ما كانت تنطوي على حقدٍ دفينٍ واستنكارٍ لهيمنتهم وسيطرتهم على البلاد آنذاك.

ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في أغراض دعوته ﷺ وحقيقة نبوته.

(*) بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، مرجع سابق.

وجه إبطال الشبهة:

لم يكن هدف النبي ﷺ من كتابة رسائله إلى ملوك عصره، إلا دعوتهم إلى الإسلام، وهذا ما يدل عليه مضمون هذه الرسائل، وقد آتت هذه الدعوة أكلها يوم دخلت شعوب هؤلاء الملوك في الإسلام وانضمت تحت لوائه.

التفصيل:

لم يكن هدف النبي ﷺ من إرسال رسائله إلى الملوك سوى دعوتهم إلى الإسلام:

في البداية نود أن نشير إلى أن النبوة المحمدية نبوة شاملة للبشر جميعًا، فقد أرسل الله محمدًا ﷺ ليكون للعالمين بشيرًا ونذيرًا، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي، ولا أبيض وأسود، ولا سيد وعبد، فالكل عند الله سواسية، يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سبأ: ٢٨)، ويقول ﷻ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، ويقول ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣ ﴾ (التوبة).

وإذا كان النبي ﷺ رسولًا للناس كافة كما نصت آيات القرآن الكريم، فهو إذن مطالب بتبليغ الدعوة للناس كافة عربهم وعجمهم؛ لأنها مهمته ﷺ التي من أجلها ابتعثه الله، والتي من أجلها فارق بلده الحبيب، وتحمَّل صنوف الأذى والاضطهاد والمحن، وتعرض بسببها للكيد ومحاولات القتل مرارًا، وعلى الرغم من كل هذا لم يحد عن هذه الدعوة قَيْد أُنْمُلة، بل كانت

شاغله الأول والأخير، وهمه الذي أرَّقه حتى توفاه الله.

لهذا نجده ﷺ بعد عودته من صلح الحديبية ـ وكان قد أمن شر قريش ومناوأتها لدعوة الإسلام ـ لا يلجأ إلى الراحة، بل يجد ﷺ الفرصة سانحة لتبليغ رسالة الإسلام للناس جميعًا عربهم وعجمهم، ولم يكن ليخفى على النبي ﷺ ما يعانيه العالم حينئذ ـ فارس والروم ـ من انحراف ديني، وفساد خلقي، واضطراب اجتماعي، وما وقع بينهما من حروب وغارات أنهكت قوامهما، مما جعل هذه الشعوب على استعداد لقبول الإسلام، الذي ينعمون فيه بالإيمان والأمان والحرية والإخاء والعدل والمساواة، ولذلك لم تكد تنتهي ثلاثون عامًا من دعوتهم!! حتى كانت هذه البلاد قد دخلت فيه واستظلت بلوائه، لهذا نجده ﷺ يتجه إلى دعوة الملوك كملك الروم وكسرى فارس والمقوقس عظيم القبط وغيرهم؛ لأن الملوك هم المؤثرون في حياة شعوبهم، سواء كانوا سببًا في السعادة أم في الشقاء، لهذا أراد النبي ﷺ دعوتهم إلى الإسلام فعزم على مكاتبة الملوك والأمراء، وإرسال رسائل تدعوهم إلى الإسلام[1].

ولقد أعلن النبي ﷺ قبل أن يبعث تلك الرسائل أن غرضه من إرسالها هو الدعوة للإسلام لا غير.

ومضمون هذه الرسائل يؤكد أنها كانت بدافع الدعوة للإسلام لا بدافع الحقد والحسد كما يزعم هؤلاء.

إن نص رسائل النبي ﷺ إلى ملوك عصره هو خير دليل على أن هذه الرسائل كانت بغرض دعوتهم ودعوة أقوامهم إلى الإسلام لا لأي غرض آخر، ولنتأمل نص هذه الرسائل لتزداد هذه الحقيقة وضوحًا:

نص رسالة النبي ﷺ إلى قيصر الروم:

حمل دِحيَة الكلبي رسالة النبي ﷺ إلى هرقل قيصر الروم وكان فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل قيصر الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. أَسْلِم تَسْلَم، وأسلم يؤتك الله تعالى أجرك مرتين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)"[2].

نص رسالته ﷺ إلى كسرى الفرس:

حمل عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى رسالة النبي ﷺ والتي فيها: "من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلم تَسْلَم، فإن أبيت"[3].

نص رسالته ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط:

كان حامل رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم مصر

---

١. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٧، ٣٥٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٣. حسن: ذكره ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك (٢/ ١٣٢)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٥٦).

حاطب بن أبي بلتعة وكان فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)"[1].

هذه هي نصوص ثلاث رسائل كتبها النبي ﷺ إلى ثلاثة من ملوك عصره وهم: هِرَقل ملك الروم، وكِسرَى ملك فارس، والمُقوقِس عظيم القبط.

فلنتأمل ما اشتملت عليه هذه الرسائل من عبارات وألفاظ، ثم بعد ذلك نحكم عليها: هل هذه الرسائل كانت بغرض الدعوة للإسلام، أو أنها كانت تعبيرًا عن حقد دفين وشعور بالنقص لدى النبي ﷺ تجاه هؤلاء الملوك كما يزعمون؟!

١. لقد بدأت هذه الرسائل الثلاث بالتعريف بشخص النبي ﷺ وأنه رسول الله إليهم، ولا شك أن وصف النبي ﷺ بوصف الرسالة هو من باب دعوتهم إلى الإسلام، فإن صدَّقوا أنه رسول الله لم يكن هناك ما يمنعهم من الدخول في الإسلام.

٢. ثم جاء بعد هذا قوله ﷺ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ (طه)، فهي إذن دعوة إلى الإسلام ودعوة إلى الهداية، لا لحقد دفين كما يزعمون.

٣. ولنتأمل قوله ﷺ لكل واحد منهم: "أَسلِم تَسلَم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين"، هل يستطيع أحد أن ينكر أن هذه دعوة صريحة للإسلام؟!

ثم لننظر إلى هذه الآية الكريمة التي وردت في رسالتي النبي ﷺ لهرقل وللمقوقس: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)، هل يستطيع عاقل أن ينكر أن هذه الآية تدعو إلى الإسلام وتحذر من الشرك؟!

هذه هي رسائل النبي ﷺ كما ذكرتها كتب السيرة، فليس لدى المسلمين ما يخشون إظهاره، فليتأمل فيها من شاء أن يتأمل، ثم فليعد النظر والتدقيق مرة أخرى، ثم ليخبرنا بعد ذلك عن عبارة تفيد أن النبي ﷺ كان يعبر في هذه الرسائل عن حقد دفين، وعن امتعاض من سيطرة الملوك وتسلطهم، لا شك أن هذه العبارة ستعجزه؛ لأنه لن يستطيع أن يعثر على مثل هذه العبارة إلا في خياله فقط.

ثم إذا كانت هذه الرسائل تعبر عن حقد وغيظ من النبي ﷺ على هؤلاء الملوك، فلماذا لم يثر هذا حفيظتهم ويدفعهم للانتقام من النبي ﷺ؟! بل جاء رد فعلهم متعاطفًا معه ﷺ كما كان من هرقل ملك الروم والمقوقس عظيم القبط، حيث شهد كل منهما بصدق النبي ﷺ وأبدى ميله إلى الإسلام، لولا أنهما ضنَّا بملكهما، فقد قال هرقل لأبي سفيان بعد أن سأله عن النبي ﷺ: "إن يكن ما تقول حقًّا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أني

---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٢٧٦: ٢٨٦ بتصرف.

أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي"[1].

وهكذا شهد قيصر الروم بنبوة محمد ﷺ، لكن الذي حدث أن نبوته ﷺ كانت أقوى من توقعات القيصر، حيث ملك محمد ﷺ ملك قيصر كله[2].

أما المقوقس فقد شهد كذلك بأن محمدًا ﷺ نبي دون أدنى شك، فقد قال لحاطب حامل رسالة الرسول ﷺ إليه: "إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فرأيته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه؛ لا أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة من الإخبار بالنجوى"، ووصف لحاطب أشياء من صفة النبي ﷺ، وقال: "القبط لا يطاوعونني في اتباعه، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك، وأنا أضن بملكي أن أفارقه، وسيظهر على بلادي، وينزل بساحتي هذه أصحابه من بعده، فارجع إلى صاحبك، وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه"[3].

فقد آتت هذه الرسائل إذن بعض ثمارها، فقد علم كل من هرقل والمقوقس أن محمدًا ﷺ نبي من الله، وليس مجرد رجل حانق على ما هما فيه من الملك والسيطرة والتسلط.

ولقد يسأل سائل: إذا كان الأمر هكذا، فلماذا اختلف رد فعل كسرى عن رد فعل صاحبيه؛ إذ إنه استشاط غيظًا من كتاب النبي ﷺ؟

ونحن نجيب بأن السر في هذا أن كسرى كان مجوسيًّا وليس لديه علم أهل الكتاب كهرقل والمقوقس اللذين عرفا صفات النبي ﷺ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الفرس لم يكونوا يومًا يقيمون وزنًا لجميع العرب، لهذا استشاط غيظًا لما رأى أحدهم - وهو رسول الله ﷺ - يدعوه لاتباعه، فمزق رسالته، وأرسل عامله على اليمن ليأتيه به، ولكن الله لم ينله مراده، بل جعل قتله على يد أحد أبنائه، وكان ذلك علامة لعامله على اليمن - باذان - فأسلم هو ومن معه.

إذن فشهادة هرقل والمقوقس بنبوة محمد ﷺ وإسلام باذان عامل كسرى على اليمن كان من ثمار رسائل النبي ﷺ لهؤلاء الملوك، وقد آتت هذه الرسائل أكلها يوم دخلت تلك البلاد - فارس والشام ومصر - في الإسلام، وانضمت تحت لوائه. وهذا كله من شواهد الواقع التي تؤكد أن رسائل النبي ﷺ لملوك عصره كانت تهدف إلى دعوتهم إلى الإسلام لا غير.

الخلاصة:

- لقد كانت مهمة محمد ﷺ أن يبلغ رسالة ربه للناس كافة كما أخبره ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾(سبأ: ٢٨)، لهذا نجده ﷺ بعد الحديبية - وبعد أن أمن شر قريش - يعلن لأصحابه عن رغبته في دعوة الملوك والزعماء إلى الإسلام، فأجابه أصحابه إلى ما أراد.
- إن المتأمل في مضمون رسائل النبي ﷺ إلى ملوك عصره يجدها تدل دلالة واضحة على أن الهدف منها هو

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٢. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٢٧٧: ٢٧٨ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص٢٨٤.

دعوتهم إلى الإسلام، ويكفي أن هذه الرسائل قد تكرر العبارات دلالات صريحة على الدعوة إلى الإسلام، وإن المتأمل في هذه الرسائل يعجزه أن يجد عبارة واحدة تدل على حقد أو استنكار لهيمنة هؤلاء الملوك.

فيها عبارات مثل: "السلام على من اتبع الهدى" و"أسلم تسلم"، ولا يخفى على أحد أن في تلك

- كان من نتائج رسائل النبي ﷺ أن أسلم باذان عامل كسرى على اليمن ومعه أناس كثيرون، وكذلك شهد هرقل والمقوقس بنبوة محمد ﷺ، وقد آتت هذه الرسائل أكلها يوم دخلت تلك البلاد ـ فارس والشام ومصر ـ في الإسلام، وهذا كله من شواهد الواقع التي تؤكد أن رسائل النبي ﷺ لكبار ملوك عصره كانت تهدف إلى دعوتهم إلى الإسلام لا غير.





المصادر والمراجع

- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الهيثم، مصر، ٢٠٠٤م.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية ورد الشبهات عنها، هدى عبد الكريم، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٦م.
- الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام والآخر، أحمد الجهيني، محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، إدوارد جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- أمية محمد ﷺ، خالد محمد عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك، معهد علوم القرآن والحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، مصر، د. ت.
- البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د.ت.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، ط٢، د. ت.
- التكافل الاجتماعي في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ط٧، ٢٠٠٧م.
- تلقي النبي ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- حرب الغرب على الإسلام والنبي ﷺ، محمد بن عبد الملك الزغبي، دار الحكمة، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، د. سيد القمني، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠م.
- حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٦، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع عبد السميع كفافي، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ٢٠٠٥م.
- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- دلائل النبوة ومعجزات الرسول، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه، الشيخ عطية صقر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، دار الصحيفة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد ﷺ"، السيد حامد السيد علي، مطابع الولاء الحديثة، مصر، ٢٠٠٦م.
- ردود على أباطيل وشبهات حول الجهاد، عبد الله البراك، النور للإعلام الإسلامي، عمان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الرسول ﷺ، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

- الروض الأنف، السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد بيومي، دار الحرم للتراث، مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.
- شبهات المستشرقين حول العبادات في الإسلام، د. ناصر محمد السيد، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
- شغب اليهود على الأنبياء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، د. ت.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- عظمة الرسول والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، دار مكة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، خليل عبد الكريم، ميريت للنشر والمعلومات، مصر، ٢٠٠١م.
- فقه الزكاة، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٦، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- فلاسفة الشرق، أ. ف توملين، ترجمة: عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس المبرد، مؤسسة المعارف، بيروت، د. ت.
- لكن محمدًا لا بواكي له، د. إبراهيم عوض، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- محبة النبي ﷺ وطاعته بين الإنسان والجهاد، د. خليل إبراهيم ملا خاطر، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ط٣، ١٤٢٠هـ.
- محمد رسول الله، إتيين دينيه، سليمان بن إبراهيم، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- محمد رسول الله، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- محمد رسول الله ﷺ أعظم البشر، حمزة النشرتي، عبد الحفيظ فرغلي، دار النشرتي، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- محمد المثل الأعلى، توماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠١م.
- محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، دار المحبة، دمشق، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار المريخ، الرياض، ط٢، ٢٠٠٤م.
- محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- المختصر القويم في دلائل نبوة الرسول الكريم، د. وليد نور، دار الصفا والمروة، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- مدخل إلى الدراسات القرآنية، د. محمد بلتاجي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- المذهب الاقتصادي في الإسلام، د. محمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧م.
- المسيحية بين التوحيد والتثليث وموقف الإسلام منها، د. عبد المنعم فؤاد، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- مصدر القرآن: دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- المصطفون الأخيار، الشيخ عطية صقر، دار مايو الوطنية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- مفتريات المستشرقين وعملائهم على الإسلام، د. إسماعيل علي محمد، دار النيل، مصر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- من صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- منهجية جمع السنة وجمع الأناجيل: دراسة مقارنة، د. عزية علي طه، دار البحوث العلمية للنشر، مصر، ١٩٨٧م.
- موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٨٩م.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، مصر، ط١، ٢٠٠٤م.
- النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٩، ٢٠٠٥م.
- النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان، السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- نظرية النسخ في الشرائع السماوية، د. شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل، حسن يوسف الأطير، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠٧م.
- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، د: سمير عبد الحميد إبرهيم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، شركة كندة، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- الوحي والقرآن الكريم، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الثاني: الرسول

المجلد الثاني

ج ٤

شبهات حول

دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي